أبو نليا

تأليف حضرة السيد المحترم

علي احمد الشهيدي

الطبعة الثانية

حقوق الطبع محفوظة للملتزم

طبع بالمطبعة الشرفية بمصر

سنة ١٣٢٧ هجريه ﴿المؤلف﴾ سنة ١٩٠٩ ميلاديه

obeikan.com

obeikandl.com

فاتحة الكتاب

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

الحمد لله الذى كون الاكوان فابدع صنعها ثم خلق الطير والحيوان واعد لها مستلزماتها سبحانه خلق الانسان من صلصال من حمأ مسنون فصوره على احسن صورة وجعل له العقل واللسان يدفعانه عن كل رذيلة ويحثانه على كل فضيلة ثم الصلاة والسلام على الانبياء والمرسلين لاسيما خاتمهم اجمعين ومن تبعهم من الموحدين

﴿اما بعد﴾ فقد خلق الله الانسان مولعاً بالحياة الدنيا سواء فى سرائه وضرائه أو فقره وغنائه أو اقدامه وجبنه أو علمه وجهله حتى لكثرة مايعانيه فى سبيل ذلك لايسترجع له فؤاد ولا يطمئن له بال ولا ينام الا وهو غريق فى مشغولياته الدنيوية يتقلب طول ليله على جنب مابين محاربة النوم ومعاكسة الأرق وزعزعة الفكر وقلقلة الجسم كأنه على شواظ من نار الى ان يقوم مبكراً فيشغل نفسه بما كان فيه قبل ان ينام وهكذا يتداول الانسان ايامه ولياليه فى معترك هذه الحياة سنة الله فى خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلا

وتلك المشغوليات الدنيوية تختلف لدى عموم الناس باختلاف اخلاقهم وعاداتهم زماناً ومكاناً حتى اصبح لكل منهم وجهة هو موليها قد شغلته فألهته عما ينتابه من طوارئ الحدثان • وكوارث الزمان • ذلك الذى نتج عنه ان

كثيراً من الناس قد انقادوا للشر بأنواعه بناء على ان الانسان اميل للشر اكثر منه الى الخير وهم السواد الاعظم من اهل هذا الزمان الذين صاروا تعساء الدارين حيث حادوا عن سواء السبيل وضلوا ضلالا مبينا بصرف النظر عما يخيل لهم فى انفسهم انهم متمتعون بالراحة المنشودة والسعادة الدنيوية • والبعض الآخر قد جعلوا الخير ديدنهم فسلكوه بكافة انواعه ولو ان منهم من تغالى غلوا كبيرا فى ذلك ومنهم من تساهل ومنهم من اعتدل الا ان المنفعة على وجه العموم مضمونة لهم ولذويهم بل والنوع البشرى على الاطلاق • ولعمرى فهؤلاء هم اقرب للسعادة الحقيقية من اولئك الذين هم شر على انفسهم بل على الهيئة الاجتماعية فى هذه الحياة الدنيا

نعم ان السعادة بكافة معانيها هى عبارة عن حصول الانسان على مايريده أو بعضا منه سواء كان نافعا أو ضارا كما تشعر النفس بذلك ويقر عليه كافة الحكماء الا ان معتقدى فى هذه المسألة لايخرج عن ان اشرف سعادة على وجه العموم هى السعادة التى يحس بها الانسان عند حصوله على الواجب لنفسه ولعشيرته ولوطنه ولدينه كما لايخفى على كل عالم بحقائق الامور • ذلك مادعانى للتنويه عنه استفزازاً لارباب اليراعة واستنهاضا لأولى العزم والخدمة العامة كى يقوموا بما تقضي عليهم به الذمة والشرف فيعتنوا باصلاح حال اولئك التعساء الذين يلزمهم ان يستيقظوا من رقادهم الطويل فينظروا لانفسهم ولبنى الانسان عموماً نظر الحكيم العاقل والطبيب الماهر فيصلحوا ماافسده الدهر ويقوموا ماعوج من حالنا ويداووا مرضى نفوسنا وطباعنا بما يلائم عاداتنا ويوافق مشاربنا سواء كنا فقراء أو أغنياء

وقد خصصت استنهاضى بأرباب اليراعة فى هذا الموضوع لالشئ سوى انهم هم الفئة الشريفة الوحيدة التي عليها المعول فى كل امة بل هى التي تقود

افكار الكبير قبل الصغير حتى انه لاتقوم قائمة حسنة كانت أو سيئة الا ونجد اكبر مثير لها هي تلك الفئة التي اذا شاءت جعلت السراب ماء والحجة قبة والدمع بحراً والبحر براً بما احرزه رجالها من بلاغة التعبير وفصاحة اللسان وقوة الحجة فضلا عن الخبرة بحقائق الامور وتقلبات الدهور • اولئك هم الذين اذا طرقوا بابا ولجه الناس وراءهم زرافات ووحداناً كأنهم ملوك والكل لهم يتبعون

يذكرنا ذلك بكثير من مشاهير الكتاب والمؤلفين الذين ظهروا من كافة الامم القديمة والحديثة حيث كانت لهم اليد البيضاء في إخماد الثورات العظيمة والقلاقل الوخيمة التي لولاهم لكان من ورائها إثارة المواطن وتهييج القلوب وشق الجيوب وإقامة الحروب وسفك الدماء ويتم الاطفال وخراب البيوت وإعدام الاسرات لاعلى شئ سوى النذر اليسير من المطامع الاشخصية

ثم لاتقوم قائمة تلك الفئة القليلة بنفسها الكثيرة بعملها في أي زمن من الازمان الا بموازرة الاغنياء وأولى الامر موازرة أقل مافيها أن لاتنقص عن تشجيع الفئة المذكورة على ماتسعى اليه كما يدعو الى ذلك الخير وتفرضه مكارم الاخلاق وتنادي به الانسانية والآداب • فضلا عن ان الانسان مهما بلغ من الثروة والسودد والفخار والراحة بل مهما بلغ من زينة الحياة الدنيا فان ذلك لايلبث أن يزول في طرفة عين عند ما يأتيه الموت من حيث لايحتسب فيمسي ساكن رمسه ويصبح وحيدا بعمله الدنيوي بين يدي الملك الديان • هنالك ينظر الانسان بحسرة ويسرة فلم ير امامه أثرا لما كان فيه من ذلك النعيم الزائل بل من تلك الزينة الكاذبة حيث يتحقق وقتها من ان الحياة الحقيقية ليست بالصفة التي شب وشاب عليها قبل أن يموت بل هي بصفة أخرى غابت عنه وحجبتها عن بصره وبصيرته زخارف الحياة

على انني لاأعني بتلك الصفة الا الاعمال الخيرية التي اذا غاب الانسان عن الوجود لحظة فهي لم تغب عنه هنيهة واذا طرأ عليه مايثبط همته ويضعف عزيمته فهي هي بعينها لايعتورها شئ من ذلك الضعف وذلك التثبيط . وعلى العموم فان الانسان لابد أن تنقضي أيامه القليلة ثم يذهب الى حيث أتى أما تلك فتبقى أبد الآبدين

ولو بحثنا في أنواع تلك الاعمال الخيرية لضاق بنا المقام واحتجنا للتحرير والتحبير آناء الليل وأطراف النهار الا أننا لانتكلم هنا الا على وجه العموم من حيث الخير بكافة معانيه حيث ان أفضل عمل يأتيه الانسان في حياته هو ما كان نافعا في الدنيا والآخرة كما أشار الى ذلك الحديث الشريف الذي جمع فأوعى من الحكم البالغة والمعاني الثمينة حيث قال صلى الله عليه وسلم « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً »

نعم تلك الاعمال الخيرية مفروضة على الانسان فرضاً محتوما من حيث هو انسان لاتأثير للفقر والغنى على ذلك لان الفقير لايطلب منه شئ يؤديه سوى المساعدة الادبية بقدر مايستطيع كهداية نفسه وغيره من بني نوعه بالقلب واللسان لابالهيلم والهيلمان . أما من كان ذاسعة وبسطة في العيش خصوصا سلاطين الاموال وأصحاب التيجان وأولوا الكلمة النافذة فهؤلاء هم المسئولون جميعاً امام الله والناس أجمعين عما يفرط منهم من التقصير في اصلاح الحال ماديا وأدبيا

على انه والله ليحزنني بل يحزن كل محب للخير ان توجد الالوف المؤلفة من الموسرين الذين لاشغل لهم سوى ان يسرحوا ويمرحوا في بحبوحة الانس والطرب تائهين في بيداء الرذيلة ضالين في صحارى الغفلة غير ناظرين لمن حولهم من اخوانهم في الانسانية الذين قد سطى عليهم الدهر بكلكله فأصبحوا

من المعوزين ماليا وأدبيا يستحقون الرأفة والحنان والمساعدة من اولئك الموسرين الذين غمرهم الله بآلائه . ذلك لان الحياة فى الحقيقة كلها واحدة لافرق فيها بين غنى وفقير الا فيما ولدته الافكار السخيفة واقتضته البهرجة الكاذبة وأوجده الترف والتخفخة الوهمية . ذلك الذى فى الغالب لايؤامن به الانسان الا وقتما يصيبه الله بمرض أو مصيبة تذكره بماضيه ومستقبله بل تبسط بين يديه بساط حسناته وسيئاته فضلاعما تشخصه اليه من آمال النفس والاعيب الهوى وزخارف الحياة وتقلبات الدهور حيث وقت ذلك تجلى الحقيقة للانسان فيندم على مافات وانقضى بعد ان يعتقد كل الاعتقاد بان حياته بل حياة النوع البشرى فى هذه الدار كلها غرور فى غرور ولم يبق منها باقية الا ماقدمت يداه من خير أو شر

ولكن من أين يكون لمثل اولئك الموسرين الضالين خير أو حسنة مادام الجمود قد استولى على بعضهم من جهة والانهماك فى الشهوات النفسانية قد سطى على البعض الآخر من الجهة الاخرى حتى قست قلوبهم وعميت بصيرتهم وصاروا فى حالة لانؤمل معها اصلاحا أو فلاحا اللهم الا ان كانت هناك عناية الهية تهديهم سواء السبيل فيأتمروا بأوامر الله ويتعاونوا على فعل الخير ومحاربة الشر فيزول عنهم ذلك الانهماك وذلك الجمود

نعم نحن نعتقد تماماً بأن الله سبحانه وتعالى لم يحرمنا من أناس ذوى فضل ومروءة قولا وعملا الا انهم ويا للاسف يعدون على الاصابع بالنسبة لما هو فيه النوع الانسانى من كثرة الانتشار والازدحام العظيم خصوصا الشرقيون الذين أصبحوا الآن مضغة فى الافواه تلوكها على الدوام ألسنة القريبين والبعيدين سواء كانوا من طبقات عالية أو متوسطة أو متأخرة حتى اليونانيين باعة الزيتون والتليانيين أكلة المكرونة الذين هم أدنى مرتبة بين عموم الغربيين

ومن الغريب اننا نحن الشرقيون عند مانناقش انفسنا الحساب نتحقق من ذلك العيب الهائل فنندب سوء حظنا ونوبخ ضميرنا ثم نعقد الخناصر على محاربته محاربة قد لايمضى عليها سواد الليل حتى تزول من صفحات أفكارنا بناء على جمودنا وعدم تعودنا على فعل الخير فضلا عما قد سرى فى شراييننا من الخمول وعدم الثبات فى أمورنا الداخلية والخارجية . ذلك الذى أثر على عواطفنا تأثيراً كاد يمحى مالدينا من الاستعداد الطبيعى الذى تظهره الحركة وقت الحاجة ويخفيه السكون وقت اللزوم الا انه لحسن الحظ لم تزل له باقية فى نفوسنا كامنة فى صدورنا نؤمل أن تحيا وتترعرع بكرور الايام ومرور الاعوام حتى بها نعيد لانفسنا سيرتنا الاولى من النخوة والشهامة والفلاح والنجاح فنبارى غيرنا من الغربيين بل نفوقهم ماليا وأدبيا غير ان ذلك على مايظهر لايتأتى الا بعد أن تتنبه حواس الشرقيين وتدب فيهم الغيرة والحماسة فيخلعوا رداء خمولهم ويبذلوا كل عزيز لديهم فى خدمة أنفسهم وبلادهم فيصبحوا فى مقدمة الناس أجمعين

إننى أتأسف والله من أن أضرب مثلا بالبلاد المصرية تنويهاً على مانحن بصدده الآن ولكن هى الحقيقة أحوجتنى لذلك حيث ان عدد سكانها يبلغ ١٢ مليونا من النفوس الذين عند ماتقوم بينهم قائمة خيرية لايصيبها منهم الا آذان صماء وعيون غامضة وأفئدة واجفة كأنهم الى الموت مساقون مع ان أقل الامم الغربية التى لاتبلغ عشر البلاد المصرية مالا ورجالا تأتى من المروءة فى مثل هذا المقام مايعلى شأنها فى الخافقين ويخلد ذكرها فى الدارين ويعود على بنيها بالخير العاجل

على انه من ضمن عجائب المصريين بل من مصائبهم التى يسعون اليها من تلقاء أنفسهم ان الله سبحانه وتعالى عند مايهيئ أحدهم لعمل من الاعمال

الخيرية كتشييد الملاجئ واقامة المساجد وتوسيع نطاق التعليم وما شابه ذلك مما يفرضه الدين وتميل اليه النفس الشريفة وتنادى به الانسانية وتحث عليه الآداب فلا يقابلونه الا بالسخرية والاستهزاء بل بالحسد والبغضاء متقولين عليه بان ذلك العمل ماقام به الا لغرض فى نفسه ومرض فى قلبه قد سرى فى شرايينه حباً فى الشهرة ورغبة فى الظهور • الامر الذى انبنى عليه ان كثيرا من أهل الخير قد انثنوا عما كانوا اليه يسعون تاركين الذنب على مثل أولئك الذين هم صاروا شرا على أنفسهم وذويهم ووطنهم فى كل زمان ومكان • ولكن من جهة أخرى لايليق باصحاب الخير أن يلفتوا نظرهم لتلك الاقاويل بل يلزمهم أن ينظروا لها شذرا ويضربوا بها عرض الحائط شأن لرجل العاقل الذى يقدر الامور قدرها دون أن يلفت نظره لسفاسف الاقوال وفساد المفسدين الذين أعدهم زجراً وهداية ان شاء الله عند مأشرع فى تتميم كتابى الذى بين يدى الآن • أما كتابى هذا الذى أقدمه هدية منى لبنى آدم وحواء على وجه العموم فأرجو ان يكون خير كتاب أخرج للناس فيما وضع لاجله وأن يكون هو الكتاب الوحيد الذى يصبح مرآة تشخص للكثير مالم تسمع به آذانهم ولم ترى أعينهم بأبلغ عبارة وأوجز مقال وأسهل تعبير مما لو قضى الانسان فى الحصول عليه من تلك المجلدات الضخمة والمؤلفات الطويلة العريضة لاحتاج للوقت الكثير والتعب الشديد • ذلك الكتاب الذى اشتمل على البحث فى أصل الكون ومشتملاته وعلى تاريخ الانسان ومتعلقاته قديما وحديثا فضلا عن أنى قد سرت فيه سيرا مقبولا يحبب للقارئ أن يتلوه من أوله لآخره دون أن يضجر أو يعتوره الملل

قلت انى سرت فى هذا الكتاب سيرا مقبولا وما ذلك الا لانه كما سيراه القارئ مشتملا على ألطف موضوع وألذ ماتميل اليه جوارح الانسان بل محتويا على منتهى مايصل اليه البحث وأقصى مايرمى اليه نظرنا فى كل زمان ومكان

وفى الحقيقة ليس هناك شئ ألطف وألذ من أن يعى الانسان فى صدره شيأ عن تاريخ الكون ومشتملاته والانسان ومتعلقاته لانه على الدوام ينظر فى ذلك بعين الروية والامعان ويفكر فيه طويلا كلما وجد لنفسه مجالا ولفكره احتمالا معللا نفسه بان يقف على الحقيقة فى القريب العاجل • ذلك ماحدانى لان أعانى ماعانيته من المتاعب والمشقات فى درس الكتب السماوية والاطلاع على أهم التواريخ الارضية قديمها وحديثها خصوصا الكتب المصرية تلك التى كانت كلها عوناً لى بل أعظم نصير على تأليف كتابى هذا الذى أخرجته للناس أجمعين أملا فى أن اكون قد قمت بخدمة تصادف قبولا لدى عموم الناس بل الناطقين بالضاد خصوصا كى بالاقل يكون ذلك سببا لتشجيع مثلى فيثابر على هذا العمل النافع والمقصد الشريف • ولست أطلب من القارئين أجرا أو شكرا انما أطلب منهم والبهم الهداية والتوفيق كى يغفر الله لى ولهم ذنوبنا ويتوب علينا انه هو التواب الرحيم

على أحمد الشهيدى
المؤلف

الفصل الاول

الكون

قبل أن نبحث فى أمر الانسان ومتعلقاته من جهة نشأته وأحواله زمانا ومكانا يهمنا كثيرا أن نكون على بصيرة من أصل هذا الكون الشامل لهذه الارض وما حولها من فضاء وهواء وماء وأجرام سماوية • ذلك الذى شغل الناس عموما من عهد نوح وابراهيم وموسى فى استكشاف حقيقته والوقوف على كيفية وجوده لان الانسان كلما وقع نظره ولو على جزئ من الجزئيات سواء كان جمادا أو نباتا أو حيوانا سعى من نفسه بحكم الطبيعة وراء استكشاف حقيقته واستقصاء تاريخه باذلا فى ذلك جهد الاستطاعة مهما عانى من المتاعب

والمشقات أملا فى استنتاج نتيجة أو ظهور فائدة تعود عليه وعلى النوع الانسانى بالخير والفلاح والنجاح . فاذا كان ذلك شأن الانسان فى الجزئيات فما بالك بالكليات التى أهمها ما كان له به علاقة كبرى كالكون ومشتملاته من أرض وماء وهواء وسماء

على انه كان للامم القديمة فى البحث عن أصل هذا الكون أفكار مختلفة وآراء متباينة مابين خرافية ودينية وعلمية قد كانت سببا لتنبيه أفكار الامم الحديثة تنبيها حملهم على الخوض فى عباب هذا الموضوع فخاضوا عبابه وجابوا سهوله وحلوا عويصه حتى انهم لم يتركوا صغيرة ولا كبيرة مما يشاهدونه فى هذا الكون مشاهدة حسية أو معنوية الا وحللوها تحليلا عقليا وكيماويا حتى استخلصوا من ذلك رأيا علميا دعوه (الرأى السديمى) الذى يقضى بان مشتملات هذا الكون كانت فى إبان أمرها عبارة عن أجسام غازية مائعة منيرة حارة شاغلة لهذا الفضاء الذى لانهاية له على الاطلاق ثم لما أخذت تلك الاجسام تشع حرارتها صارت تتكاثف شيأ فشيأ بمعنى أن بعض الغازات استحال الى سوائل والسوائل الى جوامد والجوامد أخذت عناصرها المؤلفة منها تتلاصق ببعضها على هيئة كتل مختلفة الحجم والشكل سابحة فيما يحتاطنا من هذا الفضاء كى تمضى عمرها مابين الذبوبية والكهولة والشيخوخة والهرم حتى يقضى الله بها أمرا كان مفعولا إما عودة للتجديد أو فناء فى فناء

العالم الشمسى

قد علمنا مما تقدم أن الكون مؤلف من تلك الكتل أو بالحرى من تلك الاجرام التى تخلف عنها النظام الشمسى الموجود الآن حيث كان سديما كما أوضحنا فتكاثف الى كتل كثيرة مختلفة الحجم والشكل والحرارة أكبرها سموه الشمس التى لزيادة جاذبيتها تغلبت على الكتل الاخرى فأوقفت جزأمنها

بدون حركة وسموها الكواكب الثابتة • أما الجزء الآخر فبعضه دار حولها وبعضه حول نفسه وحول بعضه وجميعها سموها الكواكب السيارة • ومن بين هذه الكواكب ماهو غير صالح للحياة كالقمر وما هو صالح لها كالارض التى عند ماتجرد ظاهرها من الحرارة اكتسى بقشور أخذت تتعاظم شيأ فشيأ بتأثيرات الجو وتقلباته حتي صارت صالحة للحياة النباتية والحيوانية التى من ضمنها الانسان

ويظهر ان أول شئ ألفت أنظار الباحثين للتنبؤ بان أصل الكون كان بتلك الصفة هو ماتراه الآن بأعيننا فى السماء عند مانظر اليها فى ليلة صافية الجو حيث تتجلى لنا كافة الاجرام الظاهرة مختلفة الحجم والشكل واللون واللمعان وفى احدى حوانب الفضاء يرى الانسان شكلا ممتدا من الشمال الى الجنوب بغير انتظام يتخيل لنا انه ضباب خفيف يسمونه العرب (أم السماء) وعلماء الهيئة اتفقوا على تسميته باسم (السديم) الذى هو فى الحقيقة مكون من أجسام غازية مائعة منيرة حارة مختلفة الاشكال والاوضاع كما تحققها الباحثون بالنظارات الكبيرة وبالاخص كافة المراصد الفلكية التى أشهرها مرصد (ايدنبرج) ومرصد (هيدلبرج) ومرصد (كيل) ومرصد (يركس بشيكاغو) ومرصد (هرفرد الامريكاني) فانها كلها أجمعت على ان ذلك السديم هو بالصفة البادئ ذكرها ويحتوى فعلا على اجرام كثيرة مشابهة للاجرام الشمسيه

العالم الفرساوى الجديد

تلك هى النظرية التى بني عليها علماء الهيئة ذلك الرأى السديمى الذى كان أصلا لعالمنا الشمسى الذى نحن فيه الآن كما يقولون • وزادوا على ذلك بأنه سيظهر عالم آخر خلاف العالم الشمسى مصدره تلك السدم المتجمعة في هذا الفضاء حيث ان أغلب الفلكيين أخذوا يباشرون حركاتها وسكناتها من وقت

لآخر حتى فى أثناء شهر فبراير سنة ١٩٠١ استكشفوا كتلة كبيرة ذات تغييرات عظيمة سموها (فرساوس) نسبة لاول مرصد رآها فراقبوها المراقبة الشديدة الى أن ظهرت لهم كتل أخرى متكاثفة تدور حولها من الشرق الى الجنوب بسرعة زائدة لم يروا لها مثيلا للآن

ولما كانت كل أنبائهم مبنية على القياس العقلى والنظرى حكموا لاول وهلة بان تلك السدم ستتحول بتوالى الازمان الى أجرام تدور حول فرساوس المذكور كما تدور كواكبنا الآن حول الشمس فيصبح الكون مشتملا على عالمين : عالم شمسى وعالم فرساوسى • وان كانوا لم يهتدوا لتعيين المدة الباقية على هذا الانقلاب الهائل الا انه ليس على الله بعزيز

وعلى العموم فاننا كلما نظرنا لذلك بعين العقل والتأنى والروية استراح له فكرنا لكونه مبنياً على العلم الصحيح • ذلك الذى دعانا للتصديق بما ذكرناه غير هيابين مايعتورنا من معارضة المعارضين وتبجح الجاهلين المدعيين بأن ذلك ينافى ماجاءت به الاديان السماوية كما جاهر به بعض بسطاء اللاهوتيين بناء على ماسرى فى شرايينهم من التعصب الاعمى الذى لم يتمكن منهم فى الغالب الا لنقص فى الفهم أو تفاوت فى التفسير أو اختلاف فى العقائد والمشارب • والحقيقة ان ماانزله الله وما أتى به العلم الصحيح هما توءمان مولودان من أب واحد وأم واحدة لافرق بينهما مهما اختلفت أحوالهما زمانا ومكانا • ذلك لاننا لو نظرنا لما جاءت به الاديان وما فسره المفسرون وما أبداه المتقدمون والمتأخرون من جهابذة اللاهوتيين والسنيين وتأملنا فى كل ذلك بعين العقل والروية لعلمنا بان الله سبحانه وتعالى كون الاكوان تدريجا مبتدئا بخلقة النور أولا ثم بعد ذلك خلق الشمس والقمر وباقى الكواكب ثم الحيوان والطير والانسان • أما الرأى السديمى فأورى بان الكون أصله مادة منيرة كانت موجودة أولا ثم

تكونت منها الشمس وباقى الكواكب السماوية • ولعمرى فهذان التعبيران متطابقان لايختلفان مهما كابر المكابرون الذين يهرفون بما لايعرفون

عمر الكون

اذا كان الانسان قد عرف كيف صار الكون بالصفة التى هو عليها فيهمه كثيرا أن يعرف مبدأ تكوينه كى يتسنى له تعيين تاريخه بالضبط ولكن للاسف دون الوصول لذلك خرط القتاد لان البحث فى أمره من أعمق المباحث التى تعب فيها الاولون والآخرون فذهب تعبهم أدراج الرياح كما أشار الى ذلك ملك حماه أبو الفدا اسماعيل المؤرخ الشهير بقوله : « ان مسألة مبدأ الكون هى مسألة خلافية حيث لم يحصل فيها لغاية الآن الوقوف على قول ثابت صحيح » • ذلك لان الانسان كان متوحشاً فى بدء نشأته فلم يكن له عقل يؤهله للسير على مقتضى ما كان عليه آباؤنا سائرون من تورخ الحوادث وتخطيط البلدان ونشر ذلك فى كل زمان ومكان غير انهم قد اعتمدوا أخيرا على ماأنبأنا به التاريخ المقدس كما هو وارد بسفر التكوين الذى هو فى الحقيقة أقدم تاريخ وجد على سطح الارض يمكن للمؤرخين أن يعتمدوا على مافيه لانه اشتمل على بعض مواليد ووفيات البشر وعلى مدد ولايات وأعمار بعض الانبياء والملوك وغيرهم من رؤساء الاسرات ومشاهير الرجال من عهد آدم وحواء ولكنه فضلا عن ذلك فقد ذهب المؤرخون مذاهب شتى قد تنوف عن المائتى مذهب عند ماأرادوا استخراج المدة الكائنة بين نشوء الكون ويوم ميلاد المسيح الا ان مذهب المؤرخ الشهير (أوسيريوس الارلندى) هو الارجح حيث اتضح انه أقرب للحقيقة بشهادة كثير من أشهر المؤرخين الفرنساويين مثل (بوسوه ورولان ودانو) • ومذهب أوسيريوس المذكور يثبت ان الله خلق الكون فى شهر توفمبر سنة ٤٠٠٤ قبل ميلاد المسيح فلو أضفنا الى ذلك تلك المدة الكائنة

بين ميلاد المسيح وسنتنا هذه (سنة ١٩٠٦) فيكون عمر الكون هكذا :
٤٠٠٤ + ١٩٠٦ = ٥٩١٠ سنه على الارجح . ولكنهم لم يزالوا متمسكين بأن عمر الكون أقدم من ذلك بكثير مدعيين بان تلك المدة بالنسبة لعمر الكون او على الاقل بالنسبة لعمر الارض ماهى الا لحظة يسيرة بالنظر لما سبقها من السنين الكثيرة والدهور الطويلة خصوصا أصحاب الرأى السديمى ومن جاراهم من العلماء والمؤرخين الذين جاهروا بان تلك المدة وان كانت مستخرجة من أقدم التواريخ الموجودة فانها على مايرون لاتكفى لتكوين الارض حتى صارت على الحالة التى هى عليها الآن من جهة صلاحيتها للحياة النباتية والحيوانية لانها تحتاج لمدد طويلة تفوق هاتيك المدة بآلاف من القرون بل زادوا على ذلك بقولهم : ان عمر الارض ليس الا صفراً أو هو العدم بالنسبة الى عمر الكون . وقد شجعهم على التمسك بذلك ماجاء بالتاريخ المقدس عند ما كان الله يقاضى قابيل بن آدم وقتما قتل أخاه هابيل فضلا عما اعتمدوا عليه مما تحدث به بعض الأنبياء وأئمة الاديان وبالأخص صاحب الشريعة الاسلامية نبينا (محمد صلى الله عليه وسلم) كما ستجد ذلك كله واضحاً ضمن ماسنشرحه فيما بعد عن عمر الانسان

ومن غرائب الصينيين انهم قد ادعوا أن أمتهم كانت كلما عمرت جيلا ترمز اليه بنصف عامود من الرخام حتى بتوالى القرون أخذوا فى حصر ماتجمع من تلك الرموز فوجدوا ان أمتهم عمرت (٩٦٠٠٠٠٠٠ سنة) أعنى ستة وتسعين مليونا من السنين . وهنا يقف الانسان باهتاً لايدرى ماذا يقول فى عمر الكون اذا كان عمر تلك الامة كما يقولون

وليست الامة الصينية هى التى انفردت بذلك بل شاركتها فيه تلك الامة

المصرية القديمة التي لم يزل التاريخ يتباهى بما كانت عليه من التمدين والتقدم والعمران حيث كان قدماؤها يعتقدون بان ديارهم كانت فى سالف الزمان آهلة بآلهة وأرواح اناس من الاموات ... قبل ان يحكمها آدم وبنوه الواردون بالكتب الدينية وكان أول القائلين بذلك هو القسيس العالم والمؤرخ المصرى الشهير (مانيتون) الذى أثبت ان تلك الآلهة وهاتيك الارواح مكثت حاكمة بديار مصر مسافه من الزمن تبلغ ٥٧٣٠ سنة قبل الملك (مينيس) الذى كان أول من تولى مصر من البشر فى سنة ٥٧٧٣ قبل ميلاد المسيح حيث بهذا القول يكون الانسان قد وجد قبل ميلاد المسيح بمدة من الزمن تبلغ (١١٥٠٣ سنة) . ولم يكن هو الذى استقل بذلك الرأى بل وافقه عليه كثير من المؤرخين المتأخرين فضلا عما تقولته أمم اليابان والفرس والعراق مما لم يخرج عن القول بأقدمية الكون بكثير عما قد ورد بالتاريخ المقدس المذكور . كما وقد ذكر العلامة الشيخ علاء الدين على البسنوى فى كتابه (محاضرة الاوائل) الذى فرغ من تأليفه سنة ١٩٨ هجرية انه : « ورد فى الخبر ان آدم لما خلق قالت الارض له : يا آدم قد جئتنى بعدماذهبت جدتى ونضرتى وشبابى وقد بليت وفنيت »

نعم ربما يداخلنا الشك فى صدق هاتيك الافكار التى يعتبرها بعضنا من قبيل الخرافات ولكن هل أوحى الينا أو أنبأنا العلم الصحيح بما يعزز جانبنا ويدحض تلك الاقاويل حتى نهزأ بها ونسخر بقائليها ونسعى فى محاربتها لمحوها من عالم الوجود .

على ان البحث فى هذه المسألة قد بلغ مبلغاً لانؤمل بعده شيئاً جديداً يستحق ماتعانى فى سبيله من الشقاء الذى فى الحقيقة لا يعود علينا الا بالخيبة

وسوء المآل حيث لا يكون مثلنا فى ذلك الا كمثل من يستفتى نفسه عما عاناه ورآه ولاقاه • وعما سمعته أذناه وصنعته يداه • وعما نطق به لسانه وهداه اليه جنانه وهو فى المهد صبياً لا يدرى شيئاً يكون • ذلك الذى أعتبره أبلغ تمثيل يلقى على مسمع ممن يوالون البحث فى هذه المسألة عليهم يكفون فيرجعوا ويكتفوا من الغنيمة بالاياب حيث لم أفهم ولن أفهم ولا أريد ان أفهم كيفية وصولنا لمعرفة عمر الكون الذى خلقه الله قبل ان يخلق الانسان الذى فى الحقيقة لم يعلم شيئاً عن بداية نفسه سوى بعض أفكار أملاها عليه العقل وأنبأه عنها بعض الآثار التى لم تزل لهذا العهد معرضة للشك والارتياب كما سيتضح لنا ذلك فيما سيأتى عن الانسان

فناء الكون

كأنى بك أيها المطلع وقد استراح ضميرك وتغذى لبك مما شرحناه عن عمر الكون ثم أصخت لى بسمعك وشخصت لى ببصرك تنتظر منى شيئاً عن فناء الكون

ففناء الكون لا بد وأن يكون حيث مامن شىء الا وله آخر كما اتفقت على ذلك كافة الاديان سماوية كانت أو أرضية غير أن الاولى فى الغالب قد بنت الفناء المعبر عنه بالآخرة على نظريات دينية مختصة بالانسان وسيره وعمله وفعله لا محل لذكرها الآن وانما العلماء الفلكيون الذين بحثوا الكون وما اشتمل عليه من كل شىء تراه أعيننا وتسمع به آذاننا خصوصاً الافلاك السماوية التى فضلا عن كونهم توصلوا لتعيين مراكزها ومعرفة حركاتها وسكناتها بالثانية والدقيقة والساعة واليوم والشهر والسنة والقرن فانهم ايضاً التمسوا من وراء ذلك كشف شىء من حقيقة تاريخ ذلك الفناء الذى كانوا يتوقعونه عند ما يلاحظون فى سير الافلاك خللا أو أى تغيير حتى وان بعض اولئك الفلكيين كانوا يتنبأون

فى أغلب الاعصار بحدوث حادث ذى شأن هائل ينبنى عليه فناء الكون أو بالحرى فناء الارض وما عليها من الكائنات إما بطوفان عمومى يسخره الله فيجرف ماعلى سطح الأرض من حىّ وجماد • وإما ببرد قارس يوقف الحركة الدموية فيجمد الدماء فى العروق جموداً مقرونا بذهاب الحياة • وإما بنيران تتأجج من البراكين الأرضية فتلتهب ماعلى الأرض من الكائنات • وإما أن ينقضّ على الأرض كوكب ذو ذنب أو شهاب ثاقب فيبيدها بالاحتراق فى طرفة عين

ولو أن كل هذه الروايات قد كانت تتناقلها ألسنة الفلكيين من قديم الازل حتى أخذت أدواراً مهمة بين الناس فى تلك الاعصار الا ان بعضها ظهرت له آثار لم تكن نتيجتها الفناء المزعوم والبعض اختفى عن الاعين فلم تظهر له آثار على الاطلاق كما حصل أيام أبى تمام الشاعر الطائر الصيت حيث تنبأ القوم وقتها بقرب ظهور نجم ذى ذنب سيكون سببا لخراب البلاد وفناء الكون فأثر ذلك على عقول الناس جميعا حتى خافوا شره واعتقدوا اعتقادا صحيحا بأن الحياة قد كسدت بضاعتها ودالت دولتها باقتراب الساعة فاستعد الكل ليوم القيامة وهو ذلك اليوم الذى تشيب لاجله الولدان ولا ينفع فيه مال ولا بنون • الا ان الله لم يحقق دعوى أولئك الفلكيين فمضى الميعاد المضروب للنجم المزعوم دون أن يتحقق ذلك النبأ المخيف فانقلب الناس بعد ذلك من احزانهم الى أفراحهم الاولى مستهزئين بالفلكيين ومن جاراهم على نشر تنبؤاتهم المدهشة فى كل عصر من الاعصار كما أشار الى ذلك أبو تمام بقوله :

أين الرواية بل أين النجوم وما * صاغوه من زخرف ومن كذب
تخرصاً وأحاديثاً ملفقة * ليست بنبع اذا عدت ولا غرب
عجائباً زعموا الايام مجفلةً * عنهن فى صفر الاصفار أو رجب

وخوّفوا الناس من دهياء مظلمة * اذا بدا الكوكب الغربيّ ذو الذنب

على أن ماعده ابو تمام من قبيل التخرص والاحاديث الملفقة عده علماء العصر الحديث أمراً محتمل الوقوع حيث اتفقوا على ان انقراض الارض بل فناء الكون أمر لابد من حصوله مهما تعددت الخوارق الطبيعية • وقد تشبه هذه الرواية رواية حديثة العهد تداولتها ألسنة العالم بكافة أرجاء الدنيا فى آخر القرن التاسع عشر مغزاها ان الفلكى الشهير المدعو (فالب الجرمانى) أورى ان الكون سيفنى يوم ١٣ نوفمبر سنة ١٨٩٩ بسبب احتكاك الارض بأحد الكواكب السيارة الكبيرة ذوات الاذناب نظراً لكون ذلك الكوكب سيتحرك حركة غير معتادة • ذلك الذى ذاع وشاع حتى ملأ الاسقاع وملته الاسماع فاهتم به الفلكيون اهتماماً زائداً فى كل بقعة من بقاع الارض وبحثوه بحثاً دقيقاً فوافقوا أخيراً على ان ذلك الكوكب سيتحرك حقيقة الا أنهم لم يتنبأوا عن نتيجة هذا التحرك إن كان خيراً أو شراً • ذلك الذى جعلنا وقتها بل جعل سكان الارض قاطبة فى خوف ورعب وهرج ومرج شأن الانسان عند مايتوقع لنفسه مصيبة لم تكن فى الحسبان خصوصاً فى مثل هذا الامر الذى سيكون وراءه الخراب العام والموت الطويل حتى وأن منا من كان يتأسف وقتها على هذا الفناء قبل أن يتمتع بما أعده لنفسه من ملاذ الحياة الدنيا حالاً واستقبالاً • ومنا من كان يقلب صفحات تاريخه فيراها مسودة فيندم على مافات وانقضى طالباً من الله التوبة والغفران • ومنا من ترك الامور تجرى مجراها الى أن تحرك ذلك الكوكب وتساقطت شهب كثيرة دون أن يحصل ما كان فى الافكار فانقضى ذلك اليوم على أحسن حال وأصبح كل منا يهنئ الآخر كأنه مولود من جديد

وقد كان فالب الجرمانى المذكور سبباً لتجديد البحث فى فناء الكون حتى تعب فى ذلك كثير من العلماء العصريين الذين بعضهم تنبأوا بأن الكون سيفنى

يوم ٢ مايو سنة ١٩٢٩ والبعض قالوا باحتمال فنائه يوم ٩ ابريل سنة ١٩٣٠ كما ورد بجريدة الاهرام عدد ٨٥٤٦ رقم ٢٢ مايو سنة ١٩٦ ٠ لذلك نحن نطالب من الله أن يطيل عمرنا فنتحقق من صدق هذا التنبؤ أو كذبه وما ذلك على الله بعزيز

على ان كل هذه التنبؤات ليست أول ماسمعه الانسان بل طالما تنبأ الفلكيون بمثل ذلك من قديم الزمان بناء على مايحصل من التغييرات الجوية التى معظمها يكون حقيقياً إنما لايعود على الكون بأى ضرر يكون ٠ وفى الغالب أن أزمنة هذه الخوارق الطبيعية تحدث فى الكون كل ٣٣ سنة وبضعة شهور كما قرره بعض العلماء الذين أكثروا من مراقبة الحوادث واختبارها فى كل زمان ومكان

وعلى العموم فان خلاصة ماقيل فى هذا الموضوع بل القول الراجح الذى يفوق كل الظنون والأقاويل هو ماوصل اليه بعض الفلكيين الذين يروق لهم البحث فى أسرار الغيب من ان الأرض ستبرد فى زمن من الازمان من جهة طرفيها اللذين يصيران وقتها غير صالحين للحياة البشرية لتجردهما من الحرارة التى عليها مدار الحياة فيلتجئ الانسان لأن ينزح منهما ويتجه نحو خط الاستواء ٠ وبسبب هذا الانقلاب العظيم سينقلب الانسان فى شكله وسيره ومعاشه وكل مستلزماته الداخلية والخارجية الى أن يؤول أمره لمغالبته مع الأرض بأن يأكل نبتها ويشرب ماءها وكذلك هى تأكل لحمه وتمتص دماءه الى أن تشع حرارتها فتكون غير صالحة للحياة ٠ ولمناسبة ذلك نقول :

إن العلامة (فلا ماريون) صاحب المباحث الكثيرة فى مستقبل الغيب لما وصل فى مباحثه الى أن الأرض سينتابها البرد الشديد فى زمن من الأزمان أورى بأن آخر نقطة على سطح الأرض تكون صالحة للحياة وقتها هى النقطة

التى فيها الاهرامات المصرية لأن هـذه النقطة ستكون أدفأ النقط على وجه العموم حتى اذا انمحت الحرارة بأكملها من الأرض تموت الكائنات ويصبح كل من عليها فان ولم يبق الا وجه ربك ذو الجلال والاكرام

وفضـلا عن ذلك فان بعض الطبيعيين يقولون ان الابخرة المتصاعدة من البحار هى فى الغالب أبخرة نقية لاملح فيها ولا تراب ولا أى شئ يكون • تلك التى عنـد ماتتصاعـد فى الجو تتحول الى أمطار ثم تسقط على سطح الأرض فتسيل وتجرف مايصادفها من تراب وحجارة وغيرها من الجوامد التى تتحول معها الى قاع البحار • قالوا وبتوالى الايام والسنين والقرون والدهور يتحول ماعلى البر الى البحار فيصبح سطح الأرض سهلا واحداً ليس فيـه شئ من التلال والاودية والجبال فيرتفع ماء البحار الى أن يعم جميع ماعلى سطح الأرض فيكون الطوفان الاخير • وقد قدر بعضهم المدة الكافيـة لحصول ذلك فبلغت خمسة وأربعين ألف قرن والله أعلم بتحقيق ذلك لفناء الكون وفوق كل ذى علم عليم

الكواكب السماوية

مما تقدم علمنا ان الشمس اصبحت مركزاً لدائرة الكون أو محوراً تحيط به كافة الكواكب صغيرها وكبيرها بقوة مجهولة لم يستكشفها أحد للآن ولوان اللاهوتيين يعبرون عنها بالقوة الالهية الا أن الفلكيين يدعون انها لابد وأن تكون من ضمن عالم الاسرار التى مازالوا ولن يزالوا يوالون السعي وراء كشف حقيقتها بما أوتوه من العقل الراجح والعلم الصحيح

نعم هم نسبوها للجاذبية الطبيعية ولكنهم ليسوا على علم تام من تلك الجاذبية وماهيتها ولذلك يلزمنا أن نعتبرها سراً لم يزل من ضمن أعمق الاسرار كما أشار الى ذلك (نيوتون) أحد الفلاسفة البحاثين اذ قال : « انى أعرف شريعة

الجاذبية ولكننى أجهل كل الجهل ماهية الجاذبية »

تعدادها ــ . وكان مقدار تلك الكواكب ومعرفة حركاتها وسكناتها من ضمن مجهولات القرون الاولى ولكن لما رصدها الكلدانيون والمصريون واليونانيون وغيرهم من الامم القديمة والحديثة توصلوا لمعرفة أمكنتها وأزمنتها وسموها باسمائها ثم قدروها بما ينوف عن الثلاثين مليوناً تقريباً كما يتضح ذلك من الخريطة السماوية التى وضعها أخيراً مرصد باريس • وقد قسموها الى قسمين أحدهما سموه بالقسم الثابت والآخر سموه بالقسم السيار كما اوضحنا أولا

منافعها ــ . لايتحقق من منافع الكواكب الا من كان على سفر طويل حيث تكون له سراجاً منيراً ورفيقاً أنيساً بل مرشداً أميناً يهديه الطريق المستقيم فلا يضل عما يريد • خصوصا وان الملاحين والرحل فى الصحارى والبرارى قد اعتنوا بها كثيرا فكانوا أول العارفين بمراكزها وحركاتها وسكناتها وكل مايطرأ عليها من تغيير أو تبديل بطريق الفراسة والمشاهدة الى أن هان عليهم السفر براً وبحراً فى أصعب الطرق وأوعر المسالك فعاد ذلك عليهم بالمنفعة الكثيرة وعلى بنيهم من بعدهم أجمعين

الهواء

أما الهواء الذى نراه سابحاً فى الجو ومحاطاً بالكائنات من كل مكان فهو نتيجة التفاعلات الكيماوية الناتجة من استحالة تلك السدم الى الصفة البادى ذكرها • وهو مكون من عنصر الحياة أعنى الاوكسيجين الذى هو فى الحقيقة أكبر سبب لحياة النباتات وكل الطيور والحيوانات

طبقاته ــ . وللعلماء بحث طويل فى الهواء قد استخلص منه أحد علماء المانيا المدعو (هنريكس) خلاصة تقريبية تشير الى أن الهواء الجوى مؤلف

من خمس طبقات مختلفة الثقل والعناصر والارتفاع أخفها ما كان أبعدها عن سطح الارض

فالطبقة الاولى تعلو سطح الارض باثنى عشر ميلا وفيها أوكسيجين الحياة بكمية عظيمة • والثانيـة تعلو الاولى بثلاثين ميلا وأوكسيجينها نصف مافى الطبقة الاولى • والثالثة تعلو الثانية بستين ميلا • وبعـدها الطبقة الرابعة ثم الخامسة وتعلوها مائة ميل • وبعد هذه الطبقة يتألف الهواء من الايدروجين الخالى من أوكسيجين الحياة أعنى انه بعد الطبقة الخامسـة لايعيش شئ من نبات وطير وحيوان

تحركاته ـ • وللهواء تحركات غير منتظمة تارة تكون من الشمال وطوراً من الجنوب وأخرى من الشرق أو الغرب • كما انها تتحرك بقوة مختلفة يخشى منها فى بعض الاحيان من هدم البيوت وتقليع الاشجار وتعطيل الاعمال وتأخير الاسـفار • وما ذلك الا نتيجة تأثير حرارة الشمس على الارض وعلى مافوق سطحها من الكائنات كالمياه والنبات والاحجار والرمال المنتشرة فى نقط مختلفة الاتساع والانخفاض والارتفاع

فاذا كانت الحرارة متسلطة على نقطة متسعة بعضها رملى قاحل والبعض ذات اشجا ونبات فبتأثير الحرارة تسخن الرمال فيسخن الهواء الملامس لها فيتمدد ويصير خفيفا فيرتفع للاعلا فيكون محله خالياً فيأتى فيه الهواء المجاور له ثم يكون محل هذا خالياً أيضاً فيأتى فيه الهواء الآخر الذى يجاوره وهكذا حتى بهذه الكيفية يتولد مجرى هوائي يعم تلك النقطة وما جاورها من النقط الاخرى وتكون حركته مختلفة فى القوة باختلاف قوة تأثير حرارة الشمس على تلك الكائنات حتى اذا كانت الحرارة شـديدة كانت تلك الحركة كذلك والعكس بالعكس

منافع حركته ـ . وكان لحركة الهواء فى الازمنة الغابرة منفعة عظيمة ذات أهمية كبرى خصوصاً فى تسيير المراكب الشراعية فى البحار حيث كانت تقرب البعيد وتسهل المواصلات وتنشر التجارة فى كل صقع من الاصقاع . ولو أن تلك الاهمية قد قلت كثيراً فى الازمنة الاخيرة بسبب اختراع السفن التجارية والسكك الحديديه التى حلت محل تلك المراكب الشراعية فزادت المنفعة أضعاف الاضعاف الا انها لم تزل على حالتها الاولى فى البحار والانهر الصغيرة خصوصاً بين كافة الفقراء

الارض

قد علمنا مما أوضحناه سابقاً ان الأرض هى من ضمن تلك الكواكب السيارة التى بعد أن تخلفت من النظام الشمسى ونشعت حرارتها الظاهرية اكتست بقشور تعاظمت بحكم الطبيعة فأصبحت صالحة للحياة النباتية والحيوانية

ولما كنا من ضمن تلك الحيوانات رأينا ان الأرض هى مهبط وجودنا ومنبت قوتنا ودار سعادتنا وشقائنا منها أحيانا الله وفيها يعيدنا ومنها يخرجنا تارة أخرى . ذلك الذى لأجله ينبغى للانسان أن يكون خبيراً بها عالماً بما اشتمل عليه سطحها من نهر ونهيرات وأبحر وبحيرات وجبال ووديان ومدن وسكان وعشائر وقبائل ودول وحكومات وغير ذلك مما أوجدته الطبيعة ثم أوجده الانسان

وانه ليحزنني والله أن يوجد شخص على قيد الحياة له عينان تنظران ويدان تعملان ورجلان تسيران وعقل يقود الجميع ثم أراه لا يدرى شيأ عن هذا الكون وبالاخص عن الارض وما وجد على سطحها من التقسيمات الطبيعية والوضعية التي وضعها الانسان باختلاف الدول والزمان والمكان مما كان سبباً لتسهيل معيشتنا فى هذه الحياة الدنيا

ولعمرى فان الارض تستحق هذه العناية العظيمة لالكوننا مخلوقين منها فقط أو لكونها منبع قوتنا بل لأنها في منزلة دارنا وعار علينا أن نكون فى دار تقبنا شر طوارئ الحدثان ثم لانعى من أمرها شيأ • فمثلا لو سئل أحدنا عن مساحة داره وحدودها وطبقاتها ومشتملاتها وعن مجاوريه فى القرب والبعد لكان بالطبع أسرع للجواب قبل إتمام السؤال • فهل حرام عليه أن يكون كذلك فيما لو سئل عن الارض وما اشتمل عليه سطحها مما هو فى الحقيقة أحوج للانسان من فلسفته فيما لايجديه نفعاً ولا يمنع عنه شراً أو ضراً

على انني لا اقصد بذلك أن يكون الانسان فقيهاً فى هذا الموضوع بل أطالبه بأن يكون ذا إلمام ولو بمجمل المسائل التى تنفعه بالأقل عند التنقل من مكان أو عند مايسمع ببلاد (موزمبيق والهوتنتوت وسيام وأزربيجان والسويد والنرويج واوستراليا والبرازيل وزيلانده) فلا يتخيل أنها كلام فى أحلام أوهى بلاد الجن والعفاريت التي يتسلى بذكرها البسطاء والجهلاء ضمن الحكايات والقصص الخرافية التى ظنها بعض القوم تاريخاً صحيحا يمثل حقائق من سلف من الغابرين • ذلك ماحدى بى لان أوضح ماسيأتى عن الارض كى نستعين به على فهم ماسنشرحه فيما بعد عن الانسان

شكلها — . كان للامم القديمة اعتقادات كثيرة فى شكل الارض أشهرها اعتقادات بعض اليونانيين القدماء التى كانت أقرب للعقل منها للخرافات فضلا عن كونها كانت سلماً لما وصل اليه بحث العلماء القائلين بأن شكل الارض كالبرتقالة أو هو كالكرة التي سموها باسمها فأطلقوا عليها اسم (الكرة الارضية) وطرفاها الشمالى والجنوبى فقط مبططان قليلا بحالة لاتؤثر على كرويتها نظراً لجسامتها العظيمة مثبتين ذلك ببراهين علمية عملية اختبروها بما أوتوه من العلم الثابت الصحيح • ولو أنهم قد عانوا فى سبيل نشر ذلك ماعانوه من اضطهاد

اللاهوتيين ومن جاراهم من الجاهلين الذين كانوا يستحسنون إبقاء القديم على قدمه قولا منهم ان ذلك ينافي ماجاءت به الكتب السماوية الا أن نطاحل المفسرين قد أثبتوا أخيراً ان الذي ورد فيها غير كاف لعدم ثبوت كروية الارض ولذلك أقر أولئك جميعاً على ماأتاه ذلك العلم الصحيح خصوصاً علماء المسلمين الذين أخص بالذكر منهم الامام لغزالي الذي ذكر بكتابه (تهافت الفلاسفة) مايفيد تخطئة الذين يعارضون فيما جاء به العلم مادامت نتائجه مؤسسة على طرق علمية هندسية حسابية وزاد على ذلك بأن كل مايأتيه ذلك العلم من هذا القبيل لاينافي الدين في شيء . قال القزويني : « والذي يعتمد عليه جماهير الفلاسفة ان الارض مدورة كالكرة موضوعة في جوف الفلك كالمحة في جوف البيضة وانها في الوسط على مقدار واحد من جميع الجوانب »

دورانها — . وكما حصل الاختلاف في كروية الارض حصل أيضاً في دورانها حيث كان بعض قدماء اليونان يعتقدون ان الارض عبارة عن قرص ثابت مرتكز على أعمدة لايعرفون حقيقتها كما قارب ذلك اعتقاد عامة الشرقيين خصوصاً المصريين الذين يعتقدون بأنها مرتكزة على قرن ثور ثم تدرج البعض الآخر للاعتقاد بأن ذلك القرص سابح في الماء كسفينة تذروها الرياح ذات اليمين وذات الشمال . وكان زعيم هذا الاعتقاد هو العالم الشهير (هوميروس) الا أن الفلاسفة الآخرين مثل ارستطاليس وسقراط وأفلاطون خالفوا ذلك أخيراً فقرروا ان الارض كروية دائرة فيما حولنا من الفضاء وقد وافق المتأخرون على ذلك كما يؤخذ من عبارة القزويني المذكورة آنفاً

النهار والليل — . وزادوا عليه بأن للارض حركتين : حركة رحوية حول نفسها وحركة حول الشمس . وأثبتوا ان النور الذي ينتشر على سطح الارض هو مستمد من ضوء الشمس التي سبق فأوضحنا بانها لم تزل كتلة نارية مائعة

منيرة تشع حرارتها فى الكون فتنعكس على سطح كافة مافى السماء من الكواكب التى من ضمنها الارض فتسطع فوق سطحها الأنوار . ونظرا لكون الارض كروية فدورتها حول نفسها مرة واحدة تجاه نور الشمس تجعل نصفها مغموراً بذلك النور لكونه متجهاً للشمس وبالطبع يكون النصف الآخر مظلماً وبهذه الصفة يتكون الليل والنهار

السنة وأيامها ـ . خرجنا من ذلك بأن حركة الارض حول نفسها تجاه الشمس مرة واحدة عبارة عن يوم وليلة وقد قسمها الفلكيون الى ٢٤ ساعة واعتبروا الساعة ٦٠ دقيقة والدقيقة ٦٠ ثانية والثانية ٦٠ ثالثة وهكذا حتى توصلوا بهذا التقسيم الى حصر أيام حركة الارض حول الشمس مرة واحدة فوجدوها ٣٦٥ يوماً و٥ ساعات و٤٨ دقيقه و ٥٠ ثانيه وسموا مجموع ذلك كله سنة . ولكن بتوالى حركة الارض يحصل هناك اختلاف فى مجموع السنين نظراً لتكوين تلك الساعات والدقائق والثوانى . ولذلك قد اصطلحوا على اعتبار السنة ٣٦٥ يوماً وسموها السنة البسيطة وكل أربعة سنين يضمنون لتلك الايام يوماً واحداً وهو ماتجمع من تلك الكسور فتكون أيام السنة ٣٦٦ وسموها بالسنة الكبيسة

الاشهر ـ . ثم قسموا السنة الى ٣٦٠ درجه وهذه قسموها أيضاً الى ١٢ قسماً كل قسم سموه شهراً والشهر الى ٣٠ يوماً واليوم عبارة عن دورة الارض حول نفسها امام الشمس مرة واحدة كما سبق الايضاح

أقسام الارض

والارض تنقسم الى قسمين عظيمين أحدهما ماء والآخر يابس . وهى على العموم من ماء ويابس تنقسم الى خمسة أقسام عظيمة فأقسام اليابس تسمى بأقسام الدنيا الخمس أو القارات وأقسام الماء تسمى بالمحيطات أو الاوقيانوسات

بناء على ذلك تكون قارات الدنيا الخمس هى : قارة آسيا وقارة أفريقا وقارة أوروبا وقارة أمريكا وقارة أوستراليا

أما المحيطات والاوقيانوسات الخمس فهى :

أولا ـ المحيط الاكبر ويسمى أيضاً المحيط الهادى وهو فى شرق آسيا وغرب أمريكا ويشغل نصف الماء الموجود على سطح الارض تقريباً

ثانياً ـ المحيط الاتلانطيقى ويسمى أيضاً بحر الظلمات وهو فى شرق أمريكا وفى غرب أوروبا وأفريقا ويشغل ربع ذلك الماء تقريباً

ثالثاً ـ المحيط الهندى وهو فى جنوب آسيا وشرق أفريقا وغرب أوستراليا ويشغل خمس الماء

رابعاً ـ المحيط المنجمد الشمالى وهو فى شمال أوربا وآسيا وأمريكا

خامساً ـ المحيط المنجمد الجنوبى وهو جنوب أفريقا وأمريكا وأوستراليا

وهذان الاخيران يشغلان الخمس الباقى من الماء

وقد اشتغل كثير من العلماء فى معرفة مقدار ما فى هذه المحيطات من المياه فقدروا للمحيط الاكبر ٦٨ ألف ألف ميل مربع وبالنسبة التى توضحت أعلاه تكون مقادير مياه المحيط الاتلانطيقى ٣٤ ألف ألف ميل مربع والمحيط الهندى ١٧ ألف ألف ميل مربع والمحيطين الشمالى والجنوبى ١٧ ألف ألف ميل مربع تقريباً . وقد قرروا بان مياه كافة المحيطات المذكورة لو تكونت وانسكبت من شلال واحد كشلال (نيا كارا بأمريكا) فلا تنتهى من انسكابها قبل مرور عشرين ألف قرن

المياه

اذا علمنا تماماً كيف استحال الكون الى الصفة التى هو عليها هان علينا كثيرا ان نفهم كيف تكونت هاتيك المياه التى امتلأت بها تلك المحيطات حيث

مما أوضحناه فى بادئ الامر نفهم جلياً أن المياه نتجت من التفاعلات الكيماوية التي حصلت بين عناصر الكون عند ما استحالت من حالتها الاولى الى الحالة التى هى عليها الآن

المطر

ولما ان تسلطت حرارة الشمس على سطح المياه سخن جزء منه فاستحال الى بخار ارتفع وانتشر فى الفضاء لكونه صار خفيفاً حتى اذا خفت الحرارة وبرد الجو تكاثف ذلك البخار فصار ضباباً وسحاباً ثم بعد ذلك استحال الى ماء كما كان فتساقط ونزل على هيئة نقط مائية مختلفة الشكل والحجم والقوة بحسب اختلاف قلته وكثرته • وهذا مايعبر عنه بالمطر الذى هو فى الحقيقة أصل ماتواجد على سطح الارض من البحار والبحيرات والانهر والنهيرات والينابيع التي ساعدت الانسان على حفر الترع والخلجان والجداول وغيرها مما هو منتشر فى المدن والبلدان فكان اعظم سبباً للسعادة فى هذه الحياة الدنيا حيث عند ما تمطرنا السماء تربو الارض فتنبت من كل زوج بهيج • وقد توصل بعض العلماء لحصر مقادير الامطار التى تتساقط على سطح الارض فى السنة الواحدة فبلغت الثلاثين الف ميل مكعب

المطر البلورى أو البرد

وفى بعض الاحيان تشتد البرودة على تلك النقط المائية قبل وصولها لسطح الارض فتتجمد وتتساقط على أشكال كروية الا انها تكون على أشكال هندسية مسدسة عند مايكون الهواء هادئا ليس فيه شئ من التقلبات الجويه

المطر الملوّن

وقد شوهد كثيراً نزول المطر بألوان مختلفة ألقت الانسان فى حيرة عظيمة من قديم الازل الى ان اتضح أخيراً من كثرة البحث والتنقيب ان المطر

كثيراً ما يلاقى فى سيره بعض طبقات هوائية مشتملة على شئ من الملونات أو على غبار من بعض الانواع التى أكثرها (البلن) وهو اللقاح الذى يتطاير فى الهواء فيختلط بالسحاب الذى يتلون بلونه فيسقط المطر على سطح الارض مختلف الالوان . وأقرب شاهد على ذلك هو ما أمطرته السماء فى بلدة بايطاليا اسمها (سينيادى) بتاريخ ١٥ مايو سنة ١٩٠٠ حيث كان المطر دماً أحمر أدهش سكانها إدهاشاً عظيما بل أدهش ايطاليا باسرها عند ماشاع الخبر بان السماء أمطرتهم مياها دموية الا ان الاستاذ (بالاتسو) العالم الايطالى الشهير اهتم كثيراً بفحص ذلك المطر فحصاً كيماويا فاتضح له ان الدم الذى سقط مع المطر هو من دماء الطيور ناسباً حصول ذلك لاحتمال وجود اسراب كثيرة من الطيور كانت محلقة فى الجو فصدمتها بعض الزوابع الشديدة فهصرت بعضها حتى تقطر دمها فسقط مع المطر على الارض فأوجد ما أوجده من ذلك الاندهاش

المطر السمكى

والاغرب من ذلك ان جريدة الاختراع نقلت عن احدى الجرائد المحلية فى (كرولك من أعمال فرنسا) بما يشير لان السماء أمطرتهم هناك سمكاً طياراً اصطاده بعض أهاليها وأكلوه هنيئا مريئا . الا ان تلك الجريدة ربما ان تكون قد ذكرت هذه الرواية على سبيل التسلية والفكاهة بناء على ماهم عليه الفرنساويون من التفنن فى أساليب المجون والغلو فى ذكر الاخبار الغريبة الا ان العقل من جهة أخرى ربما يجعل لها نصيباً من الصدق لانه من المعلوم أن السمك يخلق ويعيش ويتناسل ويموت فى الماء ولربما ان البخار الذى يتصاعد من مياه البحار كان مشتملا على بعض بويضات السمك حتى بعد ان ارتفعت مع البخار واتخذت لها مركزا فى الفضا آتاها الله تعالى ما يلزمها من الاحتياطات كما يؤتيها وهى فى المياه فتولد السمك وصار حياً فنمى وعاش الى ان

حصل هناك اختلاف فى التوازن بين ثقله والثقل الجوى فسقط من السماء مع المطر فحار له الفكر واندهل لاجله الناس أجمعون

﴿ المطر الحجرى ﴾

ومما زاد الناس اندهاشاً وانزعاجاً هو ما تمطره السماء فى بعض الاحيان من أحجار تتساقط تساقط الامطار سموها (الرجم) حتى أولوا ذلك بتأويلات مناسبة لعقولهم ومعارفهم ومشاربهم خصوصا الكهنة والدجالون الذين يدعون علم الغيب زوراً وبهتاناً فانهم ينتهزون فرصة نزول المطر على غير طبيعته سواء كان ملوناً أو سمكاً أو حجراً فيعزون ذلك لسخط من الله أو غضب منهم على من حولهم من البسطاء الجهلاء مثبتين لهم ذلك بأساليب وهمية ما أنزل الله بها من سلطان حيث بواسطتها يحصلون على ما يريدون ويبتغون من المطامع الدنيوية مع ان هذه الرجم على العموم تتساقط من الجو كتساقط النيازك (الشهب) الا ان هذه تتفرقع وتستحيل الى دخان يذهب هباء اما تلك فانها حجارة تتساقط فتستقر على سطح الارض

وتساقط هذه الرجم قديم جدا ولكن لم يلتفت اليه أحد الا فى القرن التاسع عشر حيث فى سنة ١٨٠٣ سقط منها نحو الثلاثة آلاف فى (لايجل بسويسرا) ثم سقط منها فى سنة ١٨٦٨ نحو المئة ألف فى (بلتوسك ببولندا) وبلغ وزنه اربعمائة رطل . وكذلك تساقط منها سنة ١٨٧٩ فى (استرفيل فى بووا) ما بلغ وزنه ٧٥٠ رطلا وتكرر حصوله هناك ايضاً سنة ١٨٩٠

وعلى العموم فان معظم هذه الرجم يتساقط صغيراً الا ان اكبر الذى تساقط الآن هو حجر موجود (فى فيينا) بلغ وزنه سبعة أطنان وكذلك يوجد حجر آخر فى (الاسكيمو بأمريكا) وزنه ٤٥ طناً قد ابتاعه رجل انكليزى لينقله لبلاد الانكليز كما روت ذلك مجلة الهلال فى سنتها السادسة

﴿ الرعد ﴾

والاغلب فى الامطار انها لاتتساقط الا بعد تقلبات جوية كثيرة ناتجة من وجود قوة غير محسوسة منتشرة بمقادير مختلفة فى الطبقات الهوائية سماها علماء البحث باسم (الكهربائية) التى قسموها الى قسمين أحدهما سالب والآخر موجب • وقالوا بأن الطبقة الهوائية التى يكون سالبها أكثر من موجبها تسمى كهربائيتها سالبه والعكس بالعكس • ثم تحققوا من ان هذين القسمين على الدوام يتجاذبان ويتحدان مع بعضهما بقوة شديدة ذات صوت مزعج وزمجرة تصم الآذان بل تحاكي صوت المقذوفات النارية التى تهتز لاجلها الجبال الراسيات • وحينما يتغير الجو وتتحرك الارياح يتجاذب سالبها بموجبها تجاذباً يعقبه اتحاد ذو قوة شديدة مع صوت يختلف باختلاف قوة ذلك الاتحاد • وهذا الصوت هو ما يسمى بالرعد اصطلاحاً ومشهور عند العامة بصوت (ميكائيل) نسبة لاحد الملائكة السماوية حيث يقال عند العامه بان الله عند ما يقضى بنزول الامطار يأمر ملاكه ميكائيل الذى يضرب فى الجو بصوته فيتساقط المطر

﴿ البرق ﴾

وقبل وصول الرعد لآذاننا ترى أعيننا نوراً يضئ ويزول فى أقل من لمح البصر ثم يعقبه الرعد فالمطر • فذلك النور هو البرق الذى يتولد فى الحقيقة من شرارة نارية تحصل عند اتحاد الكهربائية السالبة بالكهربائية الموجبة

﴿ الصاعقة ﴾

وحينما تكون تلك الشرارة بعيدة وضعيفة لاينجم عنها أى ضرر كان اما اذا كانت على مقربة من شئ فلا بد من أن تضره ولو كانت قوتها زائدة لأهلكته فى الحال • وهذه هى الصاعقة التى أفنت كثيراً من الطير والحيوان وأحرقت الاشجار والغابات وهدمت المعاقل وشققت الارض والصخور وبعثرت الحصا

والرمال . تلك هى التى تطلب فى الغالب الرؤوس كأعالى الجبال ورؤوس الاشجار والمنازل المرتفعة . لذلك نجد مساكن كافة البلاد التى تكثر فيها الامطار لها مجارى مخصوصة موضوعة بأعلى سطحها سموها (مانعة الصواعق) بحيث لو نزلت صاعقة على المنزل تتلقاها مانعة الصواعق المذكورة فتنصرف منها فينجو المنزل من الخطر هو وساكنوه

وأكثر البلاد تعرضاً للصواعق هى بالتدريج : جاوه وفيها تحصل الصواعق ٩٧ يوماً فى السنة ثم الهند ثم بورنيو ثم سواحل الذهب فالبرازيل فايطاليا فرنسا فجنوب روسيا فانكلترا فسويسرا فنروج التى هى أقل الجميع حيث تحصل فيها الصواعق أربعة أيام فى السنة أما القطر المصرى ففيه الصواعق نادرة جداً

هذا ماشرحناه عن المحيطات وما يتعلق بها بغاية الايجاز والآن سنتكلم عن أقسام اليابس وهى أقسام الدنيا الخمس قسماً قسماً مبتدئين بالقارة الاولى التى هى :

﴿قارة آسيا﴾

هذه القارة هى أقدم قارات الدنيا الخمس عمراناً لانها أول مهد تواجد فيه الانسان كما هو مشهور من قديم الازل فضلاً عن أنها مصدر الديانات ومهبط الاوامر السماوية ومنبت الانبياء والمرسلين والصالحين ومنبع العلوم والمعارف خصوصاً وانها أكبر القارات اتساعاً وسكاناً وثروة حتى بذلك استحقت أن تكون سيدة القارات على وجه العموم . وهى تنقسم الى أربعة أقاليم : الاقليم الشمالى والاقليم الغربى والاقليم الشرقى والاقليم الجنوبى نذكرها كالآتى بغاية الايجاز

﴿الاقليم الشمالى﴾

هذا الاقليم يشتمل على قسمين أحدهما بلاد سيبيريا الروسية الكائنة فى

الجهة الشمالية من نفس القارة العمومية ومساحتها أكبر من مساحة أوروبا الا أن سكانها لا يزيدون عن الخمسة ملايين نفس وأشهر مدنها : تومسك وبولسك وايركوتسك ويا كوتسك . وأشهر ميناء فيها هي فلاد يفوستك الكائنة على بحر اليابان

ثانيهما — بلاد التركستان الغربية الروسية التي تسمى طوران وعدد سكانها ٣٥ مليوناً تقريباً ومسكونه بقبائل من التركمان والتتار معظمهم من المسلمين . ومن مدنها الشهيرة : تشقند وخوقند وسمرقند وبخارى وجنوه ومرو

﴿ الاقليم الغربي ﴾

هذا الاقليم يشتمل على أربعة أقسام :

أولاً — بلاد الجركس وتسمى بلاد القوقاز أو قوه قاف أو روسيا الغربية . وعدد سكانها ٦ ملايين تقريباً عاصمتها تفليس وأشهر مدنها باكو وهي مينا على بحر الخزر ثم مدينة باطوم وهي مينا على البحر الاسود

ثانياً — تركية آسيا التابعة للدولة العثمانية وعدد سكانها خمسة عشر مليوناً تقريباً مختلفوا الجنس والدين واللغة الا أن ثلثيهم مسلمون والثلث الباقي بين أرمن وأروام من المسيحيين واليهود . واللغة المنتشرة بينهم هي التركية والعربية وعلى العموم فان هذه البلاد تنقسم الى ستة أقسام طبيعية وهي :

١ — آسيا الصغرى أو الاناضول وأشهر مدنها طرابزون وسينوب وبروسه ثم مدينة أزمير الكائنة على البحر الابيض المتوسط التي هي أشهر مينا تجارية لهذا القسم

٢ — ارمينيا العثمانية وأشهر مدنها سيواس وطوقات ثم مدينة أرضروم المشهورة بعمل الاسلحة البيضاء

٣ — الكردستان وأشهر مدنها ديار بكر والموصل وكركوك

٤ — بلاد الجزيرة المسماة عند اليونانيين ميزوپوتاميا وعند العرب ما بين النهرين

(أعنى نهرى الدجلة والفرات) • وأشهر مدنها بغداد وكربلاء وهى التى استشهد فيها الحسين بن على أبى طالب فى زمن خلافة يزيد بن معاوية ولذلك شهرت باسم مشهد

٥ ـ بلاد العراق العربى وأشهر مدنها البصرة التى كان لها المقام الاول فى الازمنة السالفة

٦ ـ بلاد الشام وأشهر مدنها حلب ومرعش واسكندرونه وانطاكيه ودمشق التى يقال لها الشام الكبيرة ثم يافا وبيت المقدس الذى يحجون اليه المسيحيون • ثم نابلس والناصره التى سكن فيها المسيح بن مريم عند عودته من مصر حتى بلغ من العمر ثلاثين سنة ومنها اشتق اسم النصارى كما سيتضح لنا ذلك عند الكلام على الامة السامية انشاء الله

ثالثاً ـ بلاد الفرس أو بلاد العجم المشهورة بايران وعدد سكانها ثمانية ملايين تقريباً كلهم مسلمون الا قليل جداً ممن يعدون بعشرات الالوف يعبدون النار والمسيحية • وحكومة هذه البلاد هى حكومة اسلامية محضة مستقلة تماماً وعاصمتها مدينة طهران وأشهر مدنها أصفهان التي كانت عاصمتها سابقاً ثم شيراز وبوشهر وبندر عباس وكرمان

رابعاً ـ الافغانستان أو حكومة كابل وهى مستقلة وعدد سكانها أربعة ملايين تقريباً كلهم مسلمون أهل بادية يسكنون الجبال والوديان وعاصمتها كابل وأشهر مدنها هيرات

﴿ الاقليم الشرقى ﴾

هذا الاقليم يشتمل على قسمين عظيمين وهما :

أولاً ـ مملكة الصين وعدد سكانها أربعمائة مليوناً تقريباً كلهم وثنيون إلا أربعون مليوناً أصلهم من العساكر المسلمين الذين جلبهم ملك الصين فى عهد

الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور حينما كانت رعاياه قد ثارت عليه فاستنجد بذلك الخليفة على أن يؤدي اليه شيئاً معلوماً فأنجده بأربعة آلاف من صناديد المسلمين الذين أبلوا بالصينيين بلاءً حسناً حتى أخمدوا الفتن والثورات الداخلية فجازاهم ملك الصين على ذلك بجواز الاقامة ببلاده والتزويج ببنات الاهالي ومصاهرة الاعيان وأعطاهم وقتها كافة ما احتاجوا اليه

على أن هذه المملكة هي أكثر ممالك الدنيا سكاناً وأعظمها اتساعاً ولو أنها مستقلة الا انها للأسف أضعف من الضعف حتى أصبحت مطمحاً لانظار كافة الدول خصوصاً في هذا العصر • ولولا مطامع الدول الاشعبية ومناظراتها لبعضها لذهبت تلك المملكة عن آخرها فريسة في أقل من لمح البصر الا ان الله قد أوقع ما أوقعه بين تلك الدول فأصبحت هي في معزل رغماً عما هو ساري في شرايينها من الانحطاط والضعف العظيم

نعم قد كان لهذه المملكة شأن كبير في سالف الازمان الا اننا لا نفهم سبباً لما حل بها الآن من الجمود المتناهي والتقهقر الزائد مع أن موقعها الطبيعي ووحدة جنسيتها ولغتها وديانتها مما يجعلها في مقدمة الدول مالياً وأدبياً بل سيدة العالم أجمعين في كل زمان ومكان

ثانياً — مملكة اليابان وعدد سكانها أربعون مليوناً وهي حكومة مستقلة عبارة عن جملة جزائر متقاربة تنوف عن الأربعة آلاف جزيرة أكبرها جزائر نيفون ويزو وسيكوك وكيوسيو وليوكيو • وعاصمة هذه المملكة هي طوكيو وأشهر مدنها كيوتو ويوكوهاما • تلك المملكة التي أوجدت لها مركزاً سامياً بين الممالك العظمى عقب ما قامت به وحازته من النصر والفخر في الحرب التي انتشبت بينها وبين الروسيا حوالي سنة ١٩٠٥ مسيحية

﴿ الاقليم الجنوبى ﴾

هذا الاقليم يشتمل على أربعة أقسام وهى :

أولاً ـ الهند الصينية وعدد سكانها ستة وعشرون مليوناً تقريباً بينهم كثير من المسلمين وهى تشتمل على ستة مستعمرات :

اثنتان انكليزيتان وهما مستعمرة برمانيا وعاصمتها رنجون ثم مستعمرة بوغاز ملقا وأشهر مدنها سنغافوره

واثنتان فرنساويتان وهما مستعمرة الكوشين أو الكوشنشين وعاصمتها سايجون ثم مستعمرة التونكين وعاصمتها هانوى

والخامسة مستعمرة برمانيا وهى تحت حماية الانكليز وعاصمتها منداى

والسادسة مستعمرة مملكة سيام وهى تحت حماية فرنسا وعاصمتها بنكوك

ثانياً ـ مملكة الهند وسكانها ٢٥٠ مليوناً منهم ٦٠ مليوناً من المسلمين تقريباً وهى مستعمرة انكليزية عظيمة الثروة كثيرة الحاصلات والتجارة وتشتمل على مملكتين مستقلتين متحالفتين وهما نيبول وبوتان فى جبال هيماليا وخمسة بلاد تابعة لفرنسا وبلدتان تابعتان للبرتغال

ثالثاً ـ البلوخستان أو البلخ وهى وان كانت بلدة صغيرة لا يتعدى سكانها الخمسمائة ألف نسمة تقريباً الا أنها مستقلة وعاصمتها كيلات والديانة الغالبة فيها هى الديانة الاسلامية

رابعاً ـ بلاد العرب أو شبه جزيرة العرب سكانها ثمانية ملايين تقريباً وتنقسم الى ستة أقسام وهى :

١ ـ الحجاز ومركزها مكة المشرفة التي فيها بيت الله الحرام يؤمه المسلمون سنوياً من أبعد الاقطار وأشمس المسافات بمقدار ينوف عن المائتى ألف نفس تقريباً . وهى مولد النبي محمد صلى الله عليه وسلم وميناؤها على البحر الاحمر

تسمى جده . وأشهر مدن هذه البلاد المدينة المنورة التى دفن فيها النبي عليه الصلاة والسلام وميناؤها على ذاك البحر أيضاً وتسمى ينبع

٢ ـ اليمن ومركزها صنعاء وأشهر مدنها مخا الشهيره بتجارة البن وحديده وقنفده ثم مأرب . وذلك بخلاف مدينة عدن وجزيرة قران ثم جزيرة بريم بموغاز باب المندب الموجودة على سواحل بلاد اليمن فانها الثلاثة تابعة لبلاد الانكليز

٣ ـ قسم الحسا والبحرين وأشهر مدنه الهفهف والقطيف على بحر عمان وبها اللؤلؤ الجيد

٤ ـ حضرموت وهى تنقسم الى جملة أقسام مستقلة وأشهر مدنها تريم وبروم

٥ عمان ومركزها مسقط وأشهر مدنها نزفه ورسته وصحار

٦ ـ نجد وهى فى وسط بلاد العرب وأشهر مدنها الرياض والهائل

هذه هى أقسام بلاد العرب فالثلاثة الاولى تابعة للدولة العلية العثمانية والثلاثة الاخيرة مستقلة الا ان هذه البلاد ليس فيها مايستحق الذكر لانها كلها صحارى وجبال ووديان واهلها يعيشون عيشة البداوة الاصلية التي هى الفطرة الحقيقية الأولى للانسان

﴿ قارة أفريقيا ﴾

قد ذكرنا ماذكرناه بغاية الايجاز عن قارة آسيا التى هى فى العمران والمدنية والثروة أقدم القارات بل سيدتها على الاطلاق والآن سنتكلم على تاليتها وهى أفريقا التى قضى عليها سوء البخت ونكد الطالع بأن تكون مطمحاً للمطامع الخارجية ومرتعاً للفتن والثورات الداخلية حتى صارت أم العجائب والغرائب كما قضى الله بذلك على أبنائها المتناسلين من حام بن نوح الذين ضربت عليهم المذلة والمسكنة فلم تنفك عنهم قيود العبودية فضلا عن التأخير الهائل والانحطاط العظيم

هذه القارة تضاهى القارة الاولى فى الاتساع والثروة الطبيعية الا انها لاتبلغ نصفها فى السكان وهى تنقسم الى ستة عشر قسماً نذكرها كالآتى :

أولاً ـ الحكومة المصرية وعدد سكانها ينوف عن اثنى عشر مليوناً كلهم مسلمون الا سبعمائة ألف تقريباً معظمهم أقباط والباقى مابين أرمن ويهود وقليل من الافرنج خليط من الانكليز والارواموالفرنساويين

وعاصمتها القاهرة الكائنة تحت سفح جبل المقطم على النيل من الجهة الشرقية وفيها خمسة محافظات وستة مديريات فى الوجه البحرى وثمانية مديريات فى الوجه القبلى نذكرها كالآتى :

المحافظات هى : مصر واسكندريه ودمياط والقنال والسويس

ومديريات الوجه البحرى هى : مديرية القليوبيه وبندرها بنها ومديرية الشرقية وبندرها الزقازيق ومديرية الدقهلية وبندرها المنصورة ومديرية الغربية وبندرها طنطا ومديرية المنوفية وبندرها شبين الكوم ومديرية البحيرة وبندرها دمنهور

اما مديريات الوجه القبلى فهى : مديرية الجيزه وبندرها الجيزه ومديرية الفيوم وبندرها الفيوم ومديرية بنى سويف وبندرها بنى سويف ومديرية المنيا وبندرها المنيا ومديرية اسيوط وبندرها أسيوط ومديرية جرجا وبندرها جرجا ومديرية قنا وبندرها قنا ومديرية أصوان وبندرها اصوان

هذا بخلاف محافظتين صغيرتين أولاهما محافظة العريش والثانية محافظة القصير فضلا عن الواحات الداخلة التابعة لمديرية أسيوط والواحات الخارجة التابعة لمديرية المنيا وواحات سيوه التابعة لمديرية البحيره . وهذه الحكومة هى خديوية تابعة للدولة العثمانية ولها شأن عظيم فى التاريخ وفى الثروة الطبيعية نظراً لمركزها الطبيعى وطقسها اللطيف

وهاك أبلغ ماقيل عن هذه البلاد ضمن المحاورات التى دارت بين أمير المؤمنين الخليفة عمر بن الخطاب وبين عمرو بن العاص الذى افتتح البلاد المصرية

ثم كتب للاول بناء على طلبه يقول :

« اعلم يا أمير المؤمنين ان مصر قرية غبراء • وشجرة خضراء • طولها شهر • وعرضها عشر • يكتنفها جبل أغبر • ورمل أعفر • يخط وسطها النيل المبارك الغدوات • ميمون الروحات • تجرى فيه الزيادة والنقصان لمجارى الشمس والقمر • لاوان يدر حلابه ويكثر عجاجه • وتعظم أمواجه • فيفيض على الجانبين فلا يمكن التخلص من القرى بعضها الى بعض الا فى صغار المراكب • وخفاف القوارب • وذوارق كأنهن المخايل • ورق الاصايل • فاذا تكامل فى زيادته نكص على عقبيه كأول ما بدا فى جريته • وطمى فى درته • فعند ذلك تخرج ملة محقورة • وذمة مخفورة • يحرثون بطون الارض ويبذرون بها الحب • يرجعون بذلك النماء من الرب • لقيهم ماسعوا من كدهم • فناله منهم بغير جدهم • فاذا أحدق الزرع وأشرق سقاه الندى • وغذاه من تحت الثرى

فبينما مصر يا أمير المؤمنين لؤلؤة بيضاء • إذ هى عنبرة سوداء • فاذا هى زمردة خضراء • فاذا هى ديباجة زرقاء • فتبارك الله الخالق لما يشاء • والذى يصلح هذه البلاد وينيرها • ويقر قاطنها فيها أن لا يقبل قول خسيسها فى رئيسها • وان لايستأدى خراج الثمرة الافى أوانها • وان يصرف ثلث ارتفاعها فى عمل جسورها وتراعها • فاذا تقرر الحال مع العمال فى هذه الاحوال تضاعف ارتفاع المال • والله تعالى يوفق الملك والمآل »

ثانياً — السودان وقد كان أولاً تابعاً للحكومة المصرية ولكن ادارته الآن مشتركة بينها وبين الانكليز ولم يعمل له تعداد حتى يمكننا ان نحصر سكانه الا أنهم يبلغون بوجه التقريب نحو العشرة ملايين أغلبهم من المسلمين الذين يعيشون عيشة البداوة الاصلية • وهو ينقسم الى مديريات ومحافظات • عاصمته الخرطوم واشهر مدنه حلفا ومروى وسواكن وبربر وكسلا ومدنى والخرطوم بحرى

وأم درمان والابيض والتوفيقية وكدوك

ثالثاً ـ الحبشة وعدد سكانها سبعة ملايين تقريباً أغلبهم أقباط من المسيحيين المستقلين عاصمتها غندار وأشهر مدنها عدوه وميناؤها التجارية مصوع . وفى شرقها يوجد مستعمرة أوبك وتاجوره الفرنساوية وفى شمالها الشرقى بلاد الأرتيرة التابعة الى ايطاليا

وهذه الثلاثة أقسام موجودة على ساحل البحر الاحمر

رابعاً ـ طرابلس الغرب وعدد سكانها مليون ونصف تقريباً وهى ولاية اسلامية تابعة للحكومة العثمانية وعاصمتها طرابلس وأشهر مدنها بنى غازى ثم مرزوق وهى مركز قسم فزان

خامساً ـ تونس وهى بلاد اسلامية عدد سكانها مليونان تقريباً تحت حماية فرنسا وعاصمتها تونس التى كان اسمها قديماً (قرطاجه) وأشهر مدنها القيروان التي كانت عاصمة هذه البلاد فى زمن نشأتها ولم تزل للآن محترمة عند المسلمين كما كانت أولاً

سادساً ـ الجزائر وهى بلاد اسلامية تحت حماية فرنسا وسكانها أربعة ملايين تقريباً وعاصمتها الجزائر وأشهر مدنها دهران وقسطنطين وبونه

سابعاً ـ مراكش وتسمى بالمغرب الاقصى وعدد سكانها عشرة ملايين تقريباً كلهم مسلمون مستقلون الا انه فى أوائل سنة ١٩٠٦ م اشتغلت بداخليتها الفتن والثورات وانتهى أمرها بعمل مؤتمر دولى كان مركزه فى بلاد اسبانيا وانتهى تقريباً بنوع حق المداخلة الاجنبية فى الادارة الداخلية . عاصمتها فاس وأشهر مدنها مراكش ومكناسه وطنجه . وفى هذه البلاد مدينة سبته وبعض قلاع على البحر الابيض المتوسط تابعة لحكومة اسبانيا وكل الاربعة بلاد المذكورة موجودة فى شمال القارة على ساحل البحر الابيض المتوسط

ثامناً ــ الصحراء أو البادية الكبرى التى هى اكبر صحارى الدنيا بأجمعها ثلثاها رمال والثلث الباقى مكون من هضبات صخرية ومروج خضراء وبعض غابات فيها النخيل والاشجار الطبيعية وبها كثير من الواحات التى أشهرها واحات الادرار وواحات الاحجار وواحات بنستي • سكانها كلهم مسلمون من العرب الرحل لايمكن معرفة مقدارهم الا انهم ربما ينوفون عن العشرة ملايين

تاسعاً ــ سنغمبيا وهى مستعمرة فرنساوية عدد سكانها ثمانية ملايين تقريباً أكثرهم مسلمون وعاصمتها سنت لويز (لويز المقدس) وأشهر مدنها وادكار • وفى هذه البلاد قسم اسمه غمبيا منقسم مثالثة بين فرنسا وانكلترا والبرتغال وأشهر مدنه بانورست وهى تابعة للانكليز

عاشراً ــ غينا الشمالية وكلها مستعمرات كثيرة مشتركة بين الدول الاجنبية • وسكان هذه البلاد أربعة ملايين تقريباً كلهم متوحشون من عبدة الاوثان وأشهر مدنها فرى تاون وميزوفيا وقوماسيه وأبومى

الحادى عشر ــ غينا البرتغالية وهى عبارة عن ثلاثة مستعمرات تابعة الى فرنسا والبرتغال وبلجيكا • وعدد سكانها أربعة ملايين تقريباً كلهم متوحشون يعبدون الاوثان • وأشهر مدنها ليبرفيل (أعنى المدينة الحرة) ثم مدينة فرنس

الثانى عشر ــ الهوتنتوت وهى مسكونة بأمم مختلفة الاجناس متوحشين وتابعين الى المانيا وفقط فيها مستعمرة خليج الحوت فانها تابعة للانكليز

الثالث عشر ــ الكاب وعدد سكانها خمسة ملايين معظمهم وثنيون متوحشون ماعدا قليل من المسيحيين والمسلمين

ومن ضمن هذه البلاد جمهوريتا أورنجه الحره والترنسفال حيث كانتا مستقلتين استقلالاً تاماً الا انهما تبعتا للبلاد الانكليزية سنة ١٩٠٢ م عقب حرب هائلة قامت بينها وبين الانكليز ولم تنته الا فى يونيه سنة ١٩٠٢م • وهذه البلاد مشهورة بمناجم الالماس وعاصمتها الكاب

وكل الستة البلاد المذكورة موجودة على ساحل المحيط الاتلانطيقى

الرابع عشر — موزمبيق وهى مستعمرة برتغالية سكانها لايزيدون عن مليون ونصف تقريباً فيهم كثير من المسلمين عاصمتها موزمبيق وأشهر مدنها سوفالا وكليمانه

الخامس عشر — الزنجبار وهى عبارة عن مستعمرة المانية وأخرى انكليزية عدد سكانها نحو الاربعة ملايين كلهم مسلمون وأشهر مدنها كلوه ومباسا ثم مدينة زنزبار وهاسلطان مسلم كان أصله من مسقط الموجودة ببلاد العرب بآسيا • وهاتان المملكتان موجودتان على المحيط الهندى بخلاف بلاد الصومال الموجودة شمال زنجبار وليس فيها مايستحق الذكر

السادس عشر — قد ذكرنا من ممالك أفريقا مايستحق الذكر الا انه هناك ممالك أخرى بعضها معلوم والآخر مجهول فى أواسط افريقا يبلغ سكانها نحو الاربعين مليوناً كلهم مسلمون ومنقسمون الى جملة قبائل وولايات وممالك صغيرة بعضها تابع للبلاد الاجنبية والبعض مستقل لايهمنا شئ فى البحث عن بلادهم لانهم كلهم على حالة البداوة الاصلية

﴿ قارة أوروبا ﴾

هذه هى القارة التي استوطنها اليافثيون المتناسلون من ولد يافث بن نوح فأصبح لهم الشأن الاكبر فى هذا العصر بل لهم السيادة العظمى على كافة أرجاء المسكونة قاصيها ودانيها بعد أن كانوا عكس ذلك فى الاعصر القديمة ولله فى خلقه شؤون

هذه القارة تضاهى ربع أفريقا فى الاتساع ونصف آسيا فى السكان تقريباً وتنقسم الى تسعة عشر مملكة نذكرها كالآتى :

أولاً — الجزائر البريطانية أو بلاد الانكليز عدد سكانها ٣٨ مليوناً تقريباً وهى أعظم بلاد الدنيا صناعة وتجارة وملاحة فضلا عما لها من النفوذ العالى فى كافة أرجاء المعمورة نظراً لما لها فيها من المستعمرات الكثيرة التى جعلتها أكبر مملكة فى الكون تحكم ربع الدنيا بأسرها • عاصمتها لندن على نهر التيمس التى

هى أكبر مدن الدنيا عمراناً لانها تشتمل على خمسة ملايين تقريباً • وأشهر مدنها ليفربول ومنشستر وشيفيلد وايدمبورغ التى هى عاصمة إيقوسيا ثم دولين وهى عاصمة جزيرة إيرلنده

ثانياً ـ الدانيماركه وعدد سكانها مليونان تقريباً عاصمتها كوبنهاجن • وهى بلاد زراعية متركبة من جملة جزائر

ثالثاً ورابعاً ـ مملكتا اسوج ونروج وهما عبارة عن مملكتين الاولى مشهورة بالسويد وعاصمتها استخلم والثانية بالنرويج وعاصمتها كريستيانيا وعدد سكانهما معاً ستة ملايين تقريباً وأشهر مدنها أبسالا

خامساً ـ الروسيا أو بلاد المسكوف عدد سكانها مائة مليون تقريباً وعاصمتها بطرسبورغ وأشهر مدنها موسكو التى كانت عاصمة المملكة قديماً ثم أودسا • وعلى العموم فان هذه المملكة متسعة جداً حتى وانها تشغل أكثر من نصف مسطح قارة أوروبا فضلا عن أنها أعظم بلاد الدنيا فى محصول القمح بعد الولايات المتحدة بأمريكا

سادساً ـ فرنسا عدد سكانها ٣٨ مليوناً وهى بلدة زراعية من أشهر بلاد أوروبا فى التجارة والصناعة والملاحة بعد الانكليز وعاصمتها باريس وفيها من السكان مليونان ونصف • وفضلا عن شهرة هذه البلاد بتقدمها فى المدنية فان اهاليها ذوو طيش زائد وحماقة شديدة متمتعين بالحرية الزائدة التى تغالوا فيها غلواً كبيراً حتى جعلتهم ينبذون الديانات السماوية ويميلون للشهوات النفسانية • وأشهر مدنها مرسيليا وطولون

سابعاً ـ بلجيكا وعدد سكانها ستة ملايين تقريبا وهى بلاد كثيرة الصناعة والتجارة والسكان على قلة اتساعها وعاصمتها بروكسل وأشهر مدنها أنفرس

ثامناً ـ هولنده وتسمى البلاد الواطية لانها عبارة عن سهل كثير المستنقعات

معظمه منخفض عن سطح البحر • عدد سكانها أربعة ملايين ونصف تقريباً وهى بلاد زراعية ذات تجارة شهيرة خصوصاً ببرى الناس • وعاصمتها الرسمية لاهى أولاهاى أواهاى واشهر مدنها أمستردام المعتبرة عند الاهالى بالعاصمة الحقيقية

تاسعاً ــ المانيا وعدد سكانها ٤٧ مليونا تقريبا ومكونة من ٢٢ مملكة متعاهدة تحت إمرة ملك البروسيا الذى هو امبراطور المانيا وهى اعظم بلاد الدنيا فى استخراج الحديد بعد انكلترا والولايات المتحدة • وهى آخذة فى مزاحمة فرنسا وانكلترا فى الصناعة والتجارة والملاحة والاستعمار مزاحمة كبيرة قد لا يحسن مغبتها فى المستقبل الآتى وعاصمتها برلين واشهر مدنها مونيخ وهامبورج

عاشراً ــ بلاد النمسا والمجر ويقال للاولى استريا وللثانية هنكاريا • وعدد سكانها ٣٨ مليونا ويوجد بها كثير من معدن الحديد والغابات وزراعة القمح • عاصمتها فيينا وأشهر مدنها تريسته

الحادى عشر ــ سويسرا ولو انها مستقلة بنفسها الا انها تعاهدية مع كافة الممالك ومكونه من ٢٢ جمهورية صغيرة تابعة كلها لحكومة واحدة مركزها مدينة برن عاصمة البلاد وأشهر مدنها جنيفه الشهيرة بعمل الساعات المتقونة والحلى العظيم

الثانى عشر ــ البرتغال عدد سكانها خمسة ملايين ولو انها زراعية الا انها متأخرة فى التجارة والصناعة واسمها يدل على انها شهيرة بزراعة البرتقال • عاصمتها لشبونه أو اشبونه وأشهر مدنها بورتو الشهيرة بتجارة النبيذ

الثالث عشر ــ اسبانيا عدد سكانها ١٧ مليوناً وفيها الجزء المسمى بالاندلس مذ كانت بها الديانة الاسلامية • وهى متأخرة فى الصناعة والتجارة مع ان ثروتها الطبيعية عظيمة جداً حيث يوجد بها كثير من المعادن المهملة الاستخراج • عاصمتها مدريد وأشهر مدنها قرطاجنه وغرناطه وقرطبه وبها مدينة جبل

طارق التى هى مفتاح بوغاز جبل طارق وتابعه للانكليز

الرابع عشر ـ ايطاليا عدد سكانها ٣٠ مليونا وهى مشهورة بالتجارة البحرية ولو انها ضعيفة الثروة الا انها ميالة لكثرة الاستعمار • عاصمتها رومه وهى مقر البابا رئيس الديانة الكاثوليكية وأشهر مدنها نابلى وبالرمه وجنوه وبرندزى ثم فينيسيا (البندقيه)

الخامس عشر ـ اليونان عدد سكانها مليونان ونصف تقريباً وهى مملكة صغيرة ذات تجارة مهمة ولكنها عديمة الصناعة تقريباً وأهلها ذوو قدرة على الصبر والجلد والغربة وتحمل المشقات سعياً وراء طلب الارتزاق • عاصمتها أثينا الشهيرة بآثارها القديمة

السادس عشر ـ المملكة العثمانية ويقال لها تركية أوربا عدد سكانها تسعة ملايين تقريباً مختلفو الاجناس من أتراك وأرناؤوط وأرمن وأروام ويهود • الدين السائد فيها هو الدين الاسلامى وسلطانها هو خليفة المسلمين وعاصمتها القسطنطينية أو اسلامبول التى يسكنها ٨٠٠ ألف نسمة • وأشهر مدنها أدرنه وسلانيك وقوله ويانيا وخلاف ذلك من المدن والولايات التي تدفع خراجاً سنوياً للدولة ولكنها مستقلة تقريباً فى ادراتها الداخلية والخارجية

السابع عشر ـ رومانيا وعاصمتها بوخارست

الثامن عشر ـ الصرب وعاصمتها بلغراد

التاسع عشر ـ الجبل الاسود وعاصمته ستينيه

كل هذه الممالك الصغيرة كانت تابعة للدولة العثمانية أولاً حتى سنة ١٨٧٨ م ميلادية خرجت من حكمها واستقلت بنفسها عقب الحرب العثمانية الروسية التى وقعت سنة ١٨٧٦ م

﴿ قارة أمريكا ﴾

هذه هى القارة الحديثة التي يعبرون عنها بالدنيا الجديدة التي استكشفها كريستوف كولومب وقد قيل بسابقة استكشافها قبله الاان هذا هو القول المشهور الآن • وهي توازى قارة أفريقا فى الاتساع وأقل منها بقليل فى عدد السكان • وتنقسم الى ثلاثة أقسام : أمريكا الشماليه وأمريكا الوسطى وأمريكا الجنوبية

﴿ أمريكا الشمالية ﴾

هذا القسم يشتمل على أربعة ممالك عظيمة :

أولاً — جرونلنده وهى اقليم كثير البرودة لم تعلم حدوده الآن • سكانها يعرفون بالاسكيمو ذووقامة قصيرة جداً وعلى شواطئها مستعمرات تابعة للدانيمركه وأشهر مدنها جوليا نسهاب وجودهاب

ثانياً — كندا وتسمى أيضا بريطانيا الجديدة لتبعيتها للانكليز عدد سكانها خمسة ملايين تقريباً وهى بلاد زراعية فيها كثير من معادن الفحم الحجرى والحديد والفضة وغيرها • عاصمتها أتاوه وأشهر مدنها كبك ومنتريال وتورنتو

ثالثاً — الولايات المتحدة • عددسكانها ٦٣ مليوناً تقريباً وهى مملكة متمدنة للغاية ذات تجارة وصناعة وزراعة لايفوقها فى ذلك أعظم دولة فى الدنيا فضلا عما فيها من الغابات الواسعة ومعادن الفحم والذهب والفضة والزئبق وينابيع عديده من الزيت الارضى الذى هو البترول • وعلى العموم فهى الثانيـة بعد المملكة الانكليزية فى التقدم والتمدن والقوة

ويتبعها قسم ألسكا الواقع فى الشمال الغربى من أمريكا الشمالية عاصمته واشنطون وأشهر مدنه نيويورك وفيلادلفيا وشيكاغو وسنت لويز

رابعاً — مكسيكا عددسكانها ١١ مليوناً ونصفاً تقريباً وهى جمهورية وبها كثير

من المعادن والزراعة الا أن الصناعة قد تكون معدومة فيها تقريباً • عاصمتها مكسيكو وأشهر مدنها فيراكوز وپوپيبلا أو أكابلكو

﴿ أمريكا الوسطى ﴾

هذا القسم يشتمل على خمسة جمهوريات صغيرة مستقلة وهى :

١ ــ جواتيمالا وعاصمتها جواتيمالا

٢ ــ هوندوراس وعاصمتها تيجوسيجالبا

٣ ــ سلوادور وعاصمتها سان سلوادور

٤ ــ نيكاراجوا وعاصمتها ماناجوا

٥ ــ كوستاريكا وعاصمتها سان جوزى وأشهر مدنها پونتارياس

﴿ أمريكا الجنوبية ﴾

هذا القسم يشتمل على عشرة ممالك مستقلة كالآتى :

أولاً ــ جمهورية فنزويلا عدد سكانها ٢ مليوناً ونصفاً تقريباً وعاصمتها كاراكاس

ثانياً ــ جمهورية كولمبيه عدد سكانها ٣ مليوناً ونصفاً تقريباً وعاصمتها بوجوتا وأشهر مدنها كولون

ثالثاً ــ جمهورية خط الاستواء عدد سكانها ١ مليوناً ونصفاً وعاصمتها كيتو وأشهر مدنها جويا كيل

رابعاً ــ جمهورية بيرو وعدد سكانها ٣ مليوناً وعاصمتها ليما وأشهر مدنها كلاوو

خامساً ــ جمهورية شيلى عدد سكانها ٢ مليوناً ونصفاً وعاصمتها سنتياجو وأشهر مدنها فلباويز وميناء سنتياجو

سادساً ــ جمهورية لابلاتا المسماة أرجنتين أو بلاد الفضة عدد سكانها ٣ مليوناً

وعاصمتها بيونوزير

سابعاً ـ جمهورية أوراجوى عدد سكانها ٧٠٠ ألف تقريباً وعاصمتها مونتفيديو

ثامناً ـ جمهورية باراجوى عدد سكانها ٣٥٠ ألف تقريباً وعاصمتها أسومسيون

تاسعاً ـ جمهورية بوليفيا عدد سكانها ٢ مليوناً وعاصمتها شيكيزاكا أو السكر وأشهر مدنها لاباز

عاشراً ـ البرازيل عدد سكانها ١١ مليوناً تقريباً وعاصمتها ريودوجانيرو وأشهر مدنها باهيا

﴿ قارة أوستراليا ﴾

هذه هى القارة التى كانت معتبرة أولاً جزيرة كاحدى جزائر الدنيا الا انها من ابتداء القرن التاسع عشر اعتبرت قارة قائمة بنفسها وتنقسم الى ثلاثة اقسام تابعة للممالك الاوروباوية كالآتى :

أولاً ـ قسم مالبزيا وهو يشتمل على مجمع جزائر الصوند الذى يحتوى على جزيرة جاوا التابعة لهولنده وعاصمتها باتافيا ومعظم اهالها مسلمون

ثانياً ـ قسم ميلانيزيا واشهر مدنه ملبورن وسدنى

ثالثاً ـ قسم بولينزيا الذى فيه ثلاثة جهات مستقلة وهى جزائر سندويش التى أشهر مدنها هاواى . وجزائر صاموا أو الملاحين . وجزائر طنجه أو الاحباب . أما باقى جزائر القسم المذكور فتابع لانكلترا وفرنسا واسبانيا

والى هنا انتهى بنا الكلام عن أقسام الدنيا بعد أن تحاشينا التطويل واقتصرنا على مايحتاج اليه الانسان

الكواكب المسكونة

قد أوجزنا المقال عن الارض باعتبار أنها كوكب سيار خلق الله فيه النبات والطير والحيوان وجعله لهم مستقراً و متاعاً الى حين الا أنه من جهة أخرى يهمنا كثيراً ان نكون على بصيرة مما اذا كان هو الكوكب الوحيد الذى اختص بالحياة النباتية والحيوانية أم هناك كواكب أخرى شاركته فى ذلك • ولعمرى فهذه مسألة أخذت دوراً مهماً فى كل عصر من الاعصار القديمة والحديثة حتى وان بعض العلماء اعتقدوا بوجود عوالم حية فى كواكب أخرى غير الارض كالمريخ والزهرة وعطارد وأخذوا فى ثبوت ذلك ثبوتاً عقلياً يرتاح اليه الضمير • والبعض أنكروا ذلك كل الانكار ومعظم الناس أصبح متردداً بين هؤلاء وبين هؤلاء

أما أصحاب الرأى الاول الذين يعتقدون بوجود كواكب أخرى مثل الارض فيها يحيى النبات ويعيش الطير ويتناسل الحيوان من أعجم وانسان فانهم معذورون لان الشواهد العقلية والحسية والقياسية التى تجلت لهم أثناء البحث قد ساعدتهم مساعدة جعلت ذلك الاعتقاد يرسخ فى أذهانهم رسوخاً متيناً رغماً عما لاقوه من معارضة المعارضين واستهزاء المستهزئين • قال أصحاب هذا الرأى ان العقل لايقبل ان تكون الارض هى الكوكب الوحيد الذى دبت فيه الحياة دون باقى الكواكب التى لايمكن تمييز احدها عن الكواكب الاخرى السابحة فى هذا الفضاء اللانهاية له على الاطلاق • ثم قالوا ان الحياة فى الكواكب الاخرى لاتتوقف على ماعندنا من الهواء والماء والمعادن والنباتات والحرارة الارضية التى اعتقدناها روحاً لحياتنا فى هذه الدنيا حيث لربما ان تكون المخلوقات فيها ليست على شاكلتنا فى تركيب الجسم وترتيب الاعضاء وكافة مايستلزمه ذلك من التنوعات والاختلافات • ذلك لان المخلوقات الأرضية قد اوجدها الله تبعاً لتركيب الارض وما فيها من حرارة وماء وهواء ومعدن ونبات

والواقع ان هـذا الفكر لايخلو من الصواب مهما كانت الحقيقة لانه ليس بعزيز على الله سبحانه وتعالى ان يكون قـد خلق مخلوقات أخرى في كوكب آخر أو جملة كواكب خلاف الارض وأوجد هناك مناسبةً لحياتها كما اوجدها في الارض • نعم قد أنكر ذلك أصحاب الرأى الثانى واعترضوا عليـه نظراً لخلو تلك الكواكب من مواد الحياة مع أننا لانعلم من أسرار الكون بل اسرار الحياة الا النذر اليسير

على أن مثل الفريقين فى ذلك كمثل سمكتين كانتا فى غدير من الماء فاقتربت أولاهما للشاطئ فانبرت اليها الثانيـة ناصحة إياها من ذلك الاقتراب خوفاً من وقوعها فى شبكة الصيادين الواقفين خارج الماء فنظرت اليها الاولى شذراً وقالت لهـا مستهزئة :

« إنك تهرفين بما لاتعرفين حيث لايمكن للمخلوقات أن تعيش خارج الماء وما قصدت بنصحك لى الا تظاهراً بالعـلم وحباً فى الشهرة ورغبـة فى الظهور بالافكار الجديدة » • وما كادت تنتهى من الكلمة الاخيرة حتى اصطادها الصيا وأخرجها من الشبكة وصارت بين يديه فنظرت اليه السمكة ورأته حياً خارج الماء فندمت على عدم سماعها نصيحة السمكة الاخرى وتحققت من أنه ليس على الله بعزيز أن يخلق المخلوقات كما شاء وأراد تحقيقاً لقوله تعالى : « سنريهـم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق »

المريخ

وأول كوكب اعتقدوا بصلاحيته للحياة النباتية والحيوانية هو المريخ الذى بعد أن رصدوه وراقبوا حركاته وسكناته تحققوا من أن جرمه وجوه وشكله ومشتملاته وحركاته وسكناته مشابهة كل المشابهة لمثيلها فى الارض فضلاً عن اشتماله على بقع هندسية الشكل تشابه ماعلى سطح الأرض من الترع والخلجان

والمجارى وغيرها مما لايتأتى صنعه الا بفكر وعقل وقوة حاكمة كما هو واضح بالشكل نمرة ١

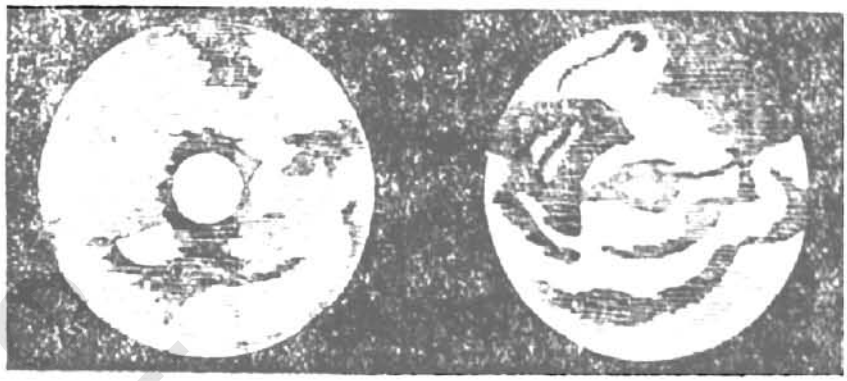

شكل نمرة ١ (الهلال)

قال أحد أنصار هذا الرأى المدعو (برسيفال لويل) : « إن للمريخ جواً مثل جونا وفيه مياه مثل مياهنا وهما العنصران الضروريان للحياة ـ ثم قال : وعلى سطحه بقع منتظمة الشكل لا توجد الا بتداخل العقل فى اصطناعها »

فمن ذلك توهموا أن ذاك الكوكب لايخلو قطعياً من العوالم الحية التى وجهت دفة أفكارهم نحو ايجاد الطريق الذى يوصلهم لهاتيك العوالم مهما كلفهم ذلك من العناء وطول الانتظار ، فاشتغلوا أولاً فى كيفية مخاطبتهم حتى بعد ذلك يسهل عليهم التزاور والانتقال الا أن هذه المسألة قد جعلت أصحاب هذا الرأى مضغة فى الافواه حتى وأن كثيراً من العلماء اعتبروا هذه الافكار من قبيل لاحلام بل من قبيل الهوس والجنون فتمادى الناس فى الاستهزاء بهم والاستخفاف بعقولهم متمثلين بقول أبى العلاء المعرى :

اذا كان فى العيان خلاف * كيف بالغيب يستبين الخفاء

وياليتهم انتهوا لهذا الحد بل تعدوه للمعاملة القاسية الوحشية التى تذكرنا بالاضطهاد العظيم الذى حل بفطاحل العلماء فى كل عصر من الاعصار وأقربهم

الفيلسوف الايتالى الشهير (لبرونو) حيث كان يعتقد بوجود سكان فى كواكب أخرى خلاف الارض فقام عليه رجال الدين وتصدوه ثم زجوه أخيراً فى اعماق السجون وأذاقوه مر العذاب مدة سنتين ثم دعوه لتغيير معتقده فأبى فحكموا عليه بالحرق حياً وفعلاً حرقوه فى رومة سنة ٦٠٠ ميلادية

تلك مسألة وان كانت قد حصلت من نحو ثلاثة قرون الا أن بطون التواريخ قد حفظتها لتكون فى يوم من الايام حجة للعقلاء فى الحكم على هؤلاء الظالمين بفساد أفكارهم وطيش عقولهم وجمود قلوبهم . ذلك اليوم الذى فيه سيريهم الله آياته فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه خلق مالا يعلمون وأوجد فى الكون مالا يفقهون من علوم مبهومة وأسرار مجهولة سيكشفها الحدثان بتوالى الايام وكرور الاعوام

من كان فى الازمنة الغابرة يفتكر فى الكهربائية التي أنارت لنا الظلمات وسيرت المركبات فسهلت المواصلات حتى استعنا بها على اختراع التلغراف الذى ينقل لنا أخبار الدنيا بأسرها فى أقل من لمح البصر فضلاً عن التليفون الذى يحفظ الكلام وينطق به كما ينطق الانسان كأن الله آتاه العقل والصوت واللسان

من كان فى القرون الاولى يفتكر فى المركبات الهوائية التي تنتقل فى الجو من مكان لمكان كالقباب الطيارة التى بين أيدينا الآن

من كان ممن سلف من الامم يفتكر فى وجود أشعة تخترق الاجسام المظلمة بل الاجسام الكثيفة فترينا ماوراء الجماد بل مابداخل جسم الانسان من الاحشاء والعضلات كأشعة (رنتجن) التى خدمتنا بل خدمت النوع الانسانى على الاطلاق

هذا هو أهم مالو كان الاوائل قد سمعوه فى أزمانهم اسخروا به وهزأوا بمن يسعون وراء استكشافه واختراعه وقالوا عنه انه : « حديث خرافة

يا أمّ عمرو » . بل عاملوه تلك المعاملات الوحشية التى تمجها الاذواق وتأباها النفس الأبية بل ينهى عنها العقل والدين . لذلك نحن على يقين من أن العلم الصحيح سيحقق مالأصحاب الرأى الأول من الآمال بتوالى الايام حتى يأتى الوقت الذى فيه نجعل الهواء مسكناً لنا ومنتزهاً لرياضتنا وسلماً للتنقل من كوكب لآخر كما نتنقل الآن من بلد لبلد ومن جزيرة لجزيرة ومن قارة لقارة فنصبح بين قوم نقتبس ماعندهم من الصالح وننتقد مالديهم من الطالح وتتزاحم مع بعض فى الاشغال كما كانت تتزاحم أجدادنا فى سالف الازمان وكما نحن تتزاحم مع بعضنا الآن

الا أن سكان ذلك الكوكب أقدم منا حياةً على مايظهر نظراً لكونه أطول عمراً من الارض التى نحن عليها . لذلك يكونون من باب الاحتمال أرقى منا بدناً وعقلا وتقدماً فى المدنية الشرعية والسياسية . قال العلامة (هوف) أحد أساتذة الجامعة بأمريكا : « ولما أن كان المريخ أكبر سناً من الأرض وقد جمد وبرد قبل الأرض بأزمان فالانسان وجد قبل وجوده على الارض وأرتقى أكثر من ارتقائه فيها »

فيا ترى هل خلق الله أبا هؤلاء السكان مثل ماخلق أبانا آدم من صلصال من حمأ مسنون

وهل خلق أمهم مثل ماخلق أمنا حواء من ضلع آدم وقتما كان غريقاً فى النوم

وهل لهم جنة مثل جنتنا وابليس مثل ابليسنا تسبب فى أن أهبطهم الله من جنتهم لأرض جعل لهم فيها مستقراً ومتاعاً الى حين حيث فيها يحيون فيشقون ويسعدون ثم فيها يموتون ومنها يخرجون كما قضى علينا بذلك نحن الآخرون

وهل تلك الارض كأرضنا فيها هواء وماء وحجارة وتراب وزرع ونبت وشرب وأكل قوت ثم بعث فنعيم وجحيم

وهل لهم أعين مثل أعيننا وأيد مثل أيدينا وأرجل مثل أرجلنا وعقل مثل عقلنا يقود الجميع

وهل لهم شهوة بهيمية مثل شهوتنا بها يتناسلون وبها يتحابون فيتعاشقون فيسلبون أعراض بعضهم بعضاً فيتباغضون فيتنازعون فيقتتلون الى أن يتقاضوا جميعاً دنيوياً وأخروياً كما نحن نتقاضى الآن وسنتقاضى فى الآخرة أمام رب العالمين

وهل هم مثلنا أقوياؤهم يغتالون ضعفاءهم وأغنياؤهم يحتقرون فقراءهم على أقل شئ يكون

وهل نشأ من بينهم قواد كقوادنا خاضوا عباب الحروب بقوة بطشهم وقساوة قلوبهم فسفكوا الدماء ونهبوا الديار وسبوا الاعراض وشتتوا النساء والاطفال والرجال

وهل عندهم امتيازات كالامتيازات الاجنبية التي قصمت ظهورنا وحملت عرانا أم الكل فى الحياة هناك سواء بسواء كما يقضى بذلك العدل والشرف فى كل زمان ومكان

وهل قام من بينهم مثل من قام بيننا من الكهنة والحكماء والانبياء والرسل فسنوا لهم القوانين والشرائع كى يهتدوا سواء السبيل فيكونوا سعداء الدارين . أم تجلى الله لهم جهاراً وهداهم بنفسه فأغناهم عن كل ذلك خصوصاً عن الوحى والتنزيل الذى يحتاج للتأويل والتفسير وكثرة القال والقيل كما نحن واقعون فيه الآن

وهل هم يارى عالمون بنا متشوقون للقائنا باحثون فى أمرنا ملاقون فى

سبيل ذلك شقاء مثل شقائنا الذى تجشمناه وسنتجشمه فى مستقبل الايام

تلك أسئلة ألقيناها بناء على ما أوحته الينا سماء التخيلات والتصورات التى ربما سينكشف عنها غطاء الخفاء فى القريب العاجل

﴿ الفصل الثانى ﴾

﴿ الانسان ﴾

الانسان وما دراك ماهو : هو ذلك الحيوان الذى امتاز عن باقى المخلوقات بما آتاه الله من المواهب السامية والامتيازات العالية التى ساعدته على الانتفاع بغيره من حيوان وجماد فاتخذ البعض غذاء والآخر لقضاء حاجياته واستخدام كل شئ خلقه الله فى هذه الدنيا بطرق غريبة كان أكبر مدبر لها هو ذلك الجوهر الثمين أعنى به العقل الذى هو السلطان لتلك المواهب وهاتيك الامتيازات

نعم قد امتاز عن جميع المخلوقات على وجه العموم يسيرها ويستخدمها ويتصرف فيها تصرف الملك طبق مايشتهى نظراً لما يراه فى نفسه من السيادة والامارة والسلطان إلا انه من جهة أخرى لايكون انساناً حقيقياً إلا اذا كان على علم مما يتعلق بنفسه كى يخرج من دائرة الجمود الضيق الى دائرة الفضاء الواسع الذى ليس له نهاية بل ليس فيه أحسن من حصول الانسان على معرفة أعظم حكمة فى انتظام هذا الكون . تلك الحكمة التي تقضى عليه ان يكون مع أمثاله القريبين والبعيدين سواء بسواء لأنه ان لم يكن كذلك فلا تكون وجهته إلا السعى وراء حب نفسه والاستئثار بحاجياته والاجحاف بحقوق غيره من الناس أجمعين

واذا كان مبلغ علمنا بأنفسنا هو الجهل ومنتهى غايتنا فى حياتنا هى الأكل والشرب والضرب والحرب والقتل والسلب وقضاء الشهوة البهيمية ثم ينتهى ذلك

بنا الى الموت فوالله لايكون مثلنا فى هذه الدنيا إلا كمثل أقل الحيوانات المخلوقة التى نعلم جميعاً أنها بعد أن تخلق لايكون همها فى حياتها الا ادخار قوتها حالاً واستقبالاً حتي آخر لحظة من حياتها . ذلك الذى يجعلنا دائماً آسفين متألمين فلا حول ولا قوة الا بالله

على أنه لو لم يكن من مستلزمات الانسان أن يعرف ولو قليلا من متعلقات نفسه قديماً وحديثاً لما جعل الله لذلك أهمية فى كل كتاب أنزله على رسله أجمعين . اذ مامن كتاب أنزله الله الا وهو مشتمل على كل مايتعلق بالاولين والآخرين . لذلك جميعه يجدر بالانسان بل يلزمه ان يصرف جزءاً من وقته فى درس المواضيع التى تختص به ليتميز عن غيره من الكائنات فيعرف حينئذ مقدار نفسه فتتجلى له الحقيقة وتظهر أمامه العبرة بكل معانيها فتكون مزدجراً له ورادعاً لشخصه فيعود ذلك عليه وعلى الناس أجمعين بالخير والسعادة والفلاح

على ان البعض طالما أجهد قواه وأتعب نفسه وحارب أفكاره سعياً منه وراء معرفة ذات الله وصفاته ومكانه وأعماله وأفعاله وكلما يتعلق به كأن الانسان يريد أن يصل الى كنه الله سبحانه وتعالى وهو أصعب عليه من خرط القتاد فمن باب أولى أن يتجه الانسان قبل الخوض فى ذلك الى معرفة نفسه ودراسة تاريخه وما يتعلق به بل جميع مايحيطه من الكائنات فيستفيد ويفيد غيره ليكون ذلك مطابقاً لمفهوم قوله صلى الله عليه وسلم : « تفكروا فى خلق الله ولا تفكروا فى ذات الله »

ولما ان كان أفضل تلك المخلوقات هو الانسان فيهمنا كثيراً أن نعرف كيف كان أصله فتكوّن فصار بشراً سويا . وما هو عقله الذى امتاز به عن كافة المخلوقات . وكيف كانت عيشته الاولى فتدرج منها الى ماوصل اليه الآن . وكيف نطق فتكلم فأوجد له لغة تفرعت منها اللغات العديدة المنتشرة فى بقاع

الارض • وماهى أول لغة تكلم بها • وماهو عمره من عهد أن خلقه الله • وكيف تناسل آدم أبو البشر فانتشر نسله على سطح الكرة الارضية فطغى وتجبر وفسد وتكبر وارتكب ما ترتكبه أسافل الحيوانات

تلك المواضيع التى فضلا عن لزومها للانسان فانها مما تستريح له جوارحنا وتتغذى منه حواسنا وتتسلى به قلوبنا وترقص لأجله أفئدتنا فنعيش بسيرتنا وسيرة آبائنا سكارى وما نحن بسكارى ولكن الموضوع فى الحقيقة لذيذ الطعم حلو المذاق

أصل الانسان

أما البحث عن أصل الانسان وكيفية وجوده حتى صار بشراً سوياً فهو من المسائل العويصة التي تعب فيها فطاحل العلماء خصوصاً علماء الاعصار الحديثة الذين اعتنوا بها اعتناء عظيماً فذهبوا مذاهب شتى أشهرها مذهبان :

أولها هو الذى كان أكثر الباحثين فيه من علماء الطبيعة مثل (أناسى • وديمولان • ومورتون) الذين قالوا بأن جميع الناس ليسوا متناسلين فى الاصل من نوع واحد بل من أنواع متنوعة • وأكبر برهان أقاموه على ذلك مارأوه فى عموم الناس من تنوع نسلهم وتباين تقاطيع وجوههم واختلاف تركيب بنيتهم وطباعهم وتغاير ألوانهم حيث منهم الابيض والاسود والاصفر والاحمر الى غير ذلك من الاختلافات العظيمة التى لاتتواجد الا من تعدد أنواع الانسان فى الاصل كما يدعون

أما المذهب الثانى الذى ابتدأ فيه أولاً العلماء (دومابيسه الفرنساوى • وشلغر • ولينيه السويدى • ولامارك) فهم يقولون عكس ذلك على خط مستقيم حيث يؤكدون ان النوع البشرى على الاطلاق متسلسل من نوع واحد مثبتين أن اختلاف الانسان فى التناسل والتقاطيع والبنية والطباع والصفات والالوان

من أبيض لاسود لأصفر لأحمر ليس برهاناً على ان الناس متناسلون فى الاصل من أنواع متنوعة لأن كل تلك الاختلافات ناشئة فى الغالب من اختلاف أحوال الأكوان المعبر عنها عندهم بالاحوال الجوية والوسائل المعيشية والعوائد التمدنية التى يكون عليها الانسان بحسب الزمان والمكان • لذلك كان أصحاب هذا القسم هم الكفة الراجحة فجنحت اليهم أرباب العقول السليمة فازدادوا اجتهاداً فى بحثهم هذا بعد ان صرفوا فى سبيله كل مرتخص وغال ثم وضعوا لنا أخيراً مذهباً جديراً بالتأمل دعوه مذهب (النشؤ والارتقاء) حيث بحثه الكثير من أساطين العلم المجتهدين مثل (هربرت سبنسر وداروين) خصوصاً الاخير الذى كانت أبحاثه كلها مبنية على المشاهدة والاختبار كما أوضح ذلك فى مؤلفاته الشهيرة التى افرغ فيها من الآراء الفلسفية عن اصل الانسان ماتستلذ لسماعه الآذان وتميل لتلاوته القلوب

وخلاصة تلك الآراء ان الانسان اصله متناسل من أرقى الحيوانات التى خلقها الله حيث كانت حالتها الاصلية خلاف ما نراها اليوم فى الانسان من القوام المعتدل والشكل المناسب والفكر العالى بل كان أصله حيواناً شجرياً أى يتسلق الاشجار ويدب بأربعيه ثم ترقى تدريجياً بحسب ماطرأ عليه من الطوارئ الجوية وبالاخص الطوارئ المعيشية حتى عندما بلغ اشده فى العقل سعى فى تمييز نفسه عما حوله من تلك الحيوانات فسمى نفسه انساناً • ولو أردنا ان نتوسع فى الكلام على هذا المذهب لضاق بنا المقام غير اننا نكتفى بالنظر لثلاثة أنواع من القرود تسمى (الغوريل والشمبانزى والأورانج) حيث نراها أقرب المخلوقات للانسان خصوصاً الشمبانزى المذكور فانه يمشي منتصباً ويتسلق الاشجار كما نتسلقها نحن ويتفاهم بسرعة كما نحن نتفاهم ويستعمل يديه وأصابعه مثل ما نستعملها • وعلى العموم فانه هو والانسان متقاربان فى مشابهة الخلقة والحركات والسكنات والافعال والاعمال

ومن قرود الشمبانزى هذه قرد موجود بحديقة حيوانات (لندره) كانوا اصطادوه من أعالى نهر النيجر بأفريقيا الغربية وزنه ٥٦ رطلا واذا رفع يديه بلغ طول قامته أربعة أقدام. وهو حديث السن لايتجاوز الحادية عشر سنة من عمره ذو نباهة زائدة وبراعة فائقة فى التقليد حتي وانه لايرى أحداً يصنع أمامه شيئاً الا ويعمله من نفسه . فلما آنسوا منه ذلك ألبسوه ثياباً وعاملوه معاملتهم فأصبح يأكل على المائدة بالشوكة والسكينة والملعقة ويشرب الكاس ويدخن التبغ ويشعل السيكارة بنفسه ويمسك القلم ويكتب بأنامله . ومن الغريب انه ذو ولع شديد بركوب عجلة البيسيكل حتى وانه يزيتها بيديه ويمشى بها أميالا خصوصاً وانه يميل لمداعبة الاولاد والسيدات حتى فى بعض الاحيان يطاردهم وبيده قضيب ولكنه لايصيب أحداً بأذى كأنه يفرق بين الجد واللعب فضلا عن انه يمشط شعره ويفرشه ويغسل وجهه ويديه ورجليه بالماء والصابون . كل ذلك قد حبب اليهم أن يخصصوا له رجلا يخدمه ، يلاعبه ويقضى له كل مافيه راحته على الدوام كما هو واضح فى الشكل نمره ٢

شكل نمره ٢

(هلال)

وعلاوة على ذلك فقد ورد بجريدة (ثروت فنون التركية) التى تطبع فى الاستانة عدد ٤٨١ سنة ١٩٠٢ م ما يفيد ان أحد الصيادين اصطاد حيوانا من احدى جبال (حملايا) بأعالى الهند وأتى به الى أوروبا لعرضه على المتفرجين الذين كان من بينهم العلماء والفلاسفة فرأوا ان هذا الحيوان ذو أنف وعين وحاجب ورأس واستدارة وجه كما فى نفس الانسان ولكنه يخالفه فى غزارة الشعر وعدم النطق وهما أمران ليسا من الاهمية بمكان فى جانب مافيه من تلك الصفات التي تجعله أقرب للانسان منه الى القرود حتى وأن مجلة الهلال قالت عنه :

« إذا لم يكن فى هذا الحيوان علامات أخرى تثبت قرديته فما هو الا انسان غزير الشعر بليد العقل فاقد النطق لعلة عصبية أو عضوية » . كما هو واضح فى الشكل نمره ٣

شكل نمره ٣ (هلال)

ومع كل فما لنا ولذلك وبين أيدينا الآن سكان أواسط أفريقا وبعض متوحشى المكسيك بأمريكا الذين هم على أقبح صورة وأرذل شكل رأته العيون حيث لو أخذنا أحدهم ووضعناه بجانب قرد من قرود الشمبانزى لما وجدنا هناك كبير فرق سوى

النطق وخفة الشعر واعتدال القامة مع انه الآن معتبر معنا انساناً حتى وان بعض التجار جلب لأوروبا جماعة من أولئك المتوحشين على سبيل الفرجة فكانوا هناك محل اندهاش الاوروباويين عموماً حيث لايفرقون عن القرود فى شئ • وفضلا عن هذه المشابهة الظاهرية فان القرود بأنواعها تشاركنا فى التراكيب الباطنية حتي واننا اذا استحضرنا هيكلا انسانياً وآخر قردياً وقارنا بينهما مقارنة تشريحية بالتدقيق لما وجدنا بينهما فرقاً ظاهراً سيما اذا كان الهيكل الانسانى من أحط الطبقات البشرية كسكان اواسط أفريقا وأمريكا • هذا علاوة على انهما تشاركنافى الامراض التي تنتابنا كالزكام والصداع والتهاب الامعاء والحمى وكنزكة العين وعلى العموم تشاركنا فى كل شئ خصوصاً فى ناموس التناسل ولو ان ذلك مشترك بيننا وبين بعض الحيوانات الاخرى ذوات الثدى الا انه فى الشمبانزى أقرب مشابهة لنا من تلك الحيوانات • ثم وان العقاقير الطبية التى يتعاطاها تفعل فيه فعلها فى الانسان

والاغرب من ذلك ان جريدة الجورنال الاميركانية روت خبراً أكثر غرابة مما ذكرناه مقتضاه ان أحد الاميركانيين اقتنى قرداً من جنس الشمبانزى وتصادف انه كان ذا نباهة فائقة فسماه (امبراطور) حتي ان صاحبه اعتنى به اعتناء زائداً وأخذ فى تربيته وتعليمه الى ان صار يلبس الملابس ويقلعها كالاولاد ويشرب ويأكل بالشوكة والسكينة وينام ثم يقوم يمشط شعره بالمشط والفرشاة أمام المرآة ويفهم اللغة الانكليزية بسرعة الا انه لايتكلم بها وعلى العموم فانه يقوم ويقعد ويغدو ويروح ويأتمر بالاوامر كأنه طفل من الاطفال

وأحسن ساعات هذا الامبراطور ما كان يقضيها مع إحدى بنات صاحبه الذى كان قد اقتناه لها كلعبة تلعب بها حتى وانه من كثرة معاشرته لها كان يحبها حباً شديداً ويحن اليها حنان الوالدين بحيث لو رآها ساكتة لاعبها وداعبها

وإذا رآها تبكى اقترب منها ومسح دموعها بيديه أو تناول منديله الصغير من جيبه ومسح به عينيها • ذلك الذى تعلمه الامبراطور المذكور فى بضعة شهور وهو حديث السن لايتجاوز الثالثة من عمره فكيف به اذا بلغ رشده وعاشر الانسان

هذا ولمناسبة ذلك أذكر أنى مذ كنت موجوداً سنة ١٩٠٢ م فى (الابيض) عاصمة مديرية كردفان بالسودان تصادف ان أحد سلاطين الجبال التابعة لتلك المديرية حضر مدعواً من قبل حكومة السودان مع غفير من رعاياه الذين فضلا عن كونهم عراة حفاة فان تركيب وجوههم لايختلف فى شئ عن تركيب وجه الشمبانزى المذكور سوى أن لون هذا بين الأصفر والأحمر أما لون ذلكم فمائل للسواد حتى وانى لما رأيتهم وتمعنت ارداهم خلقة رابنى أمره حيث خلته قرداً سوداناً فى شكل انسان • ذلك الذى شوقنى لان أتقرب من احدهم كى أتحدث معه حديثاً ربما يخفف ما أنا فيه من الذهول والدهشة والاستغراب أخذت أسعى وأجتهد الى ان وقعت الصدفة على نفس سلطانهم الذى جالسته ويابئسها مجالسة قد زادتنى استغراباً على استغرابى حيث تحققت من انه فاضى الوطاب فارغ الجراب بل هو حيوان فى زى انسان • فتذكرت لوقتها ذلك القرد وأعنى به الشمبانزى الذى لو تهيأت له الاحوال التى نشأ فيها ذلك السلطان ورعاياه ومن شاكلهم من تلك الامم المتوحشة فلا بدوأنه بتوالى الدهور يتحول من حالته الى الحالة التى رأيت أولئك عليها فى ذلك اليوم

ولقد كان أمير (موناكو بفرنسا) ذا شغف زائد بالبحث والتنقيب عن الآثار المدفونة بباطن الارض والمغارات والكهوف فوجد هناك جثتين متحاذيتين مدفونتين على عمق عشرين قدماً تبين من البحث أنهما لأم عجوز وابنها • وقد زعم بعض علماء الآثار ان تركيب الجسم فيهما أحط منزلة من جسم الانسان

وفيه مشابهة لاجسام القرود

وهكذا لو تتبعنا المقال فى مثل ذلك لانتهى بنا الامر لمذهب أولئك الفلاسفة وهو مذهب (النشؤ والارتقاء) القاضى بأن الانسان أصله متسلسل من حيوان آخر أحط منه جسماً وعقلا فتدرج الى ماتدرج اليه الآن بحكم الطبيعة والتقلبات المعيشية • ذلك الذى شاع وذاع بين طبقات كثيرة من الامم القديمة والحديثة وبالاخص بين الامريكانيين الذين تقدموا تقدماً عظيماً فى المدنية الحديثة حتى صار يضرب بهم المثل فى حرية الفكر واستقلال الضمير والمساواة بين الصغير والكبير والغنى والفقير الى ان بلغ الامر من بعضهم انهم حنوا الى القرود حنانهم الى ذوى قرباهم اعتماداً على ماجاش بفكرهم مما سمعوه بأذنهم ورأوه بنظرهم وأختبروه بأنفسهم • ولم يصل الامر بهم لهذا الحد بل تعدوه لاعتبار القرود أبناء اعمامهم فأصبحوا يحزنون لحزنهم ويفرحون لفرحهم غير مبالين بانتقاد المنتقدين واستهزاء المستهزئين • ذلك انه كان يوجد قرد بأحد فنادق مدينة (جبل الكرمل ـ بولاية ألينوى بأمريكا) ونظراً لما كان عليه من النباهة الزائدة فأهالى تلك المدينة سموه (البرنس بسمارك) ولما بلغ أشده ارادوا ان يختاروا له عروساً تشاركه السراء والضراء مدة حياته طبقاً لسنة الله ورسله أجمعين فوقعت الصدفة على قردة من شكله كانوا سموها (النشؤ والارتقاء) فأخذ القوم فى تجهيز الجهاز وإعداد المعدات ثم وزعوا رقاع الدعوة فاجتمعوا واحتفلوا بالعروس التى كانت وقتها لابسة من الحرير ثوباً ضافى الذيول ثم جاؤا بها فى بهو مخصوص فى قطر من قطورات السكة الحديدية واوصلوها فى موكب عظيم الى ذلك الفندق حيث كان العريس فى انتظارها لابساً حلة من الثياب الفاخرة مفصلة له حتى انه عندما دخلت اليه عروسه قام قاضى المدينة بعقد الزواج بينهما ثم تأبط عمدة البلدة ذراع العروس وسار بها حتى اوقفها بجانب

عريسها وسلمها اليه حسب عادتهم الجارية • وفى الصباح التالى صنعوا للعروسين طعاماً فاخراً أكلا منه مريئاً وشرباهنيئاً حتى صارت المائدة بمشتملاتها أنظف من البلاط ••

تلك رواية واقعة قد تناقلها جرائد كثيرة من ضمنها جريدة المقطم التى ذكرت بعددها ٥١١٦ رقم ٢٦ يناير سنة ١٩٠٦ م جملة اختتامية لما أوضحته عن هذا المهرجان فقالت : « وأعلنوا فى الجرائد أن العروسين يستقبلان الزائرين من ١٥ يناير سنة ٩٠٦ م فصاعداً »

هذا ماذكرناه فان لم يكن فيه مايشير لشئ مما أوضحناه عن مذهب التشؤ والارتقاء فانه لايخلو من التفكهة والتسلية خصوصاً فى مثل هذا الموضوع

على أن داروين المذكور لم يقطع باقواله وآرائه مدعياً السداد فى البحث والعصمة فى القول بل أظهر أنها تخمينية تحتاج للتمحيص والتدقيق كى يتبين غثها من سمينها بتوالى الايام الا انه لو كان وصله خبر ذلك القرد الموجود بحديقة حيوانات لندره وذاك الحيوان الذى اصطادوه من جبال حملايا خصوصاً الامبراطور الموجود عند ذلك الامريكانى ورآها بعينى رأسه واختبرها بنفسه وتحقق من أشكالها وأفعالها فربما كان يسحب نسبة أفكاره هذه للتخمين ويستعيضها بالتحقيق • وعلى العموم فان الانسان كلما استجلى تاريخ حياته ووقف على مامر عليه من الادوار والاطوار • وما أودع فى الارض من الآثار • وما اكتشف فيها من القوى والاسرار • وما اهتدى اليه بالفطرة من مكنونات العلم وكنوز الحكمة • وما أقامه من المجد الباذخ • ومنار العلا الشامخ • لداخله الكبرياء • وشمخ بأنفه نحو السماء • مستعظماً أن يكون أصله متسلسلاً من حيوان أحط منه فى الدرجة شكلا وعقلا وتربية حيث يرى هناك بوناً شاسعاً بل بينه وبين تلك النسبة هاوية ليس لها قرار • الا أن تلك الكبرياء وذلك الشموخ

وذلك الاستعظام لاتلبث جميعها الا ان تذهب أدراج الرياح عند مايقارن الانسان عن مقارنة القرد بالانسان الأرقى بل يجعل تلك المقارنة بالانسان الادنى أعنى به الانسان المتوحش العائش فى الفلوات معيشة الهامجات من الحيوانات • هنالك يرى أن القرد أسمى منه عقلاً وأبعد منه نظراً فى الاحوال المعيشية ويتحقق من أن المدنية التي اكتسبها الانسان ليست موجودة وجوداً طبيعياً بل هى صفة مكتسبة مثل كافة الصفات الموجودة بالانسان الذى اكتسبها بالعقل والعلم والاختبار بكرور الايام والسنين وتوالى الاجيال والقرون

وقد كان لفيلسوف الشرق السيد جمال الدين الافغانى جملة مقالات فى هذا الموضوع نشرت بعضها مجلة المنار فى سنتها التاسعة حيث يؤخذ منها ان الانسان لم يخرج عن كونه نوعاً من أنواع الحيوانات الارضية وانه قد أتى عليه حين من الدهر وهو على شاكلتها وعلى مقربة منها ينشأ نشأتها ويسير فى عيشه عيشتها بأن يتفيأ ظلال الاشجار • ويستكن فى الحجرة والاوكار • بدون شعار أو دثار • ذلك لانه كان فى بدء نشأته ضعيفاً عاجزاً جاهلا حافياً عارياً ثم تدرج فى الكماليات حسبما استلزمته حاجياته وضروراته الداخلية والخارجية • تلك التى سار فيها سيراً تارة كان بطيئاً وأخرى كان سريعاً كما اقتضته السنن الطبيعية من بقاء الانسب بحسب الزمان والمكان • ذلك الذى يرجع بنا لمذهب النشؤ والارتقاء الذى بحثه كثير من العلماء فى كل عصر من الاعصار فوافقوا عليه وأثبتوا ان هذا المذهب لاينافى الدين فى شئ ولا يناقض هبوط الوحى على الانسان بعد أن صار إنساناً عاقلا متميزاً عن كافة المخلوقات • ومن نظر لمضمون قوله تعالى القاضى بأن الله خلق الانسان من صلصال من حمأ مسنون ثم نفخ فيه من روحه يتخيل له انه سبحانه وتعالى ذو فم مثلنا ينفخ به وذو روح كروحنا قابلة للتغيير والتنقل من حال الى حال مع ان الله بعيد عن ذلك الذى ما استعمله وما استعمل مايماثله فى كتبه العزيزة الا من قبيل المجاز والمجاز خلاف الحقيقة والحقيقة

بنت البحث والبحث يوصل لما ذكرناه الا أن ماتقولته قدماء المصريين والكلدانيين (العراقيين) والصينيين والهنود وكافة الامم القديمة في هذا الموضوع من الآراء والافكار التاريخية والخرافية — والدينية على مايقولون — قد أوجدت تأثيراً عمومياً فجعلت العقول غير مستعدة لقبول ذلك المذهب فأجمع أغلب العلماء أخيراً على قفل هذا الباب مكتفيين الآن بما أنبأتهم به الاديان السماوية .

قال المؤرخ الفرنساوي الشهير فرنسيس لونورمان : « لانعرف في شأن أصل النوع البشري كيف كان غير ماأفادنا به الكتاب المقدس » . نظراً لكونه أقدم تاريخ مستوفى ظهر على سطح الارض

ونحن نضم صوتنا لصوته ونجاهر بما نعتقده على وجه العموم من أننا لانعرف شيئاً عن أصل الانسان سوى انه متسلسل من أب واحد لايعلم حقيقته غير الله حيث ذلك هو الاقرب للعقل لان الدين يقول به والتاريخ يساعده والعلم يؤيده والعقل يرتاح اليه والاكتشافات الحديثة لاتناقضه

عقل الانسان

لما أن خلق الله الانسان أراد أن يميزه عن غيره من كافة المخلوقات فألهمه قوة مدركة تدرك وجودنا ووجود ماحولنا وتحكم على أعمالنا وأعمال غيرنا من شر وخير وتميز من الأمور فاسدها وصحيحها وتستخرج الكليات من الجزئيات وترد عنا عما يكون فيه شر لأنفسنا . وعلى العموم فتلك القوة هي السلطان المدير لحركة الانسان التي أطلقنا عليها كثيراً من الاسماء : كالعقل واللب والحجا والحجر والنهى والوجدان والضمير والمنطق والارادة وغير ذلك من الاسماء التي أشهرها الاسم الاول وهو العقل

والعقل يولد مع الجسم ويلازمه حتى يموت الانسان وكذلك يتنقل بالتناسل من الآباء للابناء . ويزعم بعض العلماء انه جوهر لطيف يفصل بين

حقائق المعلومات ويفرق بين الامور المشتبهات ولكننا لا نعترف بذلك لداعى أن الجوهر هو الذى يقوم بنفسه كالجسم مثلاً ولو كان أقل الاجسام مع ان العقل فى الحقيقة لايكون جسماً على الاطلاق بل هو عرض تحمله نفس الانسان فتقوم بتلك الوظائف التى أوردناها أولاً وهى المحصورة فى إدراك وجودنا والحكم على أعمالنا وتمييز فاسدنا من صحيحنا واستخراج كلياتنا من جزئياتنا وردعنا عن شرورنا فى أفعالنا وأعمالنا • وقال فريق ❊ ان العقل هو معرفة موجودة فى الانسان تنقص وتزيد بحسب مايكتسبه من العلوم النظرية والعقلية وتذهب وتعود بحسب مايطرأ عليها من الطوارئ الجوية • وهكذا من تلك الاقاويل التى توسعت فيها الافكار فى كل زمان ومكان الا أن أقربها للحقيقة ما أجمع عليه أخيراً بعض فطاحل العلماء الذين عبروا عن العقل بأنه نور فى الانسان غير محسوس ولا منظور كنور البصر فى العين • وذلك النور ينقص ويزيد ويذهب ويعود والجسم على حالته الاولى كما أن نور البصر يفقد من العين دون أن يتغير فى شكلها شئ يكون أو كما شبهه بعضهم من أنه فى الجسم كالنور فى البيت فاذا بقى النور فيه استضاء فاستنارت جوانبه وإن طفئ النور بقى البيت مظلماً لاينتفع به تماماً كما يكون جسم الانسان عديم النفع بدون العقل • وعلى العموم فان العلماء الماديين يرون هذا الرأى بعينه حيث يقولون ان العقل عبارة عن قوة غير عاقلة كالنور أو الحرارة أو الكهربائية أو مامائل ذلك من القوى الطبيعية ثم صارت عاقلة عند تكوّن الانسان • ذلك الذى فى اعتقادنا لانراه مخالفاً قطعياً لما ارتاءه اللاهوتيون من ان العقل هبة من الله وهبها للانسان عند ماخلقه تمييزاً له عن كافة المخلوقات • ولو أن فلاسفتهم قد أطلقوا عنان تصوراتهم فى هذا الموضوع الى درجة أوجدت فى الاذهان تخليطاً عاماً قضى باحتجاب الحقيقة التى يقصدونها الا انهم معذورون فى ذلك نظراً لكون كافة أبحاثهم التى ملأوا

بها المجلدات بل المدن والامصار هي مبنية على الالفاظ والتصورات الوهمية وليس فيها شئ من المعاني والحقائق الطبيعية حتى ان الانسان ربما يقرأ مجلداً ضخماً في العقل أو في مايماثله فيخرج منه كما دخل فيه دون أن تظهر له نتيجة مفيدة أو شئ جديد

مركز العقل — وكما اختلف العلماء البحاثون في كنه العقل وماهيته كذلك خبطوا خبط عشواء في تعيين مركزه ففريق يقول انه في الدماغ وفريق يقول انه في القلب حتى التبس الامر علينا جميعاً فاعتقد كل منا بما يهديه اليه شعوره واحساسه

أما أصحاب الفريق الاول فاعتمادهم على دعواهم هو أن الدماغ مشرف على الجسم حيث فيه تجتمع الاعصاب وتستقر الحواس فضلاً عن انه متى حدث حادث في الدماغ أصبح غير صالح لوجود العقل فيه فاما أن يزول من الدماغ دفعة واحدة أو يتناقص منه تدريجاً بنسبة ماعليه ذلك الحادث من التأثير حتى من كثرة ابحاثهم قالوا ان العقل محصور في الجهة الخلفية من الدماغ بمعنى انه مستقر وراء الجبهة . ثم ذهب بعضهم الى أن الدماغ منقسم الى قسمين أحدهما جهة اليمين والآخر جهة اليسار فالقسم الايمن يتسلط على الشطر الايسر من الجسم والقسم الايسر على الايمن . ثم قالوا ان معظم العقل كائن في القسم الايسر لانهم رأوا بالتجارب ان القسم الايمن حينما يصاب بعاهات كثيرة لايحصل للعقل أدنى تأثير بخلاف مالو أصيب القسم الايسر من الدماغ

أما اصحاب الفريق الثاني فبحثوا ذلك بحثاً دقيقاً حتى قالوا أخيراً ان الدماغ لو كان مستقراً للعقل لكان يتأثر كله بتأثيره ويتغير بزواله ولكن من المشاهد المحسوس ان من يفقد عقله بسبب مصاب عظيم أو خطب جسيم كضياع المال وفقد الحبيب والافراط في الحب والتغير الفجائي في المعيشة أو بسبب رؤية

منظر فظيع كالصلب والاعدام بالسيف أو الرصاص والتمثيل بقطع الاوصال وقل الاعين وخلع الالسن فان العقل يذهب دون أن يحصل للدماغ تأثير أو تغيير . ذلك ما الجأهم لعدم الموافقة على رأى الفريق الاول وقضى عليهم بموالاة البحث والاستقصاء حتى أقروا أخيراً على ان القلب هو مستودع الدم والمتصرف على الجسم فيعطيه دماً نقياً فيه الحياة ويأخذ منه دماً فاسداً فيه الموت الذى هو سلطان الجسم لانه حينما يضرب ضرباته تجاوبه العروق بنبضها والاورام بنفخها والآلام بطرقها . وما ذلك الا لتتبعها كلها للقلب الذى بهذه الصفة يليق لأن يكون مسكناً للعقل على الدوام ذلك الذى حسن فيه التأويل ووافق عليه اللاهوتيون والسنيون قال تعالى : « ألم يسيروا فى الارض فتكون لهم قلوب يعقلون بها » . ثم قال : « ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والانس لهم قلوب لا يفقهون بها » . وقال صلى الله عليه وسلم : « يقول الله تبارك وتعالى ان العبد يتحبب الىّ بالنوافل حتى أحبه فاذا أحببته كنت رجله التي يمشى بها ويده التى يبطش بها ولسانه الذى يتكلم به وقلبه الذى يعقل به .. الخ » .. وغير ذلك من الآيات البينات والاحاديث الشريفة التى تعزز ما ارتاءه الفريق الثانى من ان القلب هو بيت العقل ليس إلا

على ان العقل قسمان قسم طبيعى وقسم اكتسابى : فالاول هو العقل الصحيح الذى عبرنا عنه بنور غير محسوس ولا منظور وهو لا يكون كاملاً الا بالقسم الثانى وهو الاكتسابي الذى يحصل عليه الانسان من كثرة الاختلاط والتجارب والاعمال ومرور الايام والليالى بسرائها وضرائها . وعلى العموم فانه يتولد من التوسع والتفنن فى الاحوال المعيشية . قال بعض الحكماء : « أصل الامور العقل وفرعها التجارب » أو كما قال على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه :

رأيت العقل عقلين * فمطبوع ومسموع
فلا ينفع مسموع * اذا لم يك مطبوع
كما لا تنفع الشمس * وضوء العين ممنوع

عقل الحيوان — ولما كان الشيء بالشيء يذكر فيمكننا ما أوضحناه أن نستنتج استنتاجاً عقلياً يؤيد ماذهب اليه بعض العلماء من أن كافة المخلوقات سواء كانت طيراً أو حيواناً لابد وأن يكون لها عقل طبيعي مناسب لها فلو لم يكن لذلك صحة لما وجدناها على شيء من العقل الاكتسابي الذي هو السبب في قيامها بمعيشتها خير قيام

على ان هذه المسألة فضلاً عن كونها خلافية للغاية فان العلماء لايزالون يبحثون فيها بحثاً دقيقاً معتمدين على اختبار الطيور والحيوانات ومواظبة أحوالها المعيشية • فبعضهم ذهب الى أن أفعالها كلها صادرة منها عن سليقة أو غريزة فيها لاعن عقل من نوع عقل الانسان • وبعضهم ذهب لعكس ذلك حيث يقولون ان لها عقلاً مثل مالنا من العقل المناسب خصوصاً اصحاب مذهب النشوء والارتقاء الذين يثبتون قطعياً ان لتلك الحيوانات قوة عاقلة من نوع عقل الانسان ولكنها أقل منه فى الدرجة • وفى الحقيقة اننا لو نظرنا لاعمال الطيور والحيوانات بكافة أنواعها لانصعنا لاقوال هذا الفريق فريق النشوء والارتقاء • قالت جريدة (الستاندرد) بأحد أعدادها الصادر فى سنة ١٩٠٠ م : « ان لبعض أنواع الحيوانات مواقيت معينة تتناول فيها طعامها فاذا جاء ميقات الطعام لاتتقدم عنه لحظة ولا تتأخر • وان العقرب اذا تحققت وقوعها فى خطر الموت قتلت نفسها • وان خيول جند الفرسان لاتخطئ فى تمييز الملابس الخاصة بفرقتها • وان الافيال اذا حمى وطيس الحرب لاتخطئ فى التمييز بين أصحابها وجند العدو • وطيور الزاغ والنسر والباز تفرق بين من كان مسلحاً ببندقيته أو غير مسلح •

ومن أنواع القرود مايستخدم فيمالا يستطيعه غير الانسان : فهى بارعة فى الخدمة على الموائد (سفرجيه) وإشعال النار وفى المطبخ والكنس ومساعدة الفران بالقاء الوقود فى الافران وفى تنظيف الاحذية بالفرشة . وهى تحمل الاحمال الخفيفة كالشيالين وتحفر المازل فلا تؤذن لغريب بالدخول اليها . وتحمل الرسائل فتعمل عمل السعاة وقد تعمل عمل المربيات فى تدبير الاحداث . واذا ذهب القرد الى فراشه أصلح وسادته وتغطى باللحاف »

هذا الذى ذكرته تلك الجريدة وهو فى الحقيقة مشاهد أمامنا على الدوام فضلا عما نراه من البيغاء التى تتكلم كما نتكلم والكلب الذى يخدم الخدمة المنزلية فأنفعه الانسان فماء الخادم الامين حتى فى قضاء المأكولات سواء كانت من اللحوم أو ماشابهها . ذلك ماقضى على كثير من العلماء بالاشتغال فى درس هذا الموضوع زمناً طويلا الى أن وجدوا أخيراً ان أرقى الحيوانات هى الفرس والقرد والكلب والهر والفيل . تلك التى تمتاز عن أصناف جميع الحيوانات بالانعطاف الى الاحياء التى هى أرقى منها كما ننعطف نحن الى المعبودات العليا التى هى أرقى منا . وقد ذكرت جرائد برلين رواية دوى صوتها فى الخافقين ليس لانها حادث جديد بل لانها أعظم برهان يؤيد مذهب النشؤ والارتقاء من جهة عقل الحيوانات التي تأتى أعمالها عن تعقل لا عن سليقة أو غريزة كما ذهب اليه بعض العلماء . ومقتضى تلك الرواية انه يوجد رجل المانى يسمى (هرفون اوستن) مقيم فى شمال برلين تفرغ لدرس طبائع الحيوانات منذ أربعة عشر سنة حتى لاحظ على أحد أفراسه نباهة زائدة فأخذ فى العناية به وتعليمه وتثقيفه على أحدث طرق التعليم المدرسى باوروبا حتى وانه يجيب على كل مسألة تطرح عليه جواباً لاسبيل الى الشك فى انه صادر عن رويه وتفكير . وهو يقرأ الخط ويعرف قيمة النقود والاعداد أو نحوهما . واذا نظر الساعة عرف الوقت تماماً . واذا أريته صورة أحد الاشخاص الذين يعرفهم عرفه حالا

ولكن لا يظهر معرفته بالنطق بل يجاوب على ما يطرح عليه من الاسئلة بتحريك الرأس فان أراد (نعم) حنى رأسه أو أراد (لا) هزه . أما الاسئلة الحسابية فانه يجيب عليها بالنقر على الارض بحافره الايمن واذا أراد تأكيد جواب عما ينوب عنه رفع الصوت عند الآدميين رفس الارض بحافره الايسر رفساً شديداً . والى غير ذلك من التعاليم التى أهلته لمساواة تلاميذ المدرسة الابتدائية ممن بلغ سنهم الثالثة عشر من عمرهم ولذلك سماه صاحبه باسم (حنا النبيه) . قالت مجلة الهلال وقتها : وشاع أمر هذا الفرس فى برلين وتألفت لجنة من علماء الحيوان لمشاهدته وامتحانه على مرآى من المتفرجين الكثيرين رجالا ونساء فتحقق عندهم انه يفعل ذلك عن نباهة وتفكير لا عن سليقة أو عادة . ومن ضمن اسئلة اللجنة المذكورة أنهم سألوه على سبيل المزاح عن عدد الحضور وعن عدد الذين يتقهقرون النظارات منهم وعن السيدة التى على رأسها قبعة خضراء فأجاب أجوبة سديدة حتى اندهش الحضور اندهاشا أداهم لسوء الظن بصاحبه والممتحن فأخرجوهما من مكان اللجنة وامتحنوه فلم يتأخر عن أى إجابة كانت . ومن النكت اللطيفة ان احد الحضور تقدم اليه وأفهمه بانه اذا نظف معلفه بخرقة كافأه على ذلك بزيادة علفه فتلفت حنا المذكور يميناً وشمالا حتى وقع نظره على خرقة بين يدى أحد الحضور فالتقطها بفمه وأسرع الى اسطبله وأخذ ينظف معلفه بتلك الخرقة حتى نظفه تماماً ثم بعد ذلك أعاد الخرقة الى صاحبها الاصلى فاندهش الحضور اندهاشاً عظيما واشتهر امره حتى تسابقت الاغنياء لشراه بالمبالغ الطائلة الى ان وصل ثمنه ٧٥٠٧ جنيهاً ولكن صاحبه أبى بيعه مهما بلغ ثمنه قولاً منه انه لا يطيق فراقه . قال المراسل لجريدة (وورلد وورك الانكليزية) : « وقد يظهر ذلك غريبا ولكننى رأيته بعينى يفعل ذلك . ورأيت فيه نباهة غريبة لتمييز الالوان فوضعوا أمامه أحد عشر لوناً متحاذية وأخذ استاذه يسأله عن كل لون منها وهو يدل عليها بحافره .

وله مهارة غريبة فى آداء الالحان الصفيرية حتى قد يميز بين النغمة وأجزائها »

تلك هى الرواية التى وصلت عنان السماء فأوجدت تغييراً كبيراً فى أفكار عموم العلماء من جهة عقل الحيوانات فانصاعوا للاعتقاد بوجود عقل فيها مناسب لها من نوع عقل الانسان المناسب اليه . وغاية مانلاحظه ان عقل الحيوانات محصور بحصار لايقوى معه على السعة واظهار المدارك مادامت الحيوانات مقيدة باحوالها المعيشية الحالية

﴿ المعيشة الاولى للانسان ﴾

أما معرفة ما كان عليه الانسان من المعيشة الاولى فرغماً عما ذكرناه عن أصله وكيفية وجوده فان بعض العلماء قرروا عدم امكان معرفة عيشته الاولى لانه كان متوحشاً جاهلاً لايعرف قراءة ولا كتابة ولا شيئاً من مستلزمات حفظ تاريخ حياته كما نفعل نحن الآن حتى قال (بلكراف) أحد أولئك العلماء :

« ان أخبار الاوائل سواء كان خرافة أو حقيقة أو تاريخاً أو آداباً فى أوروبا وآسيا وأفريقا وأمريكا فى طيبة أو بلنكة أو غيرهما فانها قد ضاعت وانمحت آثارها الى الأبد »

غير ان كثيراً من أولئك العلماء لم يرجعوا القهقرى بل واصلوا ليلهم بنهارهم سعياً وراء الحصول على ما بباطن الارض من متروكات تلك الامم الغابرة فاستكشفوا الصور والتماثيل والادوات التى كانوا يستخدمونها ثم عانوا المشقات فى فك طلاسمها واستنطاقها واستفتوها عن أمر أولئك الاولين فأفتتهم بشىء لا يشفى غليلاً ولا يغنى فتيلاً الا انهم قرأوا من حالتها ومما على بعضها من الرموز والارصاد والكتابة أنهم كانوا فى بدء خلقتهم على أقبح حالات التوحش وأرذل صنوف الهمجية لايعرفون صناعة بالكلية ولا زراعة الارض ولا رعاية المواشى ولا بناء المساكن بل كانوا يهيمون على وجوههم فى الغابات ويقتاتون مما فى الارض من

الخيرات ومما تيسر لهم من الصيد والقنص . وعلى العموم فانهم ما كانوا يعرفون شيئاً فى ترتيب أحوالهم الداخلية والخارجية سوى انهم كانوا يسكنون الكهوف الجبلية اتقاء لحر الهجير وتحفظاً من قارص الزمهرير الذى كانوا يكافحونه باستعمال جلود الحيوانات التى يفترسونها . وكانوا يعاملون بعضهم بعضاً معاملة لا أساس لها فيما بينهم ولا هى قانون اوحى اليهم أو وضعوه من بنات افكارهم بل كان مثلهم فى ذلك كمثل مابين ايدينا الآن من الحيوانات والحشرات والطيور

تلك الحالة قد لبثوا عليها من بدايتهم حتى بتوالى الازمان وكثرة الاحتكاكات وقابلية العقل للارتقاء اخذوا يتدرجون بحكم الطبيعة فانتقلوا مما هم فيه الى أحسن منه نوعاً حيث استعملوا حرابهم ونصالهم وسكاكينهم وادواتهم المنزلية من الصخور والاحجار حتى مضى عليهم وقت كانوا فيه يقطعون اشجارهم بمناشير من حجر . ويصطادون فريستهم بسهام من حجر . ويهيئون مآكلهم بسكاكين من حجر . ويحاربون اعداءهم بحراب من حجر . وعلى العموم كانت ادواتهم المنزلية كلها من الاحجار الخام ثم تدرجوا بعدها فى الاعتناء بصنعها وصقلها بنسب مختلفة حيث كانت تتفاوت ثقلاً وخفةً وشكلاً واتقاناً فى الصقل واللمعان بحسب ماأوتوه من العناية فى ذلك الوقت . ثم بعد ذلك اخذوا بحكم الطبيعة يزدادون خبرة وعلماً بمعيشتهم فانتقلوا من العصر الحجرى للعصر البرنزى ومنه للعصر الحديدى الذى كانوا فيه على شئ من المدنية والصنائع فاستخدموا الحيوان وزرعوا الارض ورعوا الماشية وهكذا كانوا ينتقلون من دور لدور بل لادوار عديدة سماها العلماء (ادوار الانسان قبل التاريخ) لانهم استنتجوها من الآثار القديمة والاطلال البالية والتماثيل العتيقة التى اندثرت بباطن الارض ولم نعلم ان كان الاوائل قد دثروها عفواً أم قصداً لنستكشفها نحن من بعدهم فنكون على بصيرة من أمرهم ونقف

على تاريخ آبائنا وما كانوا عليه من المعيشة الاولى فى الحياة الدنيا

لغة الانسان

لما ان تكونت الاكوان وخلقت الطيور والحيوانات ألهمها الله ماينا سبها من العقل فصارت تتفاهم تفاهماً مناسباً لذلك الالهام الذى وصل عند بعضها لحد محدود كالطوام والطيور وبعض الحيوانات التى ربما كانت فى الاصل مستعدة لذلك أو كان بها نقص فى تركيبها أو هناك أسباب أخرى لايعلمها الا الله

أما البعض الآخر فعند ماخلقه الله قضت عليه أحوال معيشته بان ينتقل من سكون لحركة ومن حركة لاشارة ومن إشارة لعلامة ومن مجموع ذلك لصوت ومن صوت لنطق حيث من كل ذلك نتجت اللغة الاولى للانسان التى كانت طفلاً رضيعاً ثم وترعرع وبلغ أشده بحكم الطبيعة والتقلبات المعيشية ثم لما ان تناسل الانسان وكثر نسله واتسع نطاق بنيه واختلفت طرق معيشهم بتباعدهم عن بعضهم تفرعت تلك اللغة الى لغات كثيرة حصرها بعضهم فبلغت للآن ٢٧٥٠ لغة فى الكون • ولكن اللاهوتيين يقولون ان ذرية نوح لما ان كثروا وازدحموا خاف القوم وقتها على أنفسهم من طوفان يأتيهم فيغرقهم أجمعين كما أغرق آباءهم الاولين فتمردوا على الله وظنوا انهم قادرون على عصمة أنفسهم من أى طوفان يأتيهم فشادوا لهم حصناً عالياً فى (بابل) ليكونوا به فى مأمن على أنفسهم من الطوفان فعاقبهم الله على ذلك ببلبلة ألسنتهم حيث صاروا لايفهمون كلام بعضهم بعضاً ثم تفرقوا وقتها فى أنحاء الارض وأخذ كل فريق يتكلم بلغة غير لغة الآخر فنتج عن ذلك كثرة اللغات البشرية التى فى الغالب قد مرت على ثلاثة أحوال دورية كما قال بذلك علماء اشتقاق اللغات واليك البيان :

الدور الاول — وهو حالة اللغة المقطعية — بمعنى ان اللغات البشرية كانت مركبة فى الاصل من كلمات ساذجة بسيطة غير ملتحمة ببعضها ولا متصرفة ولا متغيرة الآخر بل كان الانسان ينطق بها دفعة واحدة • وكانت تلك الكلمات اسماء

وأفعالاً فى آن واحد بحيث تدل على معناها بقطع النظر عن كيفية استعمالها والذى يخصص المعنى المراد منها من الفعلية والاسمية انما هو كيفية اتحادها مع غيرها من الكلمات المستعملة فى الجملة الكلامية • وهذه هى حالة أغلب لغات المرتبة الاهلية الصغرى المعبر عنها باللغات التوراتية (أى التتارية ولغات أهل الصين والهند الصينى على العموم ولغات المتوحشين من زنوج أفريقا وأمريكا ولغات البرابره واللغات التركية الاصلية قبل أن تترقى بما اكتسبته من اللغة العربية واللغة الفارسية)

الدور الثانى ــ وهو الحالة الالتحامية ــ أعنى اللغات التى ينضم فيها الى اصل بنية الكلمات الاصلية حروف زوائد للدلالة على اختلاف الاحوال المرادة منها وهى وان كانت متصرفة متغيرة الاواخر أيضاً كاللغات المتصرفة التالية فى الدور الثالث الآتى بعد ولكنها لم تبلغ من حسن الانتظام مابلغه ذلك الدور من درجة الكمال

الدور الثالث ــ وهو الحالة التصريفية ــ أعنى اللغات ذوات التصريف التى تتغير أواخر كلماتها وتتصرف افعالها بما تستلزمه انواع الدلالات المتنوعة حسبما يقتضيه اختلاف انواع الاستعمالات المتفرعة من العدد التى اعنى بها الافراد والتثنية والجمع • ومن الجنس (أى التذكير والتأنيث) • ومن الزمن (أى الماضى والحال والاستقبال) • ومما يتفرع عنه من أحوال الغيبة والتكلم والخطاب وغير ذلك من الاحوال التى يستلزمها المقال • وهذه هى حالة لغات بنى سام ويافث المعبر عنها باللغات السامية أو اللغات الاوروبية الهندية أو اللغات الآرية (وهى لغات سكان بلاد الهند الاقدمين المسميين بالآريين)

ولما ان كان الدور الثالث أعنى اللغات التصريفية هى أكمل اللغات الاخرى فقد توصل علماء اشتقاق اللغات الى تقسيم لغات الدور المذكور لقسمين عظيمين •

أحدهما اللغات السامية والثانى اللغات الآرية ومن هذين القسمين اللغويين تفرعت لغات جميع الامم المتمدنة الشهيرة

اما القسم الاول وهو اللغات السامية فيشتمل على ثمانية لغات كالآتى :

١ ــ اللغة العبرانية وهى التى كان يتكلم بها بنو اسرائيل والفينيقيون بالتحقيق وسائر قبائل الكنعانيين بطريق الظن والتخمين

٢ ــ اللغة الآرامية وهى التى كان يتكلم بها فى سالف الزمان سكان بلاد سوريا (بلاد الشام) ثم تفرع منها خمسة فروع : أولها مايعرف باللغة الآرامية التوراتية وهى التى تألف بها بعض أسفار التوراة فى القرن السادس قبل ميلاد المسيح عليه السلام . ثانيها اللغة الآرامية الترجمية وهى التى كتب بها ترجمة التوراة أى تفاسيرها التى تحررت فى أوائل التاريخ المسيحى . ثالثها اللغة السورية الكلدانية وهى اللغة العامية التى كان يتكلم بها اليهود ببلاد فلسطين بعد فساد لغتهم العبرانية فى وقت ظهور عيسى وكتبوا بها ايضاً تأليفات أحبارهم المسماة باسم (التلمود) . رابعها اللغة القبطية وهى لغة قدماء سكان الشمال الغربى من جزيرة العرب . خامساً اللغة السامرية وهى اللغة التى كانت منتشرة فى الجهات الآهلة بأحد أسباط (أعنى قبائل) بنى اسرائيل القديمة المسمى (سبط افرائيم) بعد أن افتتحها الاشوريون ثم بقيت بعد ذلك بصفة اللغة الادبية عند القوم المعروفين من اليهود بالسامريين الذين هم معتزلة الديانة اليهودية

٣ ــ اللغة السبئية ــ نسبة الى سبأ وهى اللغة المستعملة لغاية الآن عند القوم المتوطنين فى جنوب الفرات وهم وثنيون يتدينون بدين مخصوص من بقايا الجاهلية الاولى

٤ ــ اللغة السورية ــ وهى اللغة التى كان يكتب بها فى (أورفة وانطاكية) ببلاد جزيرة العرب فى القرن الثانى لغاية القرن السادس من تاريخ ميلاد المسيح

٥ ــ اللغة السريانية ــ وهى التى كان يتكلم بها سكان مدينتى (بابل ونينوى)

٦ ـ اللغة الحميرية ـ وهى لغة سكان جنوب جزيرة العرب فى سالف الزمان

٧ ـ اللغة الحبشية ـ وهى التى كانت منتشرة فى بلاد الحبشة وبعض بلاد أفريقا فى سالف الزمان

٨ ـ اللغة العربية ـ وهى لغة قبيلة بنى معد وبنى اسماعيل التى بعد أن نزل بها القرآن الشريف انتشرت انتشاراً كثيراً فى كافة أقطار العالم • هذا وإنه فى تسمية هذه اللغة بالعربية أقوالاً كثيرة أشهرها نسبة الى يعرب بن قحطان الذى هو أبو اليمن • وجاء فى كتاب (موسوعات العلوم) الفرنساوى المطبوع بباريس أن قحطان المذكور هو يقطان بن عابر بن سام المذكور فى التوراة

هذه هى جملة اللغات المعبر عنها بالسامية (نسبة لسام بن نوح عليه السلام) وهناك نوع آخر من اللغات بينه وبين اللغات السامية علائق قرابة وروابط نسب تقضى بتتبعه اليها وهو اللغات الحامية (نسبة لحام بن نوح عليه السلام) حتى ان بعض اللغويين قالوا بوحدة الاصل فى كلا النوعين • وأشهر اللغات الحامية هى اللغة المصرية القديمة (أعنى الهيروجليفية) ولغات بعض قبائل بلاد الحبشة والنوبة وكردفان وجزيرة مداغشقر والامم المتبربرة ببلاد المغرب

أما القسم الثانى وهو اللغات الآرية (أو اليافثية أو الهندية الأوروباوية) فهى كثيرة جداً لا تعد ولا تحصى الا انها محصورة فى ست لغات أصلية :

١ ـ اللغة الهندية ـ وأصلها معروفة باسم السنسكريت أعنى اللغة الالهية أو المقدسة التى كانت مستعملة ببلاد الهند فدونوا بها ديانة (البراهميين) وكتبوا بها كافة علومهم ثم تولد منها جملة لغات تفرعت منها جملة ألسنة كالهندى والهندستانى والبنغالى والجوزرانى والمهراتى والنيبالى وغير ذلك من الألسنة التى لا أهمية لها فى عالم الوجود

٢ ـ اللغة الايرانية ـ وأصلها اللغة الزندية وهى أصل اللغات الفارسية وأشهر

ماتولد منها اللغة الافغانستانية والبيلوتشية والكردية والارمنية

٣ ــ اللغات اليونانية اللاتينية ــ فأما اليونانية فهى لغة بلاد اليونان وماجاورها من الجزائر • أما اللاتينية فهى لغة بلاد ايتاليا القديمة التي منها تفرعت فى مدة القرون المتوسطة معظم اللغات الافرنكية المستعملة الآن ببلاد أوروبا الجنوبية كايتاليا وفرنسا وبروسيا وإسبانيا والبرتغال وبلاد الجرزون وكذلك لغة ولايي الافلان والبغدان المسماة الآن باللغة الرومية

٤ ــ اللغة الليتية الاسلاوية ــ وهى المستعملة فى التعبدات الدينية بكنائس بلاد الروسيا وبلغاريا وسربيا والمجر وبعض بلاد أخرى

٥ ــ اللغة الجرمانية أو اللغة الالمانية ــ وهى على فرعين أحدهما الجوتى أو الغوتى ومنه لغات بلاد الدانيمرك والسويد والنرويج وكذلك اللغة السكسونية التى منها لغات انكلترا والمانيا السفلى • والثانى وهو الفرع الالمانى الاصلى ومنه اللغة الالمانية العليا والنمساوية وغير ذلك

٦ ــ اللغة الساتية ــ ومنها جملة لغات منتشرة قليلا ببلاد الانكليز وبعض بلاد الفرنساويين

هذا ماأمكننا أن نستنتجه فى أصل لغات البشر من التاريخ الكبير للمؤرخ الفرنساوى الشهير فرنسيس لونورمان

﴿ اللغة الاولى للانسان ﴾

للعلماء بحث طويل فى كيفية وضع اللغة الاولى للانسان أعنى بها أمّ اللغات التى تكلم بها آدم أبو البشر حتى اختلف الامر فيما بينهم لان العلماء الذين يبنون أبحاثهم على العقليات والمشاهدات والاختبارات يزعمون ان لغة الانسان فى الاصل لغة وضعية وضعها الانسان بحسب ماأوتيه من القوى العقلية والمزايا المنطقية الخصوصية والاحوال المعيشية المتقلبة التى طرأت عليه • أما اللاهوتيون فينكرون

ذلك كل الانكار ويقولون ان تلك اللغة هى من الاوضاع الالهية وليست من الاوضاع البشرية • ولكننا لو نظرنا لهذين القولين بالفكر القادح والعقل السليم لوجدنا بيت القصيد فى كليهما واحد لان نفس العقل فى الحقيقة اكبر عامل فى حركة الانسان سواء كانت تلك الحركة من جهة لغته أو احواله الخصوصية والعمومية وما العقل فى الاصل الا وضع الهى كثرت فيه الاقوال والظنون وحارت فى كنهه فطاحل الكون

اما اللغة التى كان يتكلم بها الانسان الاول فبعضهم قال انها السريانية لانها لغة بابل التى تبلبلت فيها الالسنة • والبعض قال انها العبرانية لانها لغة التوراة الذى هو أقدم تاريخ فى الكون • وفريق قال انها الكلدانية لانها لغة البقعة التى نشأ فيها الانسان الاول • وهكذا من تلك الاقاويل المبنية على الظن والتخمين حتى ان كل أمة من أمم المشرق قد ادعت بان لغتها أقدم لغات الارض بل أشرفها على الاطلاق ولم تكتف بذلك بل زادت عليه ان لغتها هى اللغة الاولى للانسان • وعلى العموم فاننا بأزاء المضاربات الكثيرة فى هذه المسألة لا نتعدى القول بان تعيين اللغة الاولى التى كان يتكلم بها الانسان الاول أصبح فى حكم المحال كما أصبح كذلك أصل الانسان سواء كانت تلك اللغة قد فقدت واندثرت وأصبحت أثراً بعد عين أو هى لم تزل موجودة ضمن اللغات المنتشرة الآن فى الكون

﴿ عمر الانسان ﴾

أما معرفة عمر الانسان بل تاريخ خلقته فمن الامور التى أصبح تحقيقها من رابع المستحيلات • ولو أردنا أن نقاضى من تسبب فى ذلك لما وجدنا أمامنا سوى اول انسان تناسل منه عموم البشر لان الله خلقه ذا عقل وقلب ولسان وألهمه النطق والفصاحة والبيان فما كان هناك مانع يمنعه من أن يترك لنفسه تاريخاً

يحفظه بنوه وهم من بعده يضاعفونه لمن يتناسل منهم وهكذا كل جيل يسير على مقتضى ذلك مادام أبوهم قد بدأ فيه أولاً حتى اذا ماأتى جيلنا الذى نحن فيه الآن يكون تاريخ آبائنا شمساً منيرة أمامنا وبدراً ساطعاً لايحتاج للنكران بل لايحتاج للخبط والتأويل وكثرة القال والقيل كماوقع فيه أسلافنا وما نحن واقعون فيه الآن . ولكن من يعلمنا أنهم لم يقوموا بذلك خير قيام وخوارق الطبيعة ربما كانت هى السبب فى محو كافة ماتركوه لنا من الآيات البينات

وما مثل تلك الخوارق الا كمثل الطوفان المشهور الذى أغرق الدنيا بأسرها . أوكمثل تبابل الالسن الذى أنسى الحاق لغتهم الاصلية فشتت شملهم وأصبحوا منتشرين فى بقاع الارض يتفاهمون باشارات وهمية استنبطوا منها اللغات العديدة التى ربما تكون مغايرة بالمرة للغتهم الأولى . أو كمثل الريح السموم الذى أهلك الحرث والنسل والمساكن والبيوت فأضاع ماكان مدخراً فى ذلك الوقت من الآثار . أو كمثل ماسخره الله للجيوش الحبشية التى كانت أرادت هدم الكعبة فأرسل الله عليهم طيراً أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل فجعلهم كعصف مأكول الى أن هلك الجيش عن آخره

كل ذلك يقضى علينا أن لانتسرع بنسبة الاهمال لأبى الدنيا وبنيه ونقاضيهم على شئ ربما كانوا قدقاموا به خير قيام فأماتته تلك الخوارق أو مايماثلها مما لو سخره الله لنا الآن لقضى على مابين أيدينا مما نفاخر به الدهر ونناطح به السماء ونحارب به بعضنا حتى الشياطين والجان من عزيز الديار وجليل الاعمال ونفيس الآثار التى تذهب هباء منثوراً فيصبح من سيخلفنا فى هذه الارض واقماً فى الحيرة التى نحن واقعون فيها الآن فيسخط علينا ويسلقنا بألسنة حداد غير عالم بما انتابنا من الخطوب وسخرته لنا الايام كما نسخط نحن الآن على آبائنا الاولين ونسلقهم بألسنة من نار ونحن لانعلم من أمرهم شيئاً يكون

فاذا علمنا ذلك وجب علينا أن نلتمس العذر للأوائل ونتحقق من عدم

إمكان معرفة عمر أول انسان خلقه الله أو بالحرى معرفة تاريخ ميلاده • ولذ درّ (بوذا) صاحب الديانة البوذية ببلاد الهند والصين واليابان وما جاورها من تلك البلاد الوثنية حيث قال : « ان هجرتنا في هذه الحياة الدنيا تبتدئ من الازل لايعرف لها أول بدأت منه ولا أصل نشأت عنه »

صدقت يابوذا فقد ساعدت الحقيقة وأثرت طريقها لمن ضلّ عن الطريق فكابر في مالا فائدة فيه لان أول انسان خلقه الله مجهول بالكلية بحيث لاندري شيئاً عنه ولا نخال ندري بل لانزال نجهل حقيقة هذا الامر الى آخر الدهر • إلا ان ذلك لايمنعنا من البحث فيما اذا كان آدم الذي نوهت عنه الكتب السماوية هو أبونا من عهد أن خلق الله الكون أم هناك غيره وغيره وغيره ثم ماتوا جميعاً دون أن يصلنا من أخبارهم شئ يكون

تلك مسألة خلافية قد شغلت أفكار عموم الفلاسفة على الاطلاق فجعلوها نصب أعينهم واعتنوا بها أكثر من اعتنائهم بأصل الانسان وعمره حتى اتفق معظمهم على أن آدم المذكور ليس أول من خلقهم الله على سطح الارض بل هو من ضمنهم أو آخرهم في بعض الروايات • ومن تأمل فيما أوضحناه أولاً عن عمر الكون وما قيل فيه من الآراء والافكار سواء كانت خرافيةً أو تاريخية أو دينيةً منقولةً عن المصريين أو الصينيين أو العراقيين أو غيرهم من تلك الامم القديمة فان أغلب العلماء قد انحازوا لجهة القائلين بتعداد الخلق قبل آدم المذكور مستندين على ذلك بما ورد بسفر التكوين (التاريخ المقدس) من أن قايين (وهو قابيل الوارد في القرآن الشريف) لما ان استحوذ الشيطان عليه وطوعت له نفسه قتل أخيه وقتله استجوبه الله فأنكر ثم اعترف وطلب العفو أخيراً وفرّ هارباً فحكم الله عليه بالطرد فقال قابيل : « ذنبي أعظم من أن يحتمل • إنك قد طردتني اليوم عن وجه الارض .... فيكون كل من وجدني

يقتلني ... » . ثم بعد ذلك ورد أيضاً بالسفر المذكور مايأتي : « وخرج قايين من أمام الرب فأقام بأرض نود شرقي عدن وعرف قايين امرأته فحملت وولدت » . حيث يؤخذ من ذلك أن قابيل لما أن أقام بتلك الجهة وجد هناك أناساً آخرين فاتخذ له منهم زوجة مع انه من سياق الكلام الوارد بذلك السفر معلوم بان الله لم يخلق أحداً على وجه الارض في ذاك الوقت خلاف آدم وحوّاء وهابيل وقابيل فكيف يتخوّف من أن يقتله أحد وكيف تزوج من الجهة التي فرّ اليها هارباً مع انه لم يكن على وجه الأرض وقتها أحد خلاف من ذكرناهم

هذا فضلاً عن أن الله لما شرع في خلق آدم « قال للملائكة إني جاعل في الارض خليفة » إشارة لانه تعالى سيخلق آدم ويميزه ويختاره خليفة عنه في الارض وسلطاناً عليها وعلى مابها من الكائنات . ذلك الذي وقع لدى الملائكة أسوأ وقوع فأجابوه بقولهم : « أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء » . هذه الاجابة التي بالطبع قد صدرت منهم قبل أن يخلق الله آدم المذكور . تلك التي يؤخذ منها ان الله سبحانه وتعالى سبق فخلق أناساً آخرين ظهر من بينهم الفساد والميل لسفك الدماء على أحد القولين فلما أن شرع الله في خلق آدم هذا أبدت ملائكته مافي أنفسهم من تلك الملحوظات التي سبق ظهورها بين الناس الاولين حيث لو لم يعاينوها في الانسان سابقاً لما حكموا عليه بها قبل أن يخلقه الله . ذكر الشيخ علاء الدين علي البسنوي في كتابه (محاضرة الاوائل) الذي انتهى من تأليفه سنة ٩٩٨ هجرية حيث قال : « ورد في بعض التواريخ انه كان قبل آدم في الارض خلق لهم دم ولحم واستدلوا بقوله تعالى : « أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء » : فلم يقولوا ذلك الا عن معاينة سابقة — ثم قال : ورد ايضاً انهم كانوا خلقاً فبعث الله اليهم نبياً اسمه يوسف فقتلوه — ثم قال

ايضاً العلامة المذكور : وما أحسن ما أجاد وأفاد الشيخ الاكبر في الفتوحات المكية في باب حدوث العالم انه قال : لقد طفت الكعبة شرفها الله تعالى مع قوم لا أعرفهم فأنشدوا بيتين حفظت واحداً منهما ونسيت الآخر . وهاهو البيت المحفوظ :

لقد طفتم كما طفنا سنينا * بهذا البيت طرًّا أجمعونا

فقلت لواحد منهم من أنتم

فقال : نحن من أجدادك الأول

فقلت كم لكم من الزمان والمدة

فقال : بضع واربعون الف سنة

فقلت ليس لآدم قريب من ذلك من السنين

فقال : عن أي آدم تقول : أعن هذا الأقرب اليك أم عن غيره

ففكرت في ذلك ودهشت هنالك فتذكرت حديثاً روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال : « ان الله خلق قبل آدم المعلوم عندنا مائة الف آدم » انتهى . وذكر الشيخ في الفتوحات : « اجتمعت مرة في عالم الارواح مع ادريس عليه السلام وسألته عن صحة ذلك الكشف والخبر في ذلك لان كل كشف لا يعضده خبر صحيح لا يعول عليه عند المحققين . فقال ادريس عليه السلام : صدق الخبر وصدق شهودك ومكاشفتك في ذلك . ونحن معاشر الانبياء آمنا بحدوث العالم وانقطع علمنا عن مبدإ الأعيان والأكوان ـ ثم قال الشيخ ايضا ـ فالتاريخ لبداية العالم مجهول مع حدوث العالم باتفاق الانبياء والمجتهدين خلافاً لبعض الفلاسفة من الاوائل والاواخر فلا يعول على ماذكره بعض جهلة المؤرخين والله واسع عليم بحقيقة الحال »

على ان هذه الافكار اللاهوتية ليست اول افكار قيلت في هذا الموضوع

بل هى مبنية على ابحاث كثيرة سبقتها ثم نتج من مجموعها ابحاث عصرية اخرى قد لاتقل اهمية عن تلك الافكار اللاهوتية • منها ان ابحاث علماء مصر فى ايام الملك (بطليموس فيلادلف) اظهرت ان الانسان كان موجوداً قبل ايام الملك المذكور بمسافة تبلغ (٣٥٠٠٠ سنة) وذلك الملك حكم بمصر قبل الميلاد بنحو قرنين فتكون مدة وجود الانسان قبل الميلاد تبلغ (٣٥٢٠٠ سنه) • وتلك الابحاث قد استنتجوها من الآثار المصرية القديمة حتى ان الجمعية الملوكية العلمية الانكليزية كلفت العالم الانكليزى (هورنر) بدرس الآثار المصرية درساً دقيقاً كى يستخلص منها حساب عمر الانسان من عهد وجوده بأراضى مصر فأخذ يبحث بحثاً علمياً متوالياً حتي اعتمد أخيراً على تاريخ بناء مسلة عين شمس التى علم منها أنها اقيمت على الارض قبل الميلاد بمسافة (٢٣٠٠ سنه) فرفع الاتربة عن ساق تلك المسلة فرآى ان الارض قد ارتفعت عليها بنحو (١١) قدماً انكليزياً أعنى (١٨ و ٣) عقدة فى كل قرن • ثم أخذ يقارن ذلك بأعمق البقايا الانسانية التى وجدت بباطن الارض الى أن استنتج من هذه الابحاث ان عمر الانسان يبلغ (٣٠٠٠٠ سنة) • كذلك وجدت فى اميريكا جمجمة قديمة على بعد شاسع جداً من باطن الارض بحيث لاتستطيع الرواسب المتوالية أن تفصلها عن سطح الارض بهذا السمك الا فى مدة لاتقل عن (١٥٨٤٠٠ سنة) كما حسبها العالم الامريكى (بونيت دولرن) • وغير ذلك من الابحاث التى لاتخرج عن أن أشكال أقدم الامم مابين إسيويه وأفريقيه وأوروباويه وأمريكيه مختلفة فى الجماجم والأنوف والشعور واللون واللغة والعادات اختلافاً يحتاج حدوثه لعشرات الالوف من السنين مادامت الامم كلها مشتقة من أبوين اثنين • ذلك الذى يؤخذ منه أقدمية الانسان وأن آدم الذى نحن بصدده ليس أول من خلقهم الله بل هو من ضمنهم أو آخرهم فى الغالب • ولما أن كان

تاريخ الاوائل مظلماً كما يتضح مما ذكرناه من تضارب الاقوال واختلاف الابحاث فلا فائدة لنا من السعي وراء معرفة أحد من أجدادنا الاول بل يلزمنا أن نكتفي بمعرفة تاريخ الانسان من عهد آدم المذكور الذي أقرت كافة العلماء على انه أبو البشر معتمدين في ذلك على ما بين أيدينا من أقدم التواريخ المشتملة على مواليد ووفيات البشر وعلى مدد ولايات وأعمار بعض الانبياء والملوك وغيرهم من رؤساء الاسرات ومشاهير الرجال من عهد آدم وحواء . ولو أن العلماء الذين بحثوا في ذلك قد ذهبوا مذاهب شتى الا أن أقربها للحقيقة بالاجماع هو مذهب المؤرخ الفرنساوي فرنسيس لونورمان حيث من بحثه ومن بحث بعض معضديه الذين بعد ان قضوا فيه خمسة عشر سنة اتضح لديهم ان ميلاد آدم المعلوم لنا الآن كان يوم ١٣ نوفمبر سنة ٤٠٠٤ قبل ميلاد المسيح . ولو اضفنا لذلك المدة التي تبتدئ من ميلاد المسيح وتنتهي لسنة ١٩٠٦ م لكان عمر الانسان من عهد ان خلقه الله لغاية تلك السنة هو ٥٩١٠ سنه ميلادية على الارجح

الفصل الثالث

آدم أبو البشر عليه السلام

لقد تركنا الخبط والخلط في ما ذكرناه قبل هذا وجئنا الآن نلتمس شيئاً عن اول انسان معلوم لنا وهو آدم الذي علمنا من اقصى ما وصل اليه البحث أن الله خلقه يوم ١٣ نوفمبر سنة ٤٠٠٤ قبل ميلاد المسيح اعني سنة ٤٥٧٨ قبل الهجرة ثم بعد ذلك اراد الله له راحة سرمدية مقرونة بالسعادة والرفاهية فأعد له جنة حوت كل ما تشتهيه الانفس وتلذ الاعين . وبعد ان اسكنه فيها امر فاستعرض امامه كافة الحيوانات والطيور التي خلقها من كل زوجين اثنين . ولما رأى الله ان آدم في الجنة وحيد ليس له من نوعه انيس ولا جليس اراد ان يجعل له سكناً من نفسه فخلق له زوجاً من جنسه سماه (حواء) كي تشاركه

الحياة وتشاطره ماهو فيه من نعيم الجنة التى صارت مسكناً لهما يمرحان فيها طولاً وعرضاً ويشربان منها هنيئاً ويأكلان مريئاً الامن شجرة حرمها الله عليهما خشية ان يصيبهما بسببها مايصيبهما من التعاسة والشقاء حيث امرهما بقوله : «ياآدم اسكن انت وزوجك الجنة وكلا منها رغداً حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين» . لذلك حسدهما الشيطان على ماهما فيه من تلك النعمة الكبرى فاحتاط بهما إحاطة الهالة بالقمر والا كمام بالثمر ووسوس في آذانهما آناء الليل وأطراف النهار بأن زين لهما الاكل من تلك الشجرة المحرمة حيث زادهما غروراً بقوله لهما : « هى شجرة الخلد وملك لايبلى وما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة الا ان تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين . وقاسمهما أنى لكما لمن الناصحين»

ولما ان كان الانسان بالطبع أميل للشر أكثر منه الى الخير استسلم آدم وحواء لوسوسة الشيطان فوقعا فى الخطيئة حيث سولت لهما نفسهما أن يأكلا من تلك الشجرة سعياً وراء ذلك الملك المزعوم وذلك الخلد الموهوم . فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوآتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة فقال الله لهما « ألم أنهكما عن تلكما الشجرة . قالا : ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين » . فقال لهما وللشيطان : « اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الارض مستقر ومتاع الى حين : فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون » . كذلك قضى على آدم أن يأكل خبزه بعرق جبينه وعلى الاخرى بمشقات الحمل والولادة فضلاً عن خضوعها لأوامر الاول ونواهيه . الأمر الذى من عهده صارت الرجال قوامين على النساء . وبهذا الترتيب قد تسجل الشقاء على آدم وحواء وذريتهما تسجيلاً أبدياً حيث كان أول شقاء عانياه وكابداه بعد غضب الله عليهما ماحل بهما من التفريق الذى كان نصيب آدم منه أن تواجد على جبل الراهون الموجود بجزيرة سرنديب ببلاد الهند ونصيب

حواء أن تواجدت فى جدة ببلاد العرب كما أشار الى ذلك المسعودى فى مروج الذهب • ذلك التفريق الذى قضى على آدم أن يتعب ويشقى فى السعى وراء البحث عن حواء حتى بعد العناء الشديد تلاقى معها على جبل ببلاد العرب فتعارفا هناك ومن ثم أطلق على ذاك الجبل اسم (عرفات) ثم بعد ذلك عاشا مع بعضهما عيشة الزوج مع زوجته فرزقهما الله كثيراً من البنين والبنات بعد ان عاش الاول تسعمائة وثلاثين سنة غير اننا لا نعلم شيئاً الا عن ثلاثة من أولاده الذين أولهم (قابيل) المسمى فى القرآن الشريف باسم هابيل الذى اتخذ الزراعة لنفسه حرفةً • والثانى هابيل الذى اشتغل برعاية المواشى • والثالث شيث الذى هو أحدثهم سناً

قابيل وهابيل

أما قابيل فكان رجلاً خبيث النية سيء الضمير حتى ان الله تعالى لم يتقبل منه قربانه بل تقبل قربان أخيه هابيل لانه كان حسن النية صافى السريرة • ذلك ماجعل الاول يحقد على الثانى فنظر اليه نظر الحسد والغيرة والسوء ثم أضمر له الشر الذى أخذ يتضاعف فى نفسه حتى تمكن منه تمكناً لم ير له منه مناصاً سوى ان اختلى به فى الحقل يوماً من الايام وتوعده بالقتل فجاوبه هابيل بما يشف عن الطيبة المتناهية ومكارم الاخلاق العالية حيث قال له :

« لئن بسطت الىّ يدك لتقتلنى ما أنا بباسط يدى لأقتلك إنى أخاف الله رب العالمين » • ولكن الله قد أعمى قلب قابيل عما بتلك الاجابة من الحكم الباهرة والتواضع الظاهر فاستحوذ الشيطان عليه فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله • ولما ان رآه قتيلاً بين يديه اندهش اندهاشاً عظيماً وحار فى أمره حيث لم يدر كيف يوارى سوأة أخيه لانه لم يتعود ذلك الذى لم يره على الاطلاق فبعث الله له غراباً ليريه كيف يواريها حيث أخذ ينبش فى الارض أمامه حتى فهم

وقام على عجز فواراها فى التراب وهو يستغرب ويخاطب نفسه بقوله :
« ياويلتى أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأوارى سوأة أخى » . الا أنه بعد ذلك أخذ يلوم نفسه ويوبخ ضميره شأن الانسان عند مايأتى أمراً إدّاً خصوصاً اذا كان لذلك الامر علاقة بأحد من ذوى قرباه أو من أبناء جلدته والطامة الكبرى اذا كان شقيقاً له كقابيل وهابيل الذى أصبح كأنه ما كان حيث لم يعقب ذرية ولم نعلم عن عمره شيئاً يكون . الا ان قابيل على مايظهر قد اعتبر نفسه أول انسان فى الكون دنس الانسانية بهذه الرواية التى شخصت الرذيلة أمامه بكافة معانيها فلم ير له بدّاً الا ان ينصاع لما قضى الله به عليه من أن يترك أسرته ووطنه ويهاجر بمفرده لارض نود شرقى عدن . تلك التي جعلها مسكناً له وتزوج فيها باحدى بناتها فرزقهما الله ولداً اسمه (حنوك) وهذا ولد ولداً اسمه (عيراد) وهذا أعقب ولداً اسمه (محويائيل) وهذا ولد ولداً اسمه (متوشائيل) وهذا أعقب ولداً اسمه (لامك) وهو أول من فتح باب تعداد الزوجية حيث اتخذ لنفسه زوجتين إحداهما اسمها (عادة) والأخرى اسمها (صلة) فرزقه الله من الاولى بولدين يسميان (يابال . ويوبال) ومن الثانية بولدين أحدهما ذكر اسمه (توبال قايين) والآخر انثى اسمها (نعمة) على ان هؤلاء فقط هم المعلومون من ذرية قابيل ولا بد أن يكونوا جميعاً قد أعقبوا ذراري آخرين انتشروا بتلك الارض ولم يفدنا أحد عنهم بشئ غير ان الله سبحانه وتعالى على مايظهر قد وهب الانسان فى ذلك الوقت هباته العقلية والبدنية فمال للاجتماعات البشرية وإنشاء الشركات وكل ما يعود عليه بالسعادة والرفاهية . ذلك لانه من التواريخ القديمة وتفاسيرها يتضح ان أسرة قابيل المذكورة هى التي ينتسب اليها أولية بناء المدن واختراع الفنون والصنائع لانه مثبوت أن قابيل كان يبنى بتلك الارض التي استوطن فيها مدينة سماها باسم أول مولود

أناها وقتها وهو (حنـوك) ثم ان (يوبال) كان مولعاً بضرب العود والمزمار حتى اشتهر بأنه أبو الملحنين المغنيين • وأن أخاه من أبيه المدعو (توبال قاين) هو مخترع فنّ سبك المعادن وصناعتها فضلاً عن أن صناعة غزل صوف المواشي ونسيج الاقمشة ينسبان الى (نعمة) اختهما

شيث عليه السلام

أما شيث فقد كان شبيهاً لأبيه تماماً وكان رجلاً صالحاً تقياً قال له أبوه آدم وأحبه حباً شديداً حتى انه قبل وفاته أوصى له من بعده وحذّره من أخيه قابيل وذريته فقام بالوصية خير قيام حتى خصه الله مع ذريته بالفضيلة والمناقب الجميلة • وقد عاش شيث تسعمائة واثنى عشر سنة بعد أن أعقب بنين وبنات أكبرهم اسمه (أنوش) • وعاش أنوش تسعمائة وخمسة سنين وأكبر أولاده اسمه (قينان) وعاش قينان تسعمائة وعشرة سنين وأكبر أولاده اسمه (مهالئيل) • وعاش مهالئيل ثمانمائة وخمسة وتسعين سنة وأكبر أولاده اسمه (يارد) • وعاش يارد تسعمائة واثنين وستين سنة وأكبر أولاده اسمه (اخنوخ) • وعاش اخنوخ ثلاثمائة وخمسة وستين سنة قضاها على سطح الارض فى التقوى والصلاح والتمسك بالله على الدوام الى ان اختاره الله فاصطفاه ورفعه الى السماء بعد تلك المدة التى رزقه الله فى بحرها بجملة أولاد أكبرهم اسمه (متوشالخ) • وقد قيل انه اول من خط بالقلم ونظر فى علم النجوم والحساب واول من خاط الثياب ولبسها حيث كانوا قبلا يلبسون جلود الحيوانات • وكذلك هو اول من اتخذ السلاح وحارب به الاعداء • وقد ورد بتاريخ (ابو الفدا اسماعيل) ان أخنوخ هذا هو ادريس عليه السلام الذى نحن نعلم عنه ان الله رفعه مكاناً علياً

أما ابنه متوشالخ فهو أطول الجميع عمراً حيث عاش تسعمائة وتسعة وستين سنة واكبر أولاده اسمه (لامك • أو فى بعض الروايات اسمه لامخ • وهو

خلاف لامك المتسلسل من ذراري قابيل البادي ذكره) • وعاش لامك سبعمائة سبعة وسبعين سنة وأعقب ولداً اسمه (نوح) • وعاش نوح تسعمائة وخمسين سنة وأعقب كثيراً من الذرية أشهرهم سام وحام ويافث حيث من هؤلاء تشعبت كافة الامم على سطح الارض بعد الطوفان كما سيأتي الشرح والبيان

نوح عليه السلام

لقد ذكرنا خلاصة مايلزم أن يقال عن آدم وبنيه المعلومين غير مفرطين الا في مالايستحق الذكر لان اكثر المؤرخين كابن الاثير وأبي الفداء وفرنسيس لونورمان وغيرهم قد تشعبت آراءهم في ذلك تشعباً أدّى لزيادة الخلط وكثرة الخبط في مالا فائدة فيه سوى ما يعود على الانسان من تشويش الافكار وتشتيت الاذهان • وغاية مانلاحظه أن ذراري آدم وبنيه لغاية نوح كانوا قد انتشروا على سطح الارض انتشار الجراد فقضى ذلك عليهم باختلاف المشارب والاخلاق والعادات فتباينت طرق معيشتهم • ذلك الذي استلزم ان تتلاشى الفضيلة وتتضاعف الرذيلة — شأن الانسان عند مايأخذ في أسباب العمران — حتى انتشر الفساد فيما بينهم انتشاراً عمّ الصغير قبل الكبير فأراد سبحانه وتعالى أن يخفف عنهم ما احتاطهم من البغي والطغيان فاختار من بينهم رجلاً اسمه نوح عليه السلام كان محافظاً دونهم على التقوى والاستقامة والصلاح فأرسله إليهم كي يهديهم سواء السبيل حيث أخذ يثني القوم عما هم فيه مبيناً لهم الطريق المستقيم برقيق كلامه ولطيف عظاته وحسن أسلوبه الا أنه ويا للاسف كان كأنه يصرخ في واد وهم في واد • ومع كل فما كان ذلك ليثني عزمه عما هو قائم به من تبليغ دعوته بل كان يداوم على تحذيرهم من بأس الله ونقمته في الدنيا والآخرة الى ان بلغت وقاحتهم أن يبطشوا به ويعذبوه بما كان في بعض الاحيان يؤدي لفقدان شعوره ووجدانه

على انه من حسن مكارمه وطيب سريرته ما كان يقابل الاساءة بمثلها عقب

أن يفوق من ذهوله بل كان يذكرهم دائماً على لسانه بالخير ويطلب لهم من الله التوبة والغفران كأنه نسى أو تناسي ماألحقه من الأذى وتلك المعاملات القاسية الوحشية . ولكنه لما أن طال عليه المطال ورأى ان القوم قد استفحل أمرهم وزاد طغيانهم وانتشر فسادهم فلم ير له بداً من أن يرفع أمره لله سبحانه وتعالى حيث طلب منه أن يهديهم أو يصبره على ماهو فيه من البلاء العظيم فجاوبه الله بما جعله ييأس من هدايتهم وصلاح شأنهم الا انه انتظر قليلاً مؤملا من الله ان يرشده لما فيه الخير والفلاح

﴿ الطوفان ﴾

ولما انتظر نوح ولم ير له مخرجاً ولا صبراً على تلك المعاملات القاسية استفزته الحالة فناجى الله قائلا : « ربّ لاتذر على الارض من الكافرين ديارا إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا الا فاجراً كفاراً » . فتقبل الله دعوته في الحال وأوحى اليه : « ان اصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون »

فصار نوح من ذلك الوقت يهيئ اللازم لصنع الفلك من خشب وحديد ومسامير كما أوحى اليه ثم أخذ يشتغل فيه على مرأى من قومه الذين كانوا يستهزئون به ويسخرون من عمله ويعايرونه لكونه أصبح نجاراً بعد أن كان نبياً كريماً الا انه كان يهزأ بأفكارهم هذه وما كان يزيدهم عن قوله : « ان تسخروا منا فانا نسخر منكم كما تسخرون فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه » . وهكذا استمروا في معاكسته بسخريتهم واستهزائهم الى أن انتهى من صنع السفينة التي كان طولها ثلاثمائة ذراع وعرضها خمسين ذراعاً وارتفاعها ثلاثين ذراعاً فقال الله له : « احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك الا من سبق عليه القول ومن آمن » . فأدخل فيها كل ماأمره الله به وفيهم من عشيرته الرجال والنساء

والاولاد . ثم بعد ذلك أنزل الله من السماء مطراً مدراراً كان هو الطوفان المشهور . قال تعالى : « ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر . وفجرنا الارض عيوناً فالتقى الماء على أمر قد قدر . وحملناه على ذات ألواح ودسر . تجرى بأعيننا جزاء لمن كان كفر »

وفى أوائل هذا الحادث العظيم كان أحد أبناء نوح فى معزل عنه فخاف عليه فناداه ودعاه ليركب معه فى السفينة فاستخفّ إبنه بذلك حيث قال له : « سآوى الى جبل يعصمنى من الماء » . الا أن أباه أخذ ينهاه عن ذلك ويستميله لدعوته قائلاً له : « لاعاصم اليوم من أمر الله » . ولكن يظهر انه تردد فى تلبية دعوة أبيه وتهاون بل كاد الى ان حال بينهما الموج فكان من المغرقين . ثم بعد ذلك مكث نوح ومن معه بالسفينة وذلك المطر يتساقط عليهم أربعين يوماً بلياليها حتى فاضت المياه فعمت سطح الارض وغطت كافة الجبال الشاخات وعلتها خمسة عشر ذراعاً فأماتت الحرث والنسل من نبات وطير وحيوان حتى لم يبق على وجه الارض وقتها سوى تلك السفينة ومن فيها حيث كانت تجرى بهم فى موج كالجبال

هكذا لبثت الامطار تتساقط من افواه السماء تساقطاً هائلاً الى أن قضى الله بدنوّ أجلها فأمرها بقوله تعالى : « ياأرض ابلعى ماءك وياسماء أقلعى » حيث بذلك امتنع المطر بعد أن مكث تلك الايام والليالى وصارت المياه طامية على سائر سطح الارض مدة مائة وخمسين يوماً ثم أخذت تتناقص شيئاً فشيئاً حتى فى الشهر السابع من بدء الطوفان « غيض الماء وقضى الامر واستوت — السفينة — على الجودىّ » المعروف بجبل أرارات ببلاد الارمن . وفى الشهر العاشر ظهرت رؤوس الجبال ثم فى اوائل الشهر الثانى عشر فتح نوح كوة السفينة وبعث غراباً ليكشف له جفاف الارض فانطلق من بين يديه وصعد ولم يعد اليه فأرسل حمامة فعادت بدون شئ فانتظر اسبوعاً وأرسلها مرة ثانية فعادت وبفمها ورقة

زيتون ثم انتظر اسبوعاً آخر وأرسلها مرة ثالثة فلم تعد ترجع اليه فتحقق من وقتها ان المياه قد انقشعت عن سطح الارض ويمكن ان يخرج اليها ويستولى عليها • حينذاك أوحى اليه من قبل الله تعالى بالخروج من الفلك هو وعشيرته ودواب الارض وطيور السماء فخرجوا منها جميعاً بعد ان مضى عليهم فيها سنة كاملة بالتمام

﴿ جبل أرارت ﴾

هذا وقد اختلف العلماء والمفسرون فى تعيين الجبل الذى رست عليه تلك السفينة حيث فريق يقول انه جبل موجود ببلاد (تركستان) كان اسمه (أراراته) عند سالف القبائل اليافثية الاولى واسمه (ميرو) عند أهل الهند واسمه (جبل البرج) عند الفرس وهو جبل الربوة الالبية نسبة الى جبال ألبه المسماة باسم (يامير) فى ولاية بخارى الصغرى (أى بلاد تركستان) • ذلك الذى يؤخذ منه ان السفينة رست على الجبل المذكور الموجود بجوار بلاد الصين بالجهة الشرقية من بلاد آسيا • قال اصحاب هذا الرأى ان النازحين من جهة بلاد الصين وماجاورها فى غابر الازمان هم الذين أطلقوا اسم أرارات على الجبل الموجود ببلاد الارمن كما وافق على ذلك المؤرخ الشهير فرنسيس لونورمان حيث قال ماملخصه : « أما سابقة الظن بكون الجبل الذى رست عليه السفينة هو جبل أرارات الموجود ببلاد الارمن فما ذلك الا لداعى ان القبائل الذين هاجروا من بلاد تركستان الى تلك الأوطان فى سالف الأزمان أطلقوا على بعض الاماكن من أوطانهم الجديدة أسماء بعض أوطانهم القديمة كما هى العادة المعهودة »

أما الفريق الآخر فهو الذى يقول ويثبت ان السفينة رست على جبل ارارات الموجود ببلاد الارمن ليس الا كما قال بذلك ويكتور دروى • وأبو الفدا اسماعيل • وكما قال الزمخشرى فى الكشاف « الجودى جبل بالموصل » • وقال

المولى أبو السعود فى تفسيره : « الجودى هو جبل بالموصل أو بالشام أو بآمد » . وكما ورد فى اتقان السيوطى : « الجودى جبل بالجزيرة » . ولما ان كان من المحقق أن كل تلك الجهات موجودة فى الجهة الغربية من بلاد آسيا فالطبع يكون مرسى السفينة هو جبل ارارات الموجود الآن ببلاد الارمن

﴿ التبلبل ﴾

لما انتهى الطوفان واستولى نوح وعشيرته على الارض وعليما فيها من الخيرات قام نوح فقرّب لله تعالى قرباناً شكراً له على ما أولاهم من النجاة مدة ذلك الطوفان فبارك الله له ولذريته الذين تناسل منهم عموم البشر كما قال تعالى : « وجعلنا ذريتهم هم الباقين » . ثم قنن لهم بعض القوانين البسيطة فساروا على مقتضاها وأخذوا بعد ذلك يحرثون ويزرعون ويحصدون ويتاجرون فتنقلوا من حالة لحالات عديدة وتوسعوا فى معيشتهم بل تفننوا فى طرقها فأفرطوا فيها افراطاً — شأن الانسان عند ما يترقى من درجة لاخرى — حتى كان ذلك سبباً لأكبر ضرر حاق بهم من جهة النقص الزائد الذى حصل اخيراً فى سنى حياتهم حيث كان متوسط الاعمار البشرية فى أوقاتهم لا ينيف عن متوسط أعمارنا فى هذا العصر مع أن متوسط الأعمار فى عصر آبائهم الاولين كان يعدّ بالقرون العديدة كما يتضح ذلك مما أوضحناه أولاً من عهد آدم ونوح . الامر الذى تواجد بسبب ذلك الافراط خصوصاً عند ما كثر نسلهم ضاقت بهم الارض ذرعاً فتواعتوا كبيراً وعاثوا فى الارض فساداً وطغوا وتجبروا وحادوا عن سواء السبيل . ولما ان فشى بينهم الكبر والعجب بأنفسهم غرّهم جمعهم فكفروا بنعمة الله اذ ظنوا — وبعض الظن إثم — انهم قادرون على عصمة انفسهم من أى طوفان يأتى بعد ذلك الطوفان فشادوا لهم مدينة وحصناً عالياً اخترق بعلوّه الفضاء فكاد يناطح السماء ولكن الله غضب عليهم فجازاهم على كفرهم ببابلة ألسنتهم فصاروا لا يفهمون كلام بعضهم بعضاً ولذلك سميت تلك المدينة باسم (بابل)

ولما حل بجمعهم ماحل ونزل عليهم مانزل اضطروا للتفرق فى البلدان حيث تشتتوا فيها زرافات ووحداناً وكل فريق منهم أوجد لنفسه لهجةً تكلم بها وقتها • ومن ثم تولدت فى أقطار العالم كافة اللغات المتنوعة والالسن المتفرعة التي رتبها العلماء كما اتضح ذلك لنا مما أوردناه سابقاً عن لغة الانسان • وقد بحث علماء التاريخ فى كيفية التفرق الذى حصل عقب ذلك التبلبل فأوجدوا فى البحث خلطاً كبيراً وخبطاً كثيراً لاضرورة للتوسع فيه الآن غير ان أقصى مايصل اليه الانسان بعد المباحثات ومعاناة المشقات لايخرج عن أن القوم — قوم نوح — لما أن تبلبلت ألسنتهم وتفرقوا وقتها كانوا منقسمين الى ثلاثة عشائر :

فالعشيرة الاولى وهى العشيرة السامية نسبة الى أبيهم سام بن نوح كان نصيبها بعد التفرّق أن تشتت بأقاليم آسيا

والعشيرة الثانية وهى العشيرة الحامية نسبة الى أبيهم حام بن نوح كان نصيبها بعد التفرق ان تشتتت فى بعض بلاد آسيا واخيراً استوطنت اقاليم أفريقا

والعشيرة الثالثة وهى العشيرة اليافثية نسبة الى يافث بن نوح كان نصيبها بعد التفرق أن تشتتت بأقاليم أوروبا

الفصل الرابع

العشيرة السامية

هذه هى العشيرة التي عمها الله ببركته وآلائه فأسعدها وأكرم مثواها بما خصها به من الطاعة والهداية والميل لفعل الخير دون الشرّ • ذلك الذى جعل تلك العشيرة من سالف الازمان ممتازة عن العشيرتين الاخيرتين فأخرج الله منها العلماء الصالحين والانبياء والمرسلين الذين بلغونا الشرائع السماوية من بادئ الأمر فأصبحت من جهة خير قدوة لمن آمنوا بها فاهتدوا بهدايتها ومن جهة أخرى صارت أحسن انموذج تحلت به النواميس الارضية التى أوجدها الانسان فى سالف

الزمان والموجودة بين ظهرانينا الآن • تلك العشيرة التى كان أبوها سام بن نوح الذى عاش ستمائة سنة ومات بعد أن ولد بنين وبنات لم يكن معلوم منهم الا الخمسة الأولاد المذكورين بعد :

١ ــ عيلام ــ وهو أبو القوم المدعون بالعيلاميين الاقدمين الذين كانت مساكنهم ببلاد سوزيان وهى المسماة بلاد خوارزم الآن

٢ ــ أشور ــ وهو الذى اختط مدن (نينوى • وكالاش • وريزانة التى هى مدينة رأس العين ببلاد الجزيرة) • وعلى العموم فانه أبو السريانيين أولى الدولة القوية والصولة الشديدة • أولئك الذين كانت لغتهم سبباً لمعرفة تواريخ بعض الامم القديمة التى كانت قاطنة بجنوب بلاد آسيا

٣ ــ أرفكشاد ــ وهو أبو العرب واليهود لانه ولد ولداً اسمه شالح وشالح ولد عابر وعابر ولد ولدين أحدهما اسمه فالج والآخر اسمه يقطان

ويقطان هذا هو أبو القبائل التى تكونت منها أمم عرب الجاهلية الاولى وبعض المؤرخين يقولون انه هو قحطان صاحب بلاد اليمن وأبو يعرب المنسوبة اليه تلك القبائل العربية • أما فالج فقد تناسل منه كثير من الذرية التى كان من ضمنها ابراهيم صاحب الشريعة اليهودية الذى كان من ضمن أولاده ولداً اسمه اسماعيل هاجر به لمكة فتزوج بأميرة من أميرات العرب كانت بنتاً لسيد قبيلة جرهم فأولدها اسماعيل اثنى عشر ولداً اختلطوا هم وذريتهم بقبائل العرب المذكورة فسادوا عليها وصارت لهم الغلبة عليهم حتى تناسل منهم محمد صاحب الشريعة الاسلامية عليه الصلاة والسلام

٤ ــ لود ــ وهو أبو الليديين الذين توطنوا أخيراً غرب بلاد الارمن

٥ ــ أرام ــ وهو أبو عوص وحول وجاثر وماش الذين تناسل منهم الآراميون أعنى بهم قدماء أهل الشام الذين كانوا متوطنين مابين الفرات

والبحر الابيض المتوسط ثم قطن أخيراً قليل منهم فى الجهة الغربية من بلاد الجزيرة

﴿ هود عليه السلام ﴾

هؤلاء هم أولادسام بن نوح الذين تكوّنت منهم العشيرة السامية وصار لكل منهم عصبية مخصوصة بل دولة قائمة بنفسها لها تاريخ طويل عريض لو ردت التكلم عنه حتى بمنتهى الاختصار لاحتاج الامر للوقت الطويل والتعب الكثير . ذلك الذى ليس فى طاقتى أن أتحمله بالنسبة لما أنا فيه من المشغوليات الخصوصية

غير ان الاهم فى الموضوع هو تاريخ الأمة التى تناسلت من أرفكشاد البادى ذكره الذى لما ان تناسلت وكثرت أولاده اختلطوا جميعاً بأولاد حام ويافث ثم انتشروا بذراريهم انتشاراً زائداً فى آسيا الصغرى وبحيث جزيرة العرب الى أن قضى ذلك بفساد أخلاقهم فاختلّ الأمن وكثرت المنازعات والمخاصمات وصاروا فوضى لايعرفون الله ولا شيئاً من التشريع الذى تركه لهم جدّهم نوح عليه السلام حيث اتخذوا من دون الله آلهة فعبدوا الاوثان والاصنام الا ان الله أرسل اليهم رجلاً صالحاً يقال له (هود) كى يصلح ما اعوجّ من أمرهم فلم ينصاع قومه لنصحه ولا لارشاده فأرسل الله لهم ريحاً سموماً أبادهم عن آخرهم

﴿ صالح عليه السلام ﴾

ولما مضى الوقت وهم لم يزالوا فى طغيانهم يعمهون وفى كفرهم يزدادون أرسل الله لهم صالحاً ليصلح شأنهم فقوبل بمثل ماقوبل به هود فأهلك الله قومه الا من آمن به فقد نجاهم أجمعين

﴿ ابراهيم ولوط عليهما السلام ﴾

ولكن ماحلّ بالقوم لم يمنع غيرهم مما هم فيه من الفساد حتى أيام نمروذ أحد ملوك الكلدانيين (العراقيين) حيث كانت الاباطيل والترهات فاشية وقتها خصوصاً التنجيم الذي عمّ الصغير والكبير حتى وأن المنجمين أذاعوا وأشاعوا بأنه سيولد مولود فى أيام ذلك الملك فينازعه فى داخلية البلاد ويزاحمه السلطة على العباد ويكون لهما مع بعضهما فى مستقبل الايام شأن عظيم . ذلك الذى قضى على الملك أن يأمر وقتها بذبح كل مولود يولد فى مملكته حتى قام القوم وقتها بذلك الأمر فمزقوا شعار الانسانية بذبحهم كثيراً من الاولاد افتراء وظلماً وعدواناً .

وكان وقتها هناك رجل يدعى (تارح) وفى بعض التواريخ وأقوال المفسرين كان يدعى أيضاً (آزر) من ذرارى سام بن نوح فرزقه الله بمولود سماه (ابراهيم) واتخذ الحيطة خوفاً عليه من الذبح بأن كتم أمر ولادته ثم ساربه خفيةً واسكنه فى غار هناك حيث رباه فيه الى ان شبّ وترعرع وصار فى مأمن من تلك الأيدى الظالمه فأخرجه أبوه من الغار بعد أن أحاطه علماً بما هنالك

ومن حسن حظ ابراهيم عليه السلام ان الله وهبه عقلاً وفطنة من إبان نشأته فهداه النجدين وأنار له السبيلين حتى وانه أخذ يفكر فى طريق الهداية والسعادة كما يفكر الفيلسوف العظيم والاستاذ الحكيم . وكان أول ماخالج فكره هو السعى وراء معرفة صانع هذا الكون فنظر للاصنام أولاً فنبذها ظهرياً حيث لاتضر ولاتغنى من جوع . ثم تأمل لحركة هذا الكون تأمل الباحث المجتهد الى أن جنّ عليه الليل ورأى كوكباً منيراً أمامه قال : « هذا ربى » . ولكنه بعد قليل لما أن غاب عنه وأفل من أمامه عرض عن قوله الاول وقال « لا أحب الآفلين » . ثم عقب ذلك رأى القمر بازغاً فظنه ربه فلما أن باله الى أن غاب أيضاً فنبذه ظهرياً وصار عنه من المعرضين . ثم رأى الشمس بازغة فقال : « هذا ربى هذا أكبر . فلما أفلت قال ياقوم إنى برئ

مما تشركون • إني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والارض حنيفاً وما أنامن المشركين » • ومن هذا الوقت عرض عن الاصنام وأنكرها من بين قومه حيث عدّ عبادتها ضلالاً في ضلال • ثم فاتح أباه في ذلك وقال له : « أتتخذ أصناماً آلهة إني أراك وقومك في ضلال مبين » • وتصادف وقت ذلك أن نمروذ قد استفحل أمره وازداد طغيانه وتمرد قومه خصوصاً قد غلوا غلوّاً كبيراً في عبادة الاوثان فأرسل الله لهم ابراهيم الذي قال لابيه وقومه : « ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون • قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين • قال : لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين • قالوا : أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين • قال بل ربكم رب السماوات والارض الذي فطرهنّ وأنا على ذلكم من الشاهدين »

ثم بعد ذلك انفضوا من حوله وتركوه غير مكترثين ولا ملتفتين لما في كلامه من الحكم الفائقة والآيات الناطقة بل ازدادوا تمسكاً بما هم فيه الى ان أعيته الحيل فتوعد أصنامهم بسوء حيث قال لهم : « تالله لأكيدنّ أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين » • الا أن القوم وقتها ما كان يدور بخلدهم أن ابراهيم يتجرّأ على ذلك حتى وانهم في أحد أعيادهم كانوا قد تركوا أصنامهم بمفردها فيمم نحوها ابراهيم فوجد الطعام ملقى بين يديها وهي كالخشب المسندة ليس فيها شئ من الحراك فخاطبها مستهزئاً بقوله : « ألا تأكلون » • ولكنه لم ير منها الا صمتا وسكوناً كأن على رؤوسها الطير فقال لها : « مالكم لا تنطقون فراغ عليهم ضرباً باليمين • فجعلهم جذاذاً الا كبيراً لهم لعلهم اليه يرجعون » • ثم بعد ذلك أخذ الآلة التي استعملها في تحطيم الاصنام وعلقها في عنق ذلك الصنم الكبير الذي أبقى عليه إشارة لانه هو السبب لما حلّ بتلك الاصنام • وأخيراً تركها وتوجه لحال سبيله فأتى القوم بعده فرأوا الحالة على ما هي عليه من التحطيم والتكسير ففضبوا غضباً شديداً وأخذوا يستفهمون ويتجسسون على من فعل هذا بآلهتهم فقيل لهم انه ابراهيم فأتوا به امام ملكهم نمروذ وشرعوا في محاكمته

قائلين له : « أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا ابراهيم . قال بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم ان كانوا ينطقون » . فأفهموه أنهم على بينة من عدم نطق تلك الاصنام وفقط يريدون أن يستدلوا على من فعل بآلهتهم هذا الفعل الشنيع كى يعاقبوه العقاب الشديد . فغضب عليهم ابراهيم غضباً شديداً ووبخهم على ماهم فيه من الغفلة بسبب عبادة ماليس فيه عقل ولا فهم ولا ضر ولا نفع قائلاً لهم : « أفتعبدون من دون الله مالا ينفعكم شيئاً ولا يضركم . أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون » . فاجوه فى ذلك وبكتوه بما يؤخذ منه انهم يعبدون شيئاً مرئياً أما هو فلا يعبد الا خيالاً تصويرياً . فأورى لهم أن معبوده هو الله الذى يحيى ويميت . فقال له نمروذ إنى أحيى وأميت حيث أخرج امامه مسجوناً من سجنه فقتله وأخرج آخر فعفى عنه وأخلى سبيله . قال ابراهيم : « إن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب » . فبهتوا جميعاً الا انهم اعتبروا ماأتاه ابراهيم بأصنامهم فعلاً منكراً يستحق عليه العقاب الشديد . لذلك تشاوروا فى مابينهم وأجمعوا أخيراً على أن يقتلوه حرقاً بالنار . ولاجل ذلك جمعوا الوقود من حطب وأخشاب وأضرموا فيها النيران فعلا لهيبها وتطاير شررها وازداد وميضها وقوى سعيرها ثم أخذوا ابراهيم أخذ عزيز مقتدر وألقوه فيها وكان الله قد ناداها قائلاً : « يانار كونى برداً وسلاماً على ابراهيم » . وما كان أقل من لمح البصر حتى خرج منها ابراهيم سالماً حيث لم تمسسه تلك النيران بسوء . فاستغرب القوم هذا الامر واستعظموه فآمن به الكثير ونصروه وعززوه ثم أخذهم أخيراً مع مايمتلك من الخيرات الكثيرة وصار يتنقل بهم من جهة لاخرى متجهاً نحو الجنوب ناشراً دعوته قصد هداية الناس والايمان بالله الواحد الاحد الى أن اعترضهم القحط وقتها فهجم عليهم بجيوشه الجرارة وكان معه لوط ابن أخيه هاران فنزحوا الى البلاد المصرية التى كان ملكها فى ذلك الوقت هو الفرعون (طوطيس بن ماليا) أحد ملوك الهيكسوس

وكان لابراهيم زوجة بديعة الجمال رشيقة القدّ والاعتدال تدعى (سارة) فسمع بها فرعون فأرسل واستقدمها اليه وأراد الاستحواذ عليها فحال بينهما الله حيث حفظها منه بأن ردها فرعون الى ابراهيم بالثانى بعد أن زوّدها بالنعم الكثيرة والخيرات العظيمة ووهبها جارية اسمها (هاجر) لتكون فى خدمتها على الدوام • ثم قام من مصر هو وهارون بن أخيه وأتباعهما ويمموا جميعاً نحو أرض كنعان التي هى أرض الميعاد أو الارض المقدسة المشهورة باسم فلسطين

ولما تكاثرت ذرية كل من ابراهيم ولوط عليهما السلام وانتشروا فى أرض كنعان بما حملوا وامتلكوا ضاقت بهم الارض ذرعاً فكثر النزاع بين العشيرتين ــ شأن الازدحام الذى تتأتى عنه المشاغبات والمخاصمات والمنازعات وكل مايراه الانسان من الفساد ــ حتي انتهى الامر بهم للاختصام الا أنهم حسموا المسألة ودّياً بانفصال كلّ بما يمتلك عن الآخر • فقطن لوط بعشيرته وممتلكاته فى الجهة الشرقية من بلاد كنعان التى كان أهلها أهل سوء وفساد حتى كانوا يأتون الذكران من العالمين ويذرون ماخلق الله لهم من نسائهم اللاتى قاسين وقتها ماقاسين من العذاب الاليم • فأرسل الله لهم لوطاً فوعظ فيهم بالخير ونهاهم عن الشرّ فلم ينتهوا الى أن تضاعف وعظم ما كانوا فيه من الطغيان خصوصاً وانهم قد ازدادوا شراهة فى تلك الفاحشة التى ماسبقهم بها أحد من العالمين • اولئك الذين كانوا يبلغون أربعمائة ألف نسمة تقريباً يسكنون تلك الجهة التى هى عبارة عن خمس مدائن أشهرها (سدوم • وعموره • وقرية أخرى مكانها اليوم مدينة نابلس) فلما ازدادوا طغياناً وازداد سخط الله عليهم أمطرهم الله حجارة من سجيل فدمرت تلك القرى وجعلت عاليها سافلها وأهلك من فيها الا لوطاً وبعضاً من أهله حيث أنجاهم الله أجمعين

أما ابراهيم فكان قد قطن بعشيرته وممتلكاته الكثيرة فى الجهة الغربية من

بلاد كنعان ولم يرزقه الله بذرية حتي دخل فى عشرة الثمانين وكذلك كانت زوجته سارة مسنة أيضاً فخافت عليه أن يموت بهذه الحالة فوهبت له جاريتها هاجر عله يأتي منها بولد يخلد له ذكره بعد الممات • فناجى الله بعد ذلك وتمنى منه أن يرزقه بولد يرثه فى بيته وماله خشية أن يموت عقيماً فيرثه (اليعازر الدمشقى) الذى ائتمنه فاختاره وكيلاً عنه فى كافة أشغاله الداخلية فسمع الله نجواه وبلغه ماتمناه حيث حملت منه هاجر ووضعت له ولداً سماه (اسماعيل) نسبة الى السمع لان الله سمع نداءه فأعطاه ماتمناه • فلما رأت سارة ماأتته هاجر لحقتها الغيرة النسائية وتمكنت منها الاحزان الشديدة فبشرها الله باسحاق ومن اسحاق يعقوب فقالت : « ياويلتى أألد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخاً إن هذا لشئ عجيب •• — فقيل لها — أتعجبين من أمر الله رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت انه حميد مجيد » • لذلك قضى الله بتحقيق تلك البشرى فحملت ووضعت مولوداً سمته (اسحاق) فعمل له والده مهرجاناً عظيماً وكان عمره وقت ذلك مائة سنة بالتمام

ولما كبر اسماعيل واسحاق كانا يتنازعان ويتخاصمان على الدوام فضلاً عن هاجر التي أنزلت سيدتها سارة منزلةً أقلّ من منزلتها الاولى بكثير • ذلك ماأثار غضب سارة التى حملت زوجها على طردها مع انها قائلة : لاتسا كنني هاجر وابنها فى بلد واحد • فأوحى الله لابراهيم أن يهاجر لمكة فسار بهما الى أن وصل مكة وأسكنهما فى نقطة هناك لازرع فيها ولا ماء • وقبل أن يتركهما وصى الله عليهما قائلاً : « ربّ إنى أسكنت من ذرّيتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم • ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى اليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون » • وودعهما بعد ذلك وفارقهما فانتهى ماء الشرب الذى معهما فظمآ ظمأ شديداً فى تلك الجهة القاحلة • وكان اسماعيل

صغيراً فتركته أمه تحت ظلّ احدى الاشجار يصرخ وهى تبكى وتنوح ولا ثالث بينهما سوى الله سبحانه وتعالى الذى أنبع الماء كرامة لهما من عين هناك يقال لها (عين زمزم) وبارك فيه مباركة زائدة ألفتت اليه أنظار قبيلة جرهم التى كانت بواد غير بعيد من مكة وكان سيدها وقت ذلك يدعى (مضاض بن عمرو) فتحولت تلك القبيلة لمكة واستوطنت فيها بعد أن استسمحت هاجر فى البقاء معها بمكة بدلاً من وحدتها فيها مع ابنها اسماعيل الذى لما أن ماتت والدته وحان وقت زواجه تزوج بنت مضاض سيد تلك القبيلة وأولدها اثنى عشر ولداً

وكان ابراهيم من عهد أن فارق اسماعيل وهاجر يتردد عليهما دواماً الى أن أتى مرة فعرض على اسماعيل ان يقيما بيتاً هناك يعبدون الله فيه فأطاعه ابنه وقاما مع بعضهما يشتغلان فى ذلك البيت حتى أتماه فقال ابراهيم لاسماعيل : « أذّن فى الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق » فقام اسماعيل بما أمر خير قيام الى أن استمال ماحواليه من تلك القبائل فتغلب وساد عليها هو وأولاده الاثنى عشر الذين تناسلت منهم الامة العربية المشهورة التى منها صاحب الشريعة الاسلامية (محمد) بن عبد الله بن عبد المطلب صلى الله عليه وسلم

أما سارة زوجة ابراهيم فبعد أن تمتعت بتربية ابنها اسحاق توفاها الله عن مائة وسبعة وعشرين سنة ودفنت بمدفن ابراهيم الذى أعده لنفسه بأرض كنعان بمدينة حبرون الموجودة بجوار القدس والمشهورة باسم (مدينة الخليل) نسبة لابراهيم عليه السلام . فتزوج بعدها ابراهيم باحدى بنات الكنعانيين وأولدها أولاداً كثيرين ثم أماته الله بعد أن بلغ من العمر مائة وخمساً وسبعين سنة ودفن فى مدفنه المعلوم بعد أن ترك لابنه اسحاق كافة مايمتلك

من عقار ودواب ومال وأوصى له من بعده فأرسله الله لهداية القوم فى ذلك الحين

﴿ اسحاق عليه السلام ﴾

وكان ابراهيم قبل وفاته شرع فى زواج ابنه اسحاق فبعث اليعازر امين بيته الى مابين النهرين - أعنى الاراضى المحصورة بين نهرى الدجلة والفرات - حيث كانت موطناً لابيه وعشيرته ووائقه على ان ينتخب احدى بناتهم زوجة لابنه اسحاق • فلما قصدها اليعازر ووصل (حاران) إحدى بلاد تلك الاراضى وقع اختياره على (رفقا بنت بتويل بن ناحور أخى ابراهيم) حيث كانت أجمل فتيات قومها فخطبها اليعازر من والدها لاسحاق بن عم أبيها فقبل ثم امنت هى على هذا القبول فشيعها أبوها الى كنعان فتلقاها اسحاق خارج المدينة واستلمها وأدخلها خباء والدته سارة حيث عاشا مع بعضهما عيشة الزوجين وسنه اذ ذاك حول الاربعين • ثم رزقه الله منها بولدين توأمين وهما (عيص • ويعقوب المدعو اسرائيل الذى معناه بالسريانية مقاتل الله)

﴿ عيص ويعقوب ويوسف عليهم السلام ﴾

وتصادف ان الاول كان محبوباً عند أبيه اسحاق والثاني محبوباً عند أمه رفقا • ذلك الذى كان سبباً لوقوع الغيرة والحسد والبغض بينهما من إبان نشأتهما الى أن صارا رجلين كاملين فتطلع يعقوب لبكورية أخيه التى يريد أن ينتحلها لنفسه فاحتال عليه كثيراً حتى تنازل له عن البكورية ليرث أباه ويخلفه بعد مماته - ويظهر ان المقصود هنا بالبكورية هو ولاية العهد أو الخلافة - • ولما شاخ اسحاق وصار بصره كفيفاً واستشعر بقرب الأجل دعى ابنه المحبوب عنده وهو عيص وطلب منه أن يصنع له طعاماً من صيده ليدعو له ويباركه كما دعى له أبوه وباركه فى ماله وأولاده فانشرح لذلك عيص وانطلق للخلاء مستصحباً

معه عدّة الصيد والقنص الا ان والدتهما لما سمعت بذلك أسرعت فأسرّته لابنها يعقوب الذى أتى لها بجديين من الماعز فهيأت منهما الطعام ثم أدخله يعقوب لابيه بعد أن ألبس عليه الامر وأفهمه بأنه عيص فدخلت عليه الحيلة حيث كان كفيف البصر فأكل مريئاً وشرب هنيئاً ودعى له أخيراً وباركه ثم انصرف يعقوب فأتى عيص فعلم بمكر أخيه وانكشفت الحقيقة لوالدهما الا انه باركه أيضاً ولكن عيص سخط على أخيه يعقوب لانه سلب منه البكورية كرهاً ثم سبقه فى البركة زوراً فأضمر له الشرّ فى نفسه حيث عزم على أن يقتله غيلة الا أن والدتهما لما أحست بذلك أشارت على يعقوب بالسفر الى عشيرة آبائه فى حاران • وفعلاً سافر ونزل هناك على خاله (لابان) فمكث فى خدمته أربعة عشر سنة كانت مهراً لزواجه بابنتيه (لياـ وراحيل) وكلتاهما وهبت جارية من عندها ليعقوب الذى تسرّى بهما ومكث بعد تلك المدة ستة سنين أخرى أعقب فى بحرها من تلك النساء اثنى عشر ولداً وهم : رأوبين • وشمعون • ولاوى • ويهوذا • ودان • ونفتالى • وجاد • وأشير • ويساكر • وزبولون • ويوسف • وبنيامين • اولئك هم الذين صاروا أصول القبائل الاثنى عشر المعبر عنهم بالاسباط الذين تناسل منهم بنو اسرائيل فكثر نسلهم وتزايد خيرهم زيادة كثيرة كانت سبباً لتضاعف عبيدهم وخدمهم وتوابعهم فعزم يعقوب على العودة لاخيه بأرض كنعان أملاً فى ان يصفح عنه أخوه عيص • لذلك جمع عشيرته وبارح حاران ثم ارسل رسولاً لاخيه اخبره بمجئ يعقوب وعشيرته وكافة ما يمتلكه فقام عيص فى الحال واستصحب معه اربعمائة نفراً من عشيرته وخرج بهم جميعاً فتلاقيا الاخوان خارج المدينة وتعانقا ببعضهما وبكيا بكاء مراً من حرارة ما حلّ بهما من الفرح والسرور • ثم بعد ذلك تعاشرا فى أرض واحدة حتى قضى الله على ابيهما اسحاق بالوفاة وهو بالغ من العمر مائة وثمانين سنة ودفناه فى مدفن

جدهما ابراهيم الموجود فى حبرون . وكان عيص قد تزوج بنت عمه اسماعيل التى تدعى (بسمة) واولدها هى وغيرها أولاداً كثيرين عاشوا فى خيراته الى ان توفاه الله ولم نعلم عنه شيئاً يستحق الذكر اكثر مما أوضحناه

اما يعقوب فاقتفى اثر أبيه وأخيه خصوصاً فيما كان يوحيه اليه الله مما فيه هداية الناس . وكان ابنه يوسف أصغر أولاده وذو خلقة جميلة وصفات جليلة حسن البزّة طيب السيرة صافى السريرة فأحبه أبوه حباً شديداً كان سبباً لحسد اخوته وغيرتهم منه . ذلك الذى استكنّ بقلوبهم حتى عند مابلغ يوسف من العمر اثنى عشر سنة رآى فى منامه رؤيا فجاء أباه وقصها عليه قائلاً : « ياأبت إنى رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين » . فلما سمع منه ذلك خاف عليه من حسد الحاسدين خصوصاً من حسد إخوته اليه فجاوبه قائلاً : « يابنىّ لاتقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيداً إن الشيطان للانسان عدوّ مبين . وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث ويتمّ نعمته عليك وعلى آل يعقوب كما أتمها على أبويك من قبل ابراهيم واسحاق إن ربك عليم حكيم »

فخرج يوسف من أمام أبيه وقد غشيه ماغشيه من الفرح والسرور الذى أنساه ماوصاه به أبوه ففرط فى تلك الرؤيا فعلم بها اخوته الآخرون قبل مجيئهم من خارج المدينة حيث كانوا يرعون الماشية . فأخذوا يفكرون فى تلك الرؤيا ويؤوّلونها حتى اجمعوا أخيراً على ان الشمس عبارة عن أبيهم والقمر عبارة عن أمهم والكواكب عبارة عن أنفسهم وعلى هذا الترتيب سيسجدون له كمنطوق تلك الرؤيا فيصبحون عبيداً بين يديه فيتسلطن عليهم أجمعين . ذلك ماجعلهم يتقدون غيرة وحسداً ويتآمرون عليه فى السر والعلانية الى أن اتفقوا على التفريق بينه وبين أبيهم « اذ قالوا ليوسف وأخوه أحب الى أبينا منا ونحن

عصبة إن أبانا لفى ضلال مبين ٠ اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً يخل لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوماً صالحين ٠ قال قائل منهم لا تقتلوا يوسف وألقوه فى غيابة الجب يلتقطه بعض السيارة إن كنتم فاعلين »

وكان يعقوب يخاف على يوسف خوفه على نفسه من فرط حبه اليه حتى وأنه من غلو ه فى ذلك ما كان يأتمن إخوته عليه عند ما يريدون أن يأخذوه معهم لرعاية الماشية خارج المدينة الا انهم لما تآمروا على يوسف واتفقوا على ما اتفقوا دخلوا بدهائهم ومكرهم على أبيهم يعقوب واحتاطوا به ووسوسوا فى آذانه على بنياهم مرغوبهم وزادوه بقولهم : « يا أبانا مالك لا تأمنا على يوسف وإنا له لناصحون ٠ أرسله معنا غداً يرتع ويلعب وإنا له لحافظون ٠ قال إنى ليحزننى ان تذهبوا به وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون . قالوا لئن أكله الذئب ونحن عصبة إنا إذاً لخاسرون »

وكان يوسف وقت ذلك قد شب وترعرع فتساهل يعقوب فى المحافظة عليه تساهلاً أداه لاجابة طلب أولاده حيث صرح ليوسف بالخروج معهم فخرجوا به وهم يتظاهرون باكرامه والمحافظة عليه حتى بعد ان ابتعدوا عن المدينة شرعوا فى اظهار ما كانوا يضمرون مبتدئين أولاً بضربه وتعذيبه ثم اتفق أغلبهم على قتله وهو بين أيديهم لا يدرى له ذنباً أتاه ولا اثما اقترفه فى دنياه حتى يستحق من إخوته ذلك العذاب الاليم ٠ الا ان الله هيأله احد إخوته المدعو يهوذا حيث عارضهم فى قتله لانه كان واثقهم فى بادئ المؤامرة على ان لا يقتلوه فعدلوا عما اتفقوا واكتفوا بأن نزعوا عنه قميصه الذى كان لابسه وأوثقوه كتافاً ومالوا على بئر قديمة هناك فألقوه فيه الا انه كان بالصدفة خالياً من الماء ومن كل شئ مخيف ٠ ثم بعد ذلك جاؤوا على قميصه بدم كذب حيث ذبحوا جدياً من الماعز ولوثوا بدمائه ذلك القميص واستصحبوه معهم للعودة به لابيهم فى المدينة الا انه

فى أثناء ذلك مايشعرون الا وقد جاءت سيارة اسماعيلية فأرسلوا واردهم يأتيهم بالماء من ذلك البئر فأدلى دلوه فتعلق به يوسف وخرج معه فرآه صاحب الدلو فابشر من جماله الفائق فانطلق به مسرورا لاصحابه الذين فرحوا به فرحاً زائداً فأسرّوه وبضاعة عساهم ينالون بالاتجار به ربحاً عظيماً . الا ان يهوذا أخاه لما لاحظ ذلك قال لاخوته مافائدتنا من أن نترك أخانا بهذه الصفة والذى أراه وأستحسنه أن نتطلق لاولئك الاسماعيليين ونبيعه اليهم فوافقوه على ذلك وقصدوهم جميعاً وأوروا لهم ان الذى انتشلوه من البئر هو عبد هارب منهم . وأخيراً اتفقوا على بيعه اليهم فشروه منهم بثمن بخس دراهم معدودة لاتزيد عن عشرين فضة حيث كانوا فى بيعه من الزاهدين . ثم بعد ذلك عادوا للمدينة « وجاؤوا أباهم عشاء يبكون . قالوا ياأبانا إنا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب وماأنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين » . فاندهش أبوهم من هذا النبأ اندهاشاً عظيماً جعله يمزّق ثيابه وينوح عليه ويبكيه بكاء مراً آناء الليل واطراف النهار . ويظهر انه كان مستشعراً بهذا العمل الفظيع فاجهم فى تبليغهم ولما لم يرله بداً من الاستسلام للصبر قال لهم : « بل سوّلت لكم أنفسكم امراً فصبر جميل »

أما رجال تلك القافلة الاسماعيلية فبعد ان اشتروا يوسف من اخوته بذلك الثمن البخس وانطلقوا به فرحين مستبشرين بجماله وحسن خلقته واعتدال قوامه حتى وصلوا به مصر باعوه لعزيزها المسمى (فوطيفار) الذى كان وقتها أكبر رئيس فى الدولة المصرية ولم يرزقه الله بأحد من الاولاد . الامر الذى جعله يعتنى بيوسف اعتناء زائداً حتى انه وصى امرأته عليه توصية شديدة فقال لها : « أكرمى مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً » . وقد بارك الله فى بيت العزيز فازدادت نعمه وكثرت خيراته من عهد أن اشترى يوسف حيث كان

سبباً قوياً لمحبته محبةً أفضت لتصميمه على توكيله عنه فى بيته وماله حتى عند مابلغ رشده سلمه زمام أموره الداخلية فتضاعفت النعم والخيرات على يديه مضاعفةً لم يسبق لها مثيل

على أن حبّ العزيز فضلاً عن كونه كان حباً شريفاً فانه لم يكن شيئاً مذكوراً في جانب ما استكنّ بفؤاد راعيل امرأته من غرامها وهيامها بيوسف الذى لما أن شغفها حباً أخذت فى الاحتيال عليه بشباك جمالها وصنوف دلالها وسهام لحاظها كى تقتنصه فتقضى منه وتراً بهيمياً الا ان ذلك لم يجدها نفعاً فذهب تعبها أدراج الرياح حيث أعرض عنها وكان فى مادعته اليه من الزاهدين الى ان اختلت به يوماً من الايام « وراودته عن نفسه وغلقت الابواب وقالت هيت لك • قال معاذ الله إنه ربى أحسن مثواى انه لايفلح الظالمون • ولقد همت به وهمّ بها لولا أن رآى برهان ربه » فامتنع عنها وأراد الهرب حياء من الفضيحة وتخلصاً من الرذيلة

ويظهر انها كانت قابضة بيديها على ثيابه وهى تبكى بين يديه بكاء الثكلى شاكية له ماانتابها من حبه الذى استرعى فؤادها واغتال لبها وامتلك قلبها ولكنّ ذلك لم يرق فى عينيه فذهب تعبها سدى فأفضى الأمر بينهما لان تغالبا وتشاددا فتجاريا وراء بعضهما الى أن « استبقا الباب وقدّت قميصه من دبر وألفيا سيدها لدى الباب » • فابتدرته بما يفيد أن يوسف لما رآها بمفردها أراد بها سوءاً وزادته بقولها : « ماجزاء من أراد بأهلك سوءاً الا ان يسجن أو عذاب أليم » • ذلك الذى اندهش منه العزيز اندهاشاً زائداً وأخذ فى مباشرة التحقيق بنفسه الا ان يوسف أورى انها راودته عن نفسه وأكرهته على هذا المنكر فأبى واستعصم أما هى فادعت أن يوسف أراد بها سوءاً كان سيلحقها لولا أن خل عليهما العزيز • ذلك الذى أوجد ارتباكاً فى المسألة

فاحتاج الأمر للتحكيم بينهما فأناط ذلك بأحد أقاربها الذى قيل فى بعض الروايات انه ابن عمها حيث بعد أن تفكر فى المسألة طويلاً قال : « إن كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين . وإن كان قميصه قدّ من دبر فكذبت وهو من الصادقين »

ولما أن كان القميص قدّ من دبر نظراً لكونه لما رأى برهان ربه وامتنع عنها قام هارباً يريد الباب الا انه كلما كان يهم بذلك ويجرى من بين يديها هى تنهض وراءه وتقبض على مؤخر ثيابه حتى بالصدفة تعلقت بقميصه أثناء اهتمامه بالخروج فقدّته من الخلف فثبت لديهم أنها هى الجانية وهو البرىء الا أن العزيز أراد أن يتساهل معهما تساهلاً يحفظ كرامته ولا يجعل عرضه مضغة فى الافواه فعطف على يوسف وقال له : « يوسف أعرض عن هذا » ولا تذكره على لسانك مادمت حياً . ثم نظر لامرأته وقال لها : « إنه من كيدكنّ إن كيدكنّ عظيم . إستغفرى لذنبك إنك كنت من الخاطئين » . وعلى هذا انتهى الامر وانفضّ الاشكال الا ان الاحتراس الذى أتاه العزيز لم يجد نفعاً حيث أن هذه المسألة مالبثت ان تناقلتها الألسنة فصارت حديث القوم بل حديث النساء فى بيوتهنّ ومجتمعاتهنّ على الخصوص حتى قال بعض نسوة المدينة إن « امراة العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حباً انا لنراها فى ضلال مبين . فلما سمعت بمكرهنّ أرسلت اليهنّ واعتدت لهنّ متكأً » يجلسن عليه ثم وضعت أمامهنّ فاكهة وأعطت كل واحدة منهنّ سكيناً وأوعزت ليوسف أن يخرج عليهنّ أثناء الأكل فأطاع الأمر وخرج « فلما رأينه أكبرنه وقطعن ايديهنّ وقلنّ حاش لله ماهذا بشراً إن هذا الاملك كريم » . فنظرت اليهنّ امرأة العزيز وهى منشرحة الصدر مسرورة القلب والفؤاد وقالت لهنّ . « فذلكنّ الذى لمتننى فيه ولقد راودته عن نفسه فاستعصم »

وقد قيل بأن امرأة العزيز كانت جميلة الصورة حديثة السن متحققة من علوّ منزلتها لدى زوجها فلم تكترث بما اقترفته أولاً بل عاودت يوسف وألحت عليه مراراً كثيرة عساه يلين اليها فيشفي غليلها ويطفئ لهيبها غير انه ازداد تمنعاً وكان عنها من المعرضين . فتوعدته بالسوء وهددته بقولها « لئن لم تفعل ما آمرك به لتسجنن ولتكونن من الصاغرين » . ولكن يوسف تمادى في الاعراض عنها وأورى لها أن السجن أحبّ اليه مما تدعوه فضاق في وجهها الفضاء وانقطع منها الرجاء فعمدت للايقاع به لدى العزيز إيقاعاً غير خاطره وأثار غضبه حتى ألقى يوسف في السجن وهو من المظلومين

وقد كان ملك مصر في ذلك الوقت (آبوفيس) المشهور في التواريخ العربية باسم (الريان بن الوليد) وهو من العمالقة المشهورين باطيكسوس . ويظهر ان الأمة المصرية قد تألبت عليه وقت ذلك فتآمرت على قتله فتبالغ اليه ان رئيس شرابه ورئيس طعامه هما من ضمن المتآمرين فزجهما في السجن فاجتمعا بيوسف فلقياه على صلاح عظيم وذكاء مفرط ونباهة زائدة . وتصادف أن كلاهما رأى رؤيا في منامه « فقال أحدهما ليوسف إني أراني أعصر خمراً وقال الآخر إني أراني أحمل فوق رأسي خبزاً يأكل الطير منه نبئنا بتأويله إنا نراك من المحسنين — فقال لهما — أما أحدكما فيسقي ربه خمراً وأما الآخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه » وزادهما بأن ذلك سيحصل بعد ثلاثة أيام حيث تحقق التعبير بعد الأيام المذكورة بأن صلب الملك رئيس طعامه وعفى عن رئيس شرابه واعاده كما كان

وكان يوسف عقب التعبير تطلب من الذي ظنّ أنه ناجٍ منهما أن يذكره عند ربه فيكون سبباً للعفو عنه في مستقبل الأيام الا ان الشيطان أنساه ذلك فلبث في السجن بضع سنين الى ان رأى فرعون مصر في منامه رؤيا هائلة أزعجته وشغلته فاستجمع كهنة الدولة والعرافين في ذلك الوقت وعرض عليهم رؤياه فحاروا فيها حيرة عظيمة حتى انهم لما عجزوا عن التفسير « قالوا أضغاث أحلام

وما من بتأويل الاحلام بعالمين » . فتذكر رئيس شرابه ما حصل بينه وبين يوسف فى السجن فأخبر عنه فرعون الذى أمره بمقابلته فانطلق اليه يسعى وقال له : « يوسف أيها الصديق أفتنا فى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر واخر يابسات — فأفتاه يوسف بقوله — تزرعون سبع سنين دأبا فما حصدتم فذروه فى سنبله الا قليلاً مما تأكلون . ثم يأتى من بعد ذلك سبع شداد يأكلن ماقدمتم لهن الا قليلاً مما تحصنون . ثم يأتى من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون » . فلما سمع رئيس شراب الملك هذا التعبير عاد للملك وأخبره به حيث وقع لديه موقع القبول فأرسل يستقدمه اليه فأبى وقال للرسول : « ارجع الى ربك فاسأله مابال النسوة اللاتى قطعن أيديهن إن بى بكيدهن عليم » . فعاد الرسول وأخبره بذلك بعد أن قص عليه حكاية النسوة التى قطعن أيديهن افتتاناً بجماله فأمر الملك باحضارهن امامه فحضرن فقال لهن : « ماخطبكن اذ راودتن يوسف عن نفسه . قلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء » غير ان امرأة العزيز أخبرتنا أنها راودته عن نفسه فأبى واستعصم وكان للعفة والشرف الحافظ الأمين . فأتى بامرأة العزيز واستجوبها فقالت : « الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وانه لمن الصادقين » فتحقق الملك من براءة يوسف فأخرجه فوراً من السجن وعمره وقت ذلك ثلاثون سنة . ولما حضر بين يديه قال له : « إنك اليوم لدينا مكين أمين » . ثم أخذا يتحادثان فى أمر القحط الذى أشارت اليه تلك الرؤيا وما يلزم من الاحتياطات حتى أخيراً تشاور مع كبار دولته على ان يولى يوسف خزائن بلاده نظراً لما آنسه فيه من التقوى والصلاح والآراء العالية والافكار السديدة التى لو سارت عليها الدولة لأمنت شر القحط المنتظر . فقر القرار أخيراً على ماراه الملك وجاؤا بيوسف واحتفلوا به احتفالاً عظيماً حيث ألبسه فرعون

مصر خاتم الملك وجعله أميناً على مصر وحافظاً لخزائنها ومديراً لماليتها ثم زوجه الملك فتاة تدعى (أسنات) وهى بنت (فوطى فارع) الذى كان أكبر رئيس دينى فى مملكته فقام يوسف بما نيط به خير قيام الى أن هجم عليهم القحط بجيوشه الجرارة فدبر شؤون الرعية تدبيراً جعلهم أسعد حالاً وأهنأ عيشة من غيرهم الموجودين بكافة الاقطار

وكان القحط قد سرى فى البلاد حتى عمّ بلاد كنعان التى يقطنها الاسرائيليون مع أبيهم يعقوب حيث لما علموا بما فى مصر من الخيرات الكثيرة أعطى يعقوب مالاً لعشرة من أولاده وأرسلهم اليها ليبتاعوا قمحاً دون أن يكون معهم ولد الحادى عشر المسمى بنيامين شقيق يوسف الصديق . ولما وصلوا مصر وتمثلوا بين يدى يوسف الصديق تأملهم فعرفهم وهم له جاهلون فعاملهم معاملة قاسية ثم نسبهم للجاسوسية وخيانة الدولة فارتبكوا فى أمرهم ولم يعلموا كيف يدافعون عن أنفسهم الا بذكر حالهم حيث أخبروه بأنهم كانوا اثنى عشر ولداً لرجل من بلاد الشام فقضى الله على أحدهم بالهلاك وكان أحبهم لأبيهم والثانى موجود ببلادهم وهو أصغرهم سناً وأحبهم الآن لوالدهم وما جاؤوا مصر الا ليمتاروا طعاماً لهم ولعشيرتهم . ذلك الذى علم منه يوسف أن أباه لم يزل على قيد الحياة وأن أخاهم الذى ببلادهم هو شقيقه بنيامين فضغط على نفسه ولم يظهر لهم شيئاً من التأثير الذى كان متمكناً منه وقت ذلك بل داوم على معاملته الأولى فأودعهم السجن ثلاثة أيام ثم أحضرهم وتطلب منهم أن يأتوه بأخيهم بنيامين قائلاً لهم : « إن لم تأتونى به فلا كيل لكم عندى ولا تقربون . قالوا سنراود عنه أبانا وإنا لفاعلون » . قال اجعلوا أحدكم عندى رهينة تضمن لى ماتقولون فتركوا عنده أحدهم ثم جهزهم يوسف بجهازهم « وقال لفتيانه اجعلوا بضاعتهم فى رحالهم لعلهم يعرفونها اذا انقلبوا الى أهلهم لعلهم يرجعون » . ثم بعد ذلك انطلقوا الى أهلهم يتذكرون مالاقوه وقاسوه حتى دخلوا على أبيهم يعقوب

فأخبروه بما لاقوه في مصر من الخيرات الكثيرة والاكرام الزائد من لدن عزيز مصر الذي ارتهن أحدهم ليعودوا اليه بأخيهم بنيامين فيجذل عظامهم ويضاعف ماهم اليه محتاجون . فاستاء يعقوب من ذلك وخاف على أخيهم الثاني ولم يجب طلبهم خوفاً على بنيامين مما حلّ بأخيهم يوسف الصديق . «ولما فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم ردت اليهم . قالوا ياأبانا مانبغي هذه بضاعتنا ردت الينا ونمير أهلنا ونحفظ أخانا ونزداد كيل بعير . قال لن أرسله معكم حتى تأتوني موثقاً من الله لتأتنني به الا أن يحاط بكم » . فلما آتوه موثقهم سلمه اليهم وقال لهم ارالله على مانقول وكيل . ثم أوصاهم على أنفسهم خوفاً عليهم من الحسد قائلاً لهم : « يابنيّ لاتدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة » . ثم بعد ذلك أخذوا أخاهم بنيامين وساروا به الى أن وصلوا مصر وعملوا بوصاية أبيهم . ولما دخلوا على يوسف آوى اليه أخوه بنيامين فتلقاه وقال له سراً : « إني أنا أخوك فلاتبتئس بما كانوا يعملون» وأشار عليه بكتمان هذا السر حتى يفعل الله مايريد . ثم بعد أن ذبح لهم الذبائح وأولم الولائم واكرم مثواهم في داره إكراماً زائداً أعدّ لهم رحالهم وأعطاهم أضعاف مايحتاجون من طعام وغلال وماشية بعد أن كاد لهم كيداً بأن أمر بوضع السقاية في رحل أخيه بنيامين حتى اذا مابتعدوا قليلاً عن المدينة الا وقد أرسل يوسف وراءهم رسلاً أخبروهم بأن سقاية العزيز المعدة لشرابه قد فقدت وزادوهم انهم هم السارقون ثم أخذوا يسترجعونهم الى حيث كانوا موجودين . « قالوا تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الارض وما كنا سارقين . قالوا فما جزاؤه إن كنتم كاذبين . قالوا جزاؤه من وجد في رحله فهو جزاؤه كذلك نجزي الظالمين » وعقب ذلك حصل التفتيش على كافة أمتعتهم ابتداء من كبيرهم الى صغيرهم بنيامين الذي كانت السقاية في رحله فانذهلوا لذلك ذهولاً عظيماً حتى مزّقوا ثيابهم وندبوا سوء حظهم

خصوصاً لما رأوا السارق هو أخوهم الصغير الذى لم ير له يوسف عقاباً سوى أن يأخذه منهم ويحجزه لديه ويأمرهم بالعودة الى بلادهم محرومين جميعاً من بنيامين . فتضرعوا اليه وتذللوا بين يديه قائلين : « يأيها العزيز إن له أباً شيخاً كبيراً فخذ أحدنا مكانه إنا نراك من المحسنين . قال معاذ الله أن نأخذ الا من وجدنا متاعنا عنده » ولو حاريناكم على ما تطلبون لصرنا اذاً من الظالمين

ولما استيئسوا منه وأرادوا الرجوع لبلادهم بدون أخيهم بنيامين « قال كبيرهم ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقاً من الله . ارجعوا الى أبيكم فقولوا ياأبانا إن ابنك سرق وما شهدنا الا بما علمنا وما كنا للغيب حافظين — أما أنا — فلن أبرح الارض حتى يأذن لى أبى أو يحكم الله لى وهو خير الحاكمين » . فتركوه وساروا ببضاعتهم لابيهم ثم قصوا عليه مالاقوه وماحل بهم أجمعين . فتكاثرت أحزانه وتذكر فى الحال يوسف فازداد عليه تأسفاً وابيضت عيناه من الحزن فقال له بنوه : « تالله تفتأ تذكر يوسف حتى تكون حرضاً أو تكون من الهالكين — فقال لهم أبوهم — إنما أشكو بثى وحزنى الى الله وأعلم من الله مالا تعلمون » . وأخيراً لما ازداد الامر على يعقوب قال لبنيه : « يابنى اذهبوا فتجسسوا من يوسف وأخيه ولا تيئسوا من روح الله انه لايئيس من روح الله الا القوم الكافرون » . فأطاعوه وساروا للبلاد المصرية وهم مرتابون فى أمر العزيز حيث ظنوه يوسف وكانوا بذلك مستشعرين الى أن دخلوا عليه وبجانبه بنيامين « قالوا : يأيها العزيز مسنا وأهلنا الضر وجئنا ببضاعة مزجاة فأوف لنا الكيل وتصدق علينا ان الله يجزى المتصدقين — فنظر اليهم وعرفهم وقال لهم — هل علمتم مافعلتم بيوسف وأخيه اذ أنتم جاهلون » . فانتبهوا لذلك وأخذوا يتفرسون فيه تفرساً زائداً ويسألونه سؤال الجاهل العارف عما اذا كان هو يوسف أم غيره — شأن الانسان عند مايلتبس عليه الامر فيتردد بين الشك واليقين — الا أن يوسف لم يتمالك من نفسه لانه

تأثر تأثيراً شديداً الى أن غلب عليه البكاء فاختلى بهم جميعاً وخاطبهم قائلاً : « أنا يوسف وهذا أخي قد منّ الله علينا إنه من يتق ويصبر فان الله لا يضيع أجر المحسنين » . فوقعوا بين يديه جاثيين معتذرين عما فعلوه به في بادئ الامر « وقالوا : تالله لقد آثرك الله علينا وان كنا لخاطئين . قال لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين »

ثم بعد ذلك أخذوا يتصافحون جميعاً ويبكون من فرط ما هم فيه من السرور خصوصاً وان يوسف قد انكبّ على شقيقه بنيامين بالتقبيل والمعانقة الطويلة التي مضاها في بكاء ونحيب بسبب ما كان لديه من كثرة الاشتياق والحنان العظيم . وبعد أن انتهوا من ذلك أخذ يوسف يستعلم عن أبيه وعشيرته فأفتوه عن الحالة بالتفصيل وزادوه بأن أباهم في كدر عظيم وهمّ طويل حتى ابيضت عيناه من الحزن فأعطاهم يوسف كثيراً من المال والطعام والملابس والماشية خصوصاً بنيامين الذي اختص بالشئ الكثير هدية منه للوالدين . ثم أمرهم جميعاً بالعودة لبلادهم وقال لهم : « اذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه أبي يأت بصيراً وأتوني بأهلكم أجمعين »

ويظهر ان يعقوب كان مستشعراً بحياة يوسف حيث كان يقول دواماً لبنيه : « إني لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون » . الا انهم ما كانوا يصدقونه وقت ذلك حتى عادوا اليه بالقميص فألقوه على وجه أبيهم فارتدّ بصيراً من شدة الفرح والسرور فقال لهم : « ألم أقل لكم أني أعلم من الله مالا تعلمون ـ فصاح بنوه ـ ياأبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين . قال سوف أستغفر لكم ربي إنه هو الغفور الرحيم »

ثم عقب ذلك أخذوا يستعدون للرحيل فجمعوا شتاتهم من رجال ونساء وأولاد ومال ومواشي وكل مايمتلكون وقاموا قومة واحدة وارتحلوا عن بلاد

كنعان الى أن وصلوا مصر فاستقبلهم يوسف استقبالاً عظيماً حتى وان فرعون مصر لما علم بذلك زادهم اكراماً فأقطعهم وادى غسان (وهو المعروف الآن بالوادى الكائن على حدود مديرية الشرقية) الذى بعد ماستوطنوه مات يعقوب عن مائة وسبعة وأربعين سنة فدفنوه فى حبرون مع أبيه اسحاق وجده ابراهيم • وبعد ذلك عاش الاسرائيليون فى عهد يوسف عيشة هنية حتى توفاه الله عن مائة وعشرة سنين • ثم لبثوا بأرض مصر يتناكحون ويتناسلون مسافة ٤٣٠ سنة حتى كبر عددهم وازدادوا زيادة عظيمة تساعدهم على أن يجمعوا وقت الضرورة مايزيد عن ستمائة ألف رجل من حملة السلاح • ذلك ماجعل دولة الفراعنة تخشى بأسهم فضلاً عما بين الفريقين من البابينات الظاهرة والاختلافات الكثيرة فى الديانة والمذاهب والمشارب والعادات حيث كان المصريون حضريين يعبدون الاوثان أما الاسرائيليون فكانوا بدويين يرعون الماشية ولا يعبدون الا الهاً واحداً غير منظور . فاضطهدوهم اضطهاداً زائداً حتى استخدموهم فى بناء مدينتى (رمسيس • وبيتون) وفى تشييد كافة المبانى الفخيمة والابنية الشاهقة العظيمة التى كانت البلاد المصرية قد امتلأت بها ولم تزل آثارها باقية للآن تزيدنا مجداً على مجد بين الانام • وعلى العموم فان المصريين قد استعبدوهم وحملوهم مالا يطاق من الظلم والجور والاعتساف حتى من سوء حظهم ان منفتاح الاول بن رمسيس الثانى الذى كان فرعون مصر فى ذلك الوقت رأى فى منامه ناراً أقبلت عليه من جهة بلاد كنعان فأحرقت كافة المصريين ماعدا العبرانيين وهم بنو اسرائيل فاستجمع لديه الكهنة والعرافين واستفتاهم عن رؤياه فقالوا له سيأتينا رجل من تلك البلاد فيهلك المصريين • ذلك الذى أوقع الخوف والرعب فى نفس فرعون المذكور فازدادت شدته وقساوته على الاسرائيليين وجعلهم شيعاً كلما استضعف منهم طائفة يأتى فيها كل منكر ورذيلة

حتى وانه كان يذبح أبناءها ويستحيي نساءها فضلاً عما أمر به وقتها من ذبح كل مولود يولد لبني اسرائيل حتى قتل تسعين الف ألف طفل

موسى عليه السلام

وتصادف أن إحدى الاسرائيليات من بيت لاى حملت ووضعت ولداً جميلاً وبيناهي في استعدادها لذبحه اذ ألهمها الله بقوله : « أرضعيه فاذا خفت عليه فألقيه في اليمّ ولا تخافي ولا تحزني إنا رادوه اليك وجاعلوه من المرسلين » . فتشجعت أمه بذلك وأرضعته ثلاثة أشهر معدودات الى أن خافت عليه فاستقدمت نجاراً صنع لها تابوتاً صغيراً من الخيزران ووضعته فيه ثم ألقته في البحر وقالت لأخته مريم : « قصيه فبصرت به عن جنب وهم لا يشعرون » . فأخذ الموج يلعب بالتابوت حيث كان تارة يرفعه وأخرى يخفضه الى أن أدخله في نبات من الحلفاء عند قصر فرعون مصر

وتصادف وقتها خروج بنته وجواريها يغتسلن من مياه النيل بالقرب من ذلك النبات فلمحن التابوت فأخذنه ظناً انه مملوء مالاً وحملنه لآسية زوجة فرعون ففتحته فاذا فيه ذلك المولود الجميل فأشفقت عليه وسمته موسى الذى معناه (المنجي من الماء) ثم قالت لزوجها : « قرّة عين لي ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً » فوافقها على ذلك وأخذوا يرودون له المراضع اللاتى حضرن له فأبى أن يرضع منهنّ . ولما كانت أخته مريم تتبعه وعلمت محل وجوده توصلت للدخول في سراى الملك فرأت ما اتاه موسى بالمراضع فقالت لهم : « هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون » . فأجابوها لذلك فانطلقت الى أمها وأخبرتها الخبر فجاءت معها وأعطت ثديها لموسى فالتقمه منها ورضع . قال تعالى : « فرددناه الى أمه كى تقرّ عينها ولا تحزن . ولتعلم أن وعد الله حق »

ومن ذلك الوقت اتخذه فرعون ولداً له فنشأ وتربى فى بيت الفراعنة حيث كان يركب مركب فرعون • ويلبس لبس فرعون • ويورى انه ابن فرعون • الى أن بلغ اشده واستوى آتاه الله فهماً واسعاً وفكراً عالياً فتلقن كافة العلوم اللاهوتية التى كانت منتشرة فى ذلك الوقت بين المصريين • وتصادف انه خرج يوماً وهو فى عنفوان شبابه فرآى رجلاً مصرياً يتشاحن مع آخر من شيعته فأراد أن يصلح ذات البين فأبى المصرى ذلك فاستاء منه موسى ونظر يمنة ويسرة فلم ير أمامه رقيباً فتقدم نحو المصرى ووكزه بملء يمينه فقضى عليه ثم دفنه فى الرمال الا انه « أصبح فى المدينة خائفاً يترقب فاذا الذى استنصره بالامس يستصرخه • قال له موسى إنك لغوىّ مبين • فلما أن أراد ان يبطش بالذى هو عدوّ لهما قال ياموسى أتريد أن تقتلنى كما قتلت نفساً بالامس إن تريد الا أن تكون جباراً فى الارض وما تريد أن تكون من الصالحين » • فتحوّل عنه موسى إتقاء للفتنة غير أن ذلك العدوّ ذهب فأفشى ماأتاه موسى فانتشر أمره بين المصريين الى أن علم بذلك فرعون فأمر لوقتها بالقبض عليه وإحضاره بين يديه الا انه قبل ذلك جاءه « رجل من أقصى المدينة يسعى • قال ياموسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج إني لك من الناصحين » • فخرج موسى من المدينة خائفاً يترقب على نفسه حتى وصل أرض مدين ببلاد العرب فنزل ضيفاً على شيخ من كبار الرجال كان يدعى (يثرون) وهو المعلوم عند المسلمين باسم شعيب عليه السلام حيث مكث فى خدمته اربعين سنة بالتمام

وكان لشعيب بنتان احداهما اسمها (صفورة) احبت موسى فاختارته بعلاً لها فقالت لوالدها : « ياأبت استأجره إن خير من استأجرت القوى الامين » • فوافقها أبوها على ماطلبت حيث فاتح موسى فى ذلك فقبل أن تكون خدمته اليه مهراً لزواجه بها • ولما انتهى الامر على ذلك كانت زوجته أعطته عصاً يرعى

بها الماشية فلما تجلى له المولى سبحانه وتعالى وهبه مالم يهبه لاحد من قبله حيث آتاه المعجزات البينات ثم أمره أن يبرح بلاد كنعان ويتوجه للبلاد المصرية ويتحد مع أخ له اكبر منه اسمه (هارون) فينقذا بني اسرائيل مما هم فيه من الاستعباد والظلم المبين . لذلك سار موسى الى مصر حتى وصلها والتقى بأخيه هارون فقص عليه الخبر فشجعه على ذلك و تضافرا على إنقاذ الاسرائيليين من ظلم المصريين فاستقدما أولاً كافة الشيوخ وأنبأهم موسى بما هنالك مثبتاً دعوته بما أظهره أمامهم من المعجزات التي علمها الله اليه فاحتاطوا به وآمنوا برسالته وضعوا أنفسهم في سبيل مساعدته مهما كلفهم ذلك من الشقاء والعناء . لذلك انطلق موسى وهارون الى فرعون فالتقيا به فسألهما عن أمرهما فأنبأه موسى برسالته فنظر اليه فرعون وتمعنه فعرفه فقال له : « ألم نربك فينا وليداً ولبثت فينا من عمرك سنين وفعلت فعلتك التي فعلت وأنت من الكافرين . قال فعلتها اذاً وأنا من الضالين ففررت منكم لما خفتكم فوهب لي ربي حكماً وجعلني من المرسلين — فقال له فرعون — إن كنت جئت بآية فأت بها إن كنت من الصادقين . فألقى عصاه فاذا هي ثعبان مبين . ونزع يده فاذا هي بيضاء للناظرين » . فاستغرب فرعون من ذلك وكافة من كان بمجلسه الذين عدوا ما أتاه موسى ضرباً من السحر . لذلك اقترحوا عليه أن يبعث في المدائن ليأتوه بكل سحار عليم فأمر فرعون ان تجتمع السحرة في موعد ضربه للجميع كي يتناظروا مع موسى ساحر الاسرائيليين . فلما أتى الموعد المضروب وتواردت السحرة من كل مكان جمع فرعون أشراف مملكته وبعد أن صف السحرة أمامهم صفاً « قالوا ياموسى إما أن تلقي وإما أن نكون أول من ألقى . قال بل ألقوا فاذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى فأوجس في نفسه خيفة — فناداه الله — لاتخف إنك أنت الاعلى . وألق ما في يمينك تلقف

ماصنعوا إنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى»

فلما القى موسى عصاه فاذا هى ثعبان تلقف ما ألقوا فاندهش السحرة من ذلك وتحققوا ان هذا ليس بسحر وانما هو معجزة من المعجزات التي خصها الله بموسى فسجدوا اليه وآمنوا به أجمعين . فاغتاظ لذلك فرعون وافتكر أن هناك اتفاقاً بينهم جميعاً فقال للسحرة : « آمنتم له قبل أن آذن لكم إنه لكبيركم الذى علمكم السحر . فلأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف . ولأصلبنكم فى جذوع النخل ولتعلمن أينا أشد عذاباً وأبقى » . الا انهم لم يستمعوا له نداء ولا زجراً وصاروا منه أن يقضى بهم ماهو قاض حيث انتهى أمرهم فآمنوا برب العالمين ففعل بهم فرعون ما توعدهم به حتى أماتهم أجمعين

ومن عهد ذلك أخذ قوم فرعون يدخلون فى دين موسى زرافات ووحداناً وموسى مثابر على هداية القوم أجمعين حتى أمره الله أن يهاجر ببنى اسرائيل من مصر حيث خرجوا جميعاً والراكبون منهم ينوفون عن الستمائة ألف راكب بخلاف الأولاد الا أن فرعون صعب عليه ذلك لانه كان ينتفع بهم خصوصاً فى السخرة وتشييد العمارات فقام بجيش عظيم من المصريين واقتفى أثرهم مجداً فى المسير عله يعيدهم لبلاده « فلما تراآى الجمعان قال أصحاب موسى إنا لمدركون ياموسى أوذينا قبل أن تأتينا ومن بعد ماجئتنا » . فقال لهم كلا فان ربنا معنا سيهدينا وينجينا من أولئك الظالمين

ولما بلغ موسى البحر ــ الذى هو البحر الاحمر باتفاق أغلب المؤرخين ــ احتاطته بنو اسرائيل خوفاً على أنفسهم من فرعون الذى كان خلفهم وعلى مقربة منهم أجمعين فضرب موسى البحر بعصاه فانفلق فعبروه جميعاً بسلام آمنين فتبعهم فرعون وقومه فانطبقت عليهم الامواج انطباقاً أغرقهم أجمعين . وبعد ذلك سار موسى مع قومه قاصدين بلادهم الأصلية الا أنهم أخذوا يحاجونه أثناء المسير ويغلظون عليه القول ويخرجون عن طاعته ويعاندونه حتى قضى الله

عليهم بالتيه فمكثوا فى الطريق أربعين سنة بالتمام . وفى أثناء تلك المدة كان موسى آمناً على نفسه وقومه أثناء سيره حتى وصل جبل الطور فأخذ فى تبليغ رسالته مبتدئاً بالأوامر العشرة الالهية التى هى عبارة عن عشرة مواد أصلية مشتملة على الاركان الاساسية التى امبنى عليها ذلك الدين نذكرها كالآتى :

١ ــ إنى أنا الله ربكم فلا تتخذوا لكم إلهاً غيرى ولا تصنعوا لكم تماثيل مفصلة ولا صورة مطلقاً لتعبدوها أو لتخدموها من دونى

٢ ــ لاتحلفوا باسم الله ربكم باطلاً

٣ ــ تعملون مدة ستة أيام وتستريحون فى السابع

٤ ــ أكرموا والديكم يطل عمركم

٥ ــ لاتقتلوا أحداً

٦ ــ لاتزنوا أبداً

٧ ــ لاتسرقوا

٨ ــ لاتشهدوا بالباطل على رجالكم

٩ ــ لاتشتهوا امرأة جاركم

١٠ ــ ولا تشتهوا داره أو خادمه وخادمته ولا ثوره وحماره ولا شيئاً مملوكاً له مطلقاً

هذه هى الوصايا الأولى التى جمعت فأوعت من الحكم العالية والاصلاحات الضرورية للانسان . ثم بعد ذلك سار فى التبليغ حثيثاً حتى أتم دعوته التى كانت وقتها أحسن دعوة ظهرت على سطح الارض لانها أتت بما كان يغيب عن فكر اللبيب فى ذلك الوقت . وفى أثناء ذلك توفى هارون على جبل (هور) بعد أن بلغ من العمر مائة وثلاثة وعشرين سنة . ثم لما وصل موسى وقومه أرض (مواب) الكائنة فى الشمال الشرقى من بحيرة لوط توفاة الله على جبل (نيبو)

المشهور بين جبال فلسطين بجبل العطار بعد أن عاش مائة وعشرين سنة قضى ثلثيها فى عبادة الله وخدمة الناس أجمعين خصوصاً بنى اسرائيل الذين بكوه ثلاثين يوماً حداداً عليه وكان دفنه سنة ١٥٨٥ قبل الميلاد

يوشع عليه السلام

وقبل أن يموت موسى أقام مقامه رجل من قومه يدعى يوشع بن نون فأوحى الله اليه أن يسير ببنى اسرائيل للاستيلاء على بلاد كنعان التى كانت محكومة فى ذلك الوقت بجملة قبائل من بنى كنعان بن حام بن نوح تحت رئاسة كثير من الملوك الذين استبدوا بالملك فانتشر الفسق والفجور فى كافة البلاد وصاروا فوضى بسبب ماداخلهم من العداوة والشقاق ولكنهم لما رأوا الاسرائيليين يريدون اغتيالهم اتحدوا أخيراً مع بعض وصاروا عصبة واحدة الا ان يوشع المذكور كان حازماً لاموره مدبراً لقومه ساعياً فى الاصلاح مااستطاع حتى وانه لما رأى ماهم عليه أولئك من البغى والطغيان عبر بقومه نهر الأردن واستولى عنوة على (أريحاء) وغيرها من المدن الكثيرة بعد ان أبلى بأهلها بلاء حسناً ماعدا مدينة (جبيون) حيث سلمت نفسها الى يوشع دون ان تسفك الدماء الان أولئك الملوك حقدوا عليها فأتوها وحاصروها وجاء يوشع فحماها منهم . وقيل انه فى حادثة هذه المدينة كانت حادثة توقيف الشمس ليوشع عليه السلام المشار اليها فى قول أبى تمام :

فردّت علينا الشمس والليل راغم * بشمس لهم من جانب الخدر تطلع

فوالله ما أدرى أأحلام نائم * ألمت بنا أم كان فى الركب يوشع

وعلى هذا المنوال سار يوشع وقومه حتى استولوا على كافة بلاد كنعان وهزم ملوكها البالغين خمسة وثلاثين ملكاً غير بعض قبائل تحصنت فى الجبال وأخذت تناوش الاسرائيليين حتى أيام داود عليه السلام

أما يوشع فبعد أن استولى على عموم بلاد كنعان قسمها على الاسباط الاثنى عشر الذين استوطنوها بقبائلهم ثم أخذ هو ينظر فى شؤون الدولة فنظم الادارة وأنشأ المحاكم ونصب القضاة والحكام وقنن لهم القوانين وأصدر الاوامر والمنشورات فأصلح الدولة والناس أجمعين ثم توفاه الله أخيراً بعد ان عاش مائة وعشرة سنين • ولكن قضى الله على دولة الاسرائيليين بعد موته بالمنازعات والمخاصمات والتفرقة الى ان انتهى أمرهم بالتجزء والانقسام فاختلفت أحوالهم وتشعبت مشاربهم لولا ان مشايخهم المتفقهين الذين كانوا من صحب موسى ويوشع قد تداركوا الامر بأن أوجدوا مجالس يعقدونها ومحاضر يحضرونها فى كل سبط من تلك الاسباط فينظرون فى أمور الرعية ويتشاورون فى مصالح كل قبيلة دون أن يكون لهم عليها ولاية سياسية حيث كان مثلهم مع كافة القبائل فى ذلك الوقت كمثل من يرشد أخاه الى الخير بغير أن يكون لاحدهما على الآخر سلطان

قضاة بنى اسرائيل

هكذا لبث بنو اسرائيل فوضى لاسراة لهم ولا رئاسة عليهم حتى تمكن بينهم الجفاء فوهنت عزيمة الدولة وضعفت قوتها وانكسرت شوكتها بعدما كان لها من العزّ والسودد العظيم فغارت عليهم أعداؤهم واكتسحوهم واستبدوا بهم استبداداً أذاقهم ماذاقوه فى مصر من الاسترقاق والاستعباد الا أن الله كان كلما تشتد عليهم الوطأة يسخر اليهم بعضاً من أولئك المشايخ أولى الشجاعة وذوى البطش والقوّة فيدافعون مدافعة إن لم تشف غليلهم من أعدائهم فتخفف عنهم ماهم فيه من البلاء العظيم • قال المؤرخ اليهودى الشهير يوسيفوس : « وقد كان بنو اسرائيل يطلقون لفظ القاضى أو الحاكم من القوم العبرانيين على أشهر رجل تميز بالشجاعة وأكبر بطل اشتهر بفضيلة الجهاد والمنعة ثم

متى انقضى الخطر والحرب وعاد السلم لما كان عليه رجع القاضى لحالة الآحاد الاهليين وربما بقيت معه تلك الوظيفة فيوالى القضاء والحكم بين الاسرائيليين »

ومما يحسن ذكره عن أولئك القضاة انه كان من بينهم امرأة يقال لها (دبوره) كانت تقضى بين الاسرائيليين تحت ظل نخلة فوق جبل افرائيم فألزمتها الظروف وما هى عليه من القوة الجسمية والعقلية لأن تقود جيشاً عظيماً لمحاربة أحد ملوك تلك البلاد فهزمته شر هزيمة وأشهرت ذلك بقصيدة شعر دونتها من بنات أفكارها من أحس الأشعار وأحمى الأفكار فهيجت بنى اسرائيل وألفتهم لما كانوا فيها من السبات الطويل غير أن ذلك كان كسحابة صيف مرت فلم تلبث طويلاً فى ذلك الوقت

وكذلك كان من بين أولئك القضاة رجل اسمه (شمشون) يقال انه كان على جانب عظيم من القوة والشجاعة حتى وأنه قبض وهو ابن ثمانى عشر سنة على أسد فمزقه قطعاً فضلاً عما أتاه فى الوقائع الحربية العديدة من أساليب الشجاعة والبسالة العجيبة فأبلى بأعدائهم بلاء حسناً حيث قتل منهم عشرات الالوف فتضايقوا مضايقة شديدة جعلتهم يحتالون علي القبض عليه بواسطة إحدى نسائه التي كان قد اتخذها منهم زوجة لنفسه واسمها (دليلة) التى احتالت عليه حتى أوقعته فى أيدى الاعداء فقبضوا عليه وملوا عينيه وزجوه فى السجون ثم أخذوا يقيمون الولائم والأفراح حتى اجتمع منهم عشرات الألوف فى كنيسة إلههم (داجون) الذى كانوا يعبدونه فى ذلك الوقت واستقدموا شمشون من السجن وعرضوه للسخرية امام الموجودين بتلك الكنيسة التى كان على سطحها نحو الثلاثة آلاف رجل وامرأة فاغتاظ شمشون وقبض على عمودين من أهم عواميد الكنيسة وحركهما بقوته المعلومة فسقطت الكنيسة عليهم فأماتتهم أجمعين

الياس واليسع واشمويل عليهم السلام

ومع كل هذه التقلبات والتغييرات فان الله كان قد أرسل اليهم بعد يوشع الياس واليشع واشمويل رسلاً من عنده فقاموا بدعوتهم خير قيام ثم توفاهم الله بعد ان لاقوا مالاقوه من العذاب الاليم

داوود عليه السلام

ولما ان توفى اشمويل النبي أرسل الله من بعده داوود من سبط يهوذا فتحسنت فى ايامه الاحوال وانتظمت الامور وجعل أورشليم مركزاً دينياً وسياسياً للدولة فكانت زاهية زاهره حتى وان الاسرائيليين لم يروا أياماً أزهى وأزهر من أيامه كما شهد بذلك معظم المؤرخين خصوصاً (هيران • وجيليهان) • وقد تصادف وجود امرأة فى ذلك الوقت كانت تدعى (بيتسبا) مشهورة بجمال السورة والخفة والقدّ والاعتدال فمال لها داوود واشتهاها لنفسه زوجةً مع انه كان متزوجاً بتسع وتسعين زوجة أما تلك المرأة فكانت متزوجة بمن يدعى (أوريا الحثى) أحد قواد الجيش الاسرائيلى فأرسل الله له خصمين ليحكم بينهما بالحق • ولما اعتلا داوود منصة الاحكام وتمثل أمامه الخصمان استجوب أولهما فقال له : « إن هذا أخى له تسع وتسعون نعجة ولى نعجة واحدة فقال اكفلنيها وعزّنى فى الخطاب » • ثم استجوب الثانى فأمن على كلام الاول حيث أورى انه يريد ان تكون نعاجه مائة بدلاً عن تسعة وتسعين نعجة فنظر داوود اليه شذراً قائلاً له لقد ظلمت اخاك بضمّ نعجته الى نعاجك الكثيرة وإننا اليك لمانعون • فحاجه صاحب النعاج الكثيرة موريا له ضرورة إتمام نعاجه بنعجة أخيه مهما كلفه ذلك من التعب والشقاء • ذلك الذى أثار غضب داوود حيث قال له : إن لم تردّ اليه نعجته ضربنا منك هذا وهذا — وأشار الى أنفه وجبهته — فقال له أنت ياداوود أحق بأن يضرب منك هذا وهذا حيث لك تسع وتسعون زوجة ولم يكن لأوريا الحثى غير زوجة واحدة وهى

بيتسبا التى تريد ان تسلبها من زوجها وتضمها الى زوجاتك العديدين • فاستيقظ داوود وقت ذلك وتحقق من غلطته خصوصاً وان هذه المسألة صارت حديث بنى اسرائيل فندم على مافعل واستغفر الله فتاب عليه الا ان ذلك لم يمنع القوم وقتها من الاستخفاف به حتى أدّى الامر للخروج عليه فكثرت الفتن الداخلية وازدادت المحن المنزلية بسبب أولاده وما أتوه وقتها من الفساد الى أن توفاه الله سنة ١٠١٦ قبل الميلاد عن مائة سنة بعد أن أوصى ابنه سليمان بوصايا من أحكم الحكم القيه من ضمنها أن أمره بأن يبنى للناس هيكلاً عظيماً يعبدون الله فيه

﴿ سليمان عليه السلام ﴾

وكان الله قد أرسل سليمان رسولاً بعد أبيه داوود فاستلم الملك الذى كان وقتها على جرف هارّ حيث ابتدأ أولاً بقتل أخيه (عادونياش) الذى كان اكبر نصير للفتنة فى ذلك الوقت ثم أخذ يستعمل السياسة والمسالمة للقبائل والبلاد التى كانت ثائرة على أبيه فاسترجعها بحكمته وتدبيره ثم أحسن الصلة بينه وبين مجاوريه من الملوك والقبائل حتى كان ذلك سبباً لبلوغ دولته مبلغاً لم تصل اليه من قبل

وقد انتهز فرصة ذلك فسعى فى تنفيذ وصية أبيه القاضية باقامة هيكل عظيم فى أورشليم فأتمه فى سبع سنين ونصف سنة وافتتحه رسمياً افتتاحاً دينياً فخيماً قيل انه ذبح لأجله اثنين وعشرين ألف ثور ومائة وعشرين ألف رأس من الغنم • ذلك الهيكل الذى صار كعبةً يحج اليها الناس حتى أيام الخليفة عمر بن الخطاب الذى شاد عليه مسجداً عرف باسمه الى الآن • وعلى العموم فقد كانت أيامه أيام رخاء وسرور وسعادة على الأمة الاسرائيلية بل على الدولة التى بلغت على يديه من التقدم والعمران وبسطة الحال ووسعة العيش ومسالمة القريب والبعيد وحسن السياسة الداخلية والخارجية مما جعلها سيدة كافة ماتقدمها من

سائر الدول والأمم . قال المؤرخ جيبمان السالف الذكر : « وبعد أن شيد سليمان لله معبداً جدد لنفسه قصراً جميلاً وأنشأ حول مدينة أورشليم سوراً عظيماً ووسع عدة مدائن قديمة واختط مدائن أخرى جديدة منها مدينة أشار وبجدله وتدمر الشهيرة . وقد كانت مجمع القوافل التجارية تتردد بين بابل والعراق ودمشق الشام » . ثم قال المؤرخ الشهير فرنسيس لونورمان : « كانت شهرة سليمان قد انتشرت عند سائر الأمم المجاورين . وكان قد صنف ثلاثة آلاف مثل أو حكمة وأنشأ خمسة آلاف قصيدة لتمجيد الله سبحانه وتعالى . وتكلم فى العلوم الطبيعية على سائر الأشجار والنباتات سواء كانت صغيرة أو كبيرة نافعة أو ضارة لازمة أو غير لازمة حتى وانه تكلم على النبات المعروف فى اللغة العربية باسم (الزوفا) المشهور عند العامة باسم الشمسية التي تنبت بجوار الحيطان على الدوام — وتكلم أيضاً على سائر الحيوانات البرية فضلاً عن الطيور والهوام والحيوانات البحرية » . ولكن يظهر أن كتبه التى ألفها فى هذه المواضيع المهمة قد فقدت واندثرت دون أن يبقى منها الا التأليف المسمى باسم (أمثال سليمان) وكذلك التأليف المعروف باسم (حكم سليمان) وهو الكتاب الذى نظر فيه نظراً فلسفياً حيث افاض فى الاحوال الدنيوية واللذات البشرية واستخلص من ذلك منتهى ماتصل اليه العقول البشرية والابحاث الفلسفية التي يمكننا أن نحصرها فى هذه الجملة الذهبية : « كل شئ باطل . وكل نعيم زائل »

وكان سليمان لما أن أرسله الله لهداية الناس تطلب منه ملكاً لاينبغى لأحد من بعده فاستجاب طلبه بأن سخر له الانس والجن والطير والريح حيث كانت كلها فى خدمته وقتما يشاء ويريد . وبينما كان فى ذات يوم يتفقد طيراً مخصوصاً لخدمته فلم يجد بينها الهدهد الذى لما ان جاءه سأله سليمان عن سبب غيبته فقال له : « جئتك من سبأ بنبأ يقين . إنى وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل

شئ ولها عرش عظيم » . فانسرّ منه سليمان وأعاده اليها بكتاب من عنده يدعوها للدخول فى طاعته والايمان بدين الله القويم وكانت تدعى (بلقيس) . تلك التى تقبلت منه ذلك الكتاب ثم اكتفت بأن أرسلت اليه هدية ملوكانية الا انه بعث اليها ثانياً يستقدمها اليه فلبت أمره حيث قصدته بركب من أشراف مملكتها حتى عند ما اقتربت من مدينته قال سليمان لمن فى مجلسه : « أيكم يأتينى بعرشها قبل أن يأتونى مسلمين . قال عفريت من الجنّ أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك . وقال الذى عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتدّ اليك طرفك ـ فلما حضر العرش وحضرت بلقيس ـ قيل لها أهكذا عرشك . قالت كأنه هو » . وأخيراً لما تحققت منه آمنت به وبدعوته حيث قالت : « رب إنى ظلمت نفسى وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين » . وقيل انها كانت على جانب عظيم من الجمال فاتخذها زوجة وضمها الى زوجاته الكثيرين ثم مات سنة ٩٧٦ قبل الميلاد بعد ان عاش ثلاثة وخمسين سنة ملك منها أربعين

﴿ يونس عليه السلام ﴾

سبق فذكرنا ان دولة بنى اسرائيل بلغت مبلغاً عظيماً فى التقدم والرفاهية والشهرة الزائدة حتى كان من وراء ذلك بل من مستلزماته سوء الاخلاق وكثرة المفاسد فضلاً عن تغيير العقائد وضعف الدين فتشعبت الآراء وانحلت الجامعة بين الاسرائيليين فثارت البلاد وقامت الفتن وكثرت المحن خصوصاً تزايدت المطامع بين اولاد سليمان فانقسموا الى دولتين عظيمتين اصطلحوا على تسمية الاولى بدولة يهوذا والثانية بدولة اسرائيل حيث من وقت ذلك أخذ نجم الدولة فى الأفول . قال أبو الفدا اسماعيل : « لما افترقت مملكة بنى اسرائيل واستقر لولد داوود الملك على السبطين فقط أعنى سبطى يهوذا وبنيامين وصار الاسباط

العشرة ملوك تعرف بملوك الاسباط استمر الحال على ذلك نحو ٢٦١ سنة ٠ وكانت أولاد سليمان فى بني اسرائيل بمنزلة الخلفاء للاسلام لأنهم أهل الولاية (أعنى الحقيقة) وكان ملوك الاسباط مثل ملوك الاطراف والخوارج ٠ وارتحلت الاسباط الى فلسطين وغيرها بالشام واستقر أولاد داود ببيت المقدس »

ومن تكد الدنيا على الاسرائيليين عموماً ان أمرهم لم ينته لذلك الحدّ الذى وصلوا اليه بل تعدّوه للمشاكلة والعدوان حيث صاروا على الدوام يحاربون بعضهم بعضاً فأرسل الله لهم يونس نبياً دعاهم الى الخير ونهاهم عما هم فيه من الطغيان فخفت وطأتهم قليلاً ثم توفاه الله

﴿دانيال عليه السلام﴾

ولما توفى يونس عاد القوم الى ما كانوا عليه أولاً بل ازدادوا طغياناً وفجوراً فضعفت قوتهم واضمحلت شوكتهم فسلط الله عليهم البابليين وكان ملكهم وقتها (بختنصر) الذى أغار عليهم بجيوشه الجرارة وخرّب بيت المقدس وشتتهم عن آخرهم بعد ان أسر كثيراً منهم واسترقهم واستعبدهم وكان من ضمنهم رجل صالح متبحر فى العلوم والمعارف خصوصاً فى الحكمة حتى فاق سائر أحبار اليهود والكهنة الموجودين فى ذلك الوقت ٠ وكان اسمه (دانيال) الذى أنزله الملك عنده منزلة التكريم والاحترام خصوصاً عقب استفتائه عن رؤياه التى رآها فى منامه وأوّلها له دانيال تأويلاً حسناً أعجب الملك فأكرم مثواه وجعله فوق جميع أرباب المناصب العالية من أهل دولته فى كافة أنحاء المملكة فضلاً عما غمر به بنى اسرائيل من الانعامات الكثيرة والخيرات العديدة

وكان الله قد أرسل دانيال رسولاً يقوّم ما اعوجّ ويصلح ما أفسده المفسدون الى ان قام ملك الفرس المدعو (كورش) فاكتسح البابليين وأعاد الاسرائيليين لبلادهم الاصلية فاستوطنوها وبعد أن مات دانيال عاد الامر لحالته الأولى

فأرسل الله اليهم الرسل والصديقين ففريقاً يكذبون وفريقاً يقتلون

عيسى عليه السلام

وكان من ضمن أشراف بنى اسرائيل رجل يقال له (ماثان) أحد الرؤساء الدينيين وينتهى نسبه الى سليمان وداوود وابراهيم فرزقه الله بولد سماه (عمران) الذى اتخذ له زوجة تدعى (حنة) فأولدها بنتاً سماها (مريم) التي قيل عنها فى بعض الروايات أنها كانت مخطوبة لابن عمها يوسف النجار الذى كان يشاركها السرّاء والضرّاء حتى فى الخدمة المنزلية

وتصادف أن مريم اختلت بنفسها يوماً من الايام فأرسل الله لها روحاً من عنده تمثل أمامها بشراً سوياً فلما رأته « قالت : إنى أعوذ بالرّحمن منك ان كنت تقيّا . قال انما أنا رسول ربّك لأهب لك غلاماً زكيّا . قالت أنى يكون لى ولد ولم يمسسنى بشر ولم أك بغيّا . قال كذلك قال ربّك هو علىّ هين ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمراً مقضيّا » حيث حملت بالمسيح عيسى أيام (بيلاطس البنطى) الذى كان وقتها حاكماً على بلاد اليهود من قبل الدولة الرومانية . ولما جاء المخاض لمريم تذكرت ماسينتابها من قومها بسبب ذلك فحزنت حزناً شديداً وخاطبت نفسها قائلة : « ياليتنى متّ قبل هذا وكنت نسياً منسيّا . فناداها من تحتها أن لاتحزنى قد جعل ربّك تحتك سريّا . وهزّى اليك بجزع النخلة تساقط عليك رطباً جنيّا . فكلى واشربى وقرّى عيناً فامّا ترينّ من البشر أحداً فقولى إنى نذرت للرّحمن صوماً فان أكلم اليوم إنسيّا »

ولما انتهت من الوضع وصار عيسى بين يديها « وجاءت قومها تحمله قالوا يامريم لقد جئت شيئاً فريّا . ياأخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيّا ـ ولكنها لم تجبهم بشئ بل أشارت للمولود ـ قالوا كيف نكلم من

كان فى المهد صبيّا ـ فناداهم عيسى قائلاً ـ إنى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبيّا • وجعلنى مباركاً أينما كنت وأوصانى بالصلاة والزكاة مادمت حيّا • وبراً بوالدتى ولم يجعلنى جباراً شقيّا » • فذاع امره وشاع حتى ملأ الاسقاع وسمع به الملك فأمر بقتله الا أن مريم أخذته وهاجرت به الى مصر مع يوسف بن عمها ولبثوا فيها اثنى عشر عاماً حتى مات ذلك الملك فعادوا كما كانوا واستوطنوا مدينة (الناصره) ببلاد فلسطين الى ان بلغ عيسى ثلاثين سنة من عمره فأرسله الله لهداية الناس فقام بالرسالة خير قيام حيث صار يهدى الناس ويداوى المرضى ويشفى الاعمى ويبرى الابرص ويحيى الموتى الى أن صار ذلك معجزة عظيمة فانتشرت ديانته انتشاراً زائداً • الامر الذى أثار غضب حاكم البلدة وقتها فأمر بالقبض عليه والتمثيل به على ملأ القوم الا أن الله قد رفعه الى السماء وشبهه اليهم بواحد منهم فظنوه عيسى فأوثقوه كتافاً وصلبوه على قارعة الطريق وللمؤرخين بحث طويل فى هذا الموضوع لاضرورة لذكره الآن

وكان فى مبدإ دعوته قد تبعه اثنى عشر رجلاً أخذوا يتلقون عليه التعاليم فأتقنوها اتقاناً زائداً حتى بعد أن توفاه الله قاموا مقامه فنشروا الديانة فى البلاد وكان يقال لهم الحواريون

محمد صلى الله عليه وسلم وهو خاتم النبيين أجمعين

سبق فأوضحنا ان اسماعيل بن ابراهيم الخليل تربّى فى بلاد الحجاز واتخذ بنت مضاض بن عمر رئيس قبيلة جرهم زوجة اليه وأولدها اثنى عشر ولداً ترأسوا على القبيلة المذكورة وجعلوا مكة مقراً لهم وصاروا يتوارثون الرئاسة والشرف أباً عن جدّ الى أن انحصر ذلك أخيراً فى عبد مناف بن قصىّ بن حكيم الذى ينتهى نسبه الى عدنان من ولد اسماعيل بن ابراهيم الخليل • ومن عبد مناف المذكور تناسل هاشم الذى تناسل منه عبد المطلب الذى تناسل

منه عبد الله الذى وهبه الله مولوداً كريماً اسمه (محمد) وهو صاحب الشريعة الاسلامية صلى الله عليه وسلم (واليه أيضا ينتهى نسب مؤلف هذا الكتاب كما هو مثبوت بسجلات نقابة أشراف الديار المصرية تحت نمرة ١٩٥ سنة ١٣٢٥ هجرية)

وقد كانت ولادته عليه الصلاة والسلام حين طلوع فجر يوم الاثنين ٢٠ افريل سنة ٥٧١ ميلادية بعد وفاة أبيه بشهرين فحضنته أمه التى توفاها الله وعمره ستة سنين دون أن يترك له أبواه شيئاً من المال والاملاك فكفله جده عبد المطلب الذى مات وعمره ثمانية سنوات بعد أن أوصى عليه عمه أبا طالب الذى احسن كفالته وعزز وصايته وأحبه حباً شديداً حتى وانه ما كان ينام الا الى جانبه ولا يخرج الا معه

وقد شبّ صلى الله عليه وسلم على القناعة والكمال فلم يأت شيئاً مما يأتيه الاطفال حتى عند مابلغ من العمر اثنتى عشر سنة ظهرت عليه النجابة الزائدة والادراك الشديد فسافر به عمه أبو طالب فى تجارة الى الشام فرآه هناك راهب يقال له (بحيرا) فتفرس فيه كثيراً وتفكر طويلاً ثم أورى لأبى طالب انه سيكون له شأن عظيم فى مستقبل الايام الى أن قال له : « انه لنبيّ كريم وأظنه الذى بشر به عيسى عليه السلام فى إنجيله بلفظ (فار قليط أو بارقليطس) ــ قيل ان معناه المعزى مع ان المعنى الحقيقى لذلك الاسم هو محمود ــ لان زمانه قد قرب كما أنبأنا عن ذلك دانيال فى نبوته فى الاصحاح الثانى عشر . وينبغى التحفظ عليه خشية أن تقتله اليهود » . لذلك أعاده أبو طالب الى مكة حيث لبث فى قومه مثال الكمال والآداب والتقوى والصلاح حتى وانه ما كان يجنح الا للحق سواء بين القريب والبعيد أو القوى والضعيف أو الغنى والفقير . ولا كان يهاب ملكاً لملكه ولا غنياً لماله ولا ذا سلطة لسلطانه بل الكل أمامه سواء بسواء . وكان يؤلف بين أصحابه بما فطر عليه من سعة العقل وما ألهمه

الله من بلاغة الحجة وسلاسة الالفاظ والافكار العالية مع انه أمي لا يعرف قراءة ولا كتابة حتى صار ذلك معجزة له بين الخلق أجمعين . خصوصاً وقد كان لا يستنكف من التواضع حتى وانه كان يجلس على الارض ويخصف النعل ويرقع الثوب متحلياً دائماً بمكارم الاخلاق

وكان صلى الله عليه وسلم متعوداً الخلوة بنفسه شهراً في السنة في غار حراء الموجود هناك حتى عند ما بلغ الاربعين سنة من عمره كان القوم وقتها قد طغوا فسدوا في الارض فساداً عظيماً ونسوا الله فاتخذوا آلهة كثيرة يعبدونها دونه سبحانه وتعالى فاختار محمداً رسولاً . لهداية الناس وخاتماً للانبياء أجمعين فأنزل عليه الوحي حيث أمره بقوله : « يا أيها المدثر قم فأنذر وربك فكبر وثيابك فطهر والرجز فاهجر ولا تمنن تستكثر ولربك فاصبر » . حتى بعد ذلك أخذ يدعو الناس للاسلام فآمن به قليل من أهله وصحبه الا أن القوم وقتها احتقروه وتعصبوا عليه تعصباً زائداً فأمره الله أن ينذر عشيرته الاقربين . لذلك أعد وليمة دعى فيها بني هاشم وبني المطلب وبني نوفل وبني عبد شمس اولاد عبد مناف الذي هو الجد الثالث للنبي عليه الصلاة والسلام ثم قام بينهم خطيباً قائلاً لهم : « إن الرائد لا يكذب أهله . والله لو كذبت الناس جميعاً ما كذبتكم ولو غررت الناس جميعاً ما غررتكم . والله الذي لا إله الا هو اني لرسول الله لكم خاصة وإلى الناس كافة . والله لتموتن كما تنامون ولتبعثن كما تستيقظون ولتحاسبن عما تعملون ولتجزون بالاحسان احساناً وبالسوء سوءاً . وإنها لجنة أبداً أو لنار أبداً » . وبعد ذلك انفض الجمع وأكثرهم قد استهجن دعوته خصوصاً عمه أبو لهب فانه كان عدواً لدوداً له حتى وانه عقب تلك الدعوة أشار على قومه بقوله : « خذوا على يديه قبل أن تجتمع عليه العرب » . الا أن عمه أبا طالب لم يتسرع في ذلك بل نصح النبي صلى الله عليه

وسلم مراراً عديدة فقال له أخيراً : « والله ياعمّ لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هـذا الامر مافعلت حتى يظهره الله أو أهلك دونه »

الهجرة

فلما رآى عمه منه ذلك تركه يدعو الناس جهراً الى أن اشتدّ غضب القوم عليه فسخروا به وأهانوه هو ومن اتبعه إهانة علانية حتى ضيقوا عليهم الأبواب والمسالك فلم ينفردوا بتجارة أو شئ يكون . ومع كل فانهم لم يقفوا لهذا الحد بل أضمروا له الشر فأتمروا على قتله غيلةً الا انه أوعز أخيراً لأصحابه بالهجرة حيث اخذوا فى المهاجرة سراً زرافات ووحداناً الا عمر بن الخطاب فانه قد أعلن هجرته فلم يتعرض اليه وقتها أحد من الاعداء لعلوّ مكانته لديهم ثم بعد ذلك تبعهم النبي صلى الله عليه وسلم مع أبى بكر الصديق حتى وصلا بلدة (قباء) فى يوم الاثنين الثامن من شهر ربيع الأول الذى ابتدأ منه تاريخ الهجرة وهو التاريخ الاسلامى بعد ان مضى على الرسالة ثلاثة عشر سنة بالتمام . وقد بنى بتلك المدينة مسجداً للصلاة فيه ثم قام مع أصحابه وقصد المدينة فقوبل بالاحترام الزائد والميل الشديد وبعد أن استقر فيها أخذ فى تبليغ رسالته سيئاً فشيئاً بعد ان أظهر جملة معجزات لاضرورة لذكرها الآن فآمن به الكثير بل الألوف والملايين وأصبحت دولة الاسلام وقتها أبلغ وأمنع دولة فى العالم الى أن اعتراه مرض شديد ألزمه الفراش فى السنة الحادية عشر ولكنه مع ذلك لم يتغافل عن رعاية المسلمين بما جبل عليه من الشفقة والحنان حتى أنه لم يكترث بمرضه بل خرج من منزله مسنداً بين الفضل بن العباس وعلى بن أبى طالب قاصداً المسجد الذى حينما وصله صعد المنبر وحمد الله ثم قال : « أيها الناس من كنت جلدت له ظهراً فهذا ظهرى فليستقدّ منه ومن أخذت له مالاً فهذا مالى فيأخذ منه ولا

يخشى الشحناء من قبلى فانها ليست من شأنى » . ثم نزل بعد ذلك وصلى بالناس وعاد ثانية للمنبر وتلا ماتلاه أولاً فقام رجل من بين الحضور وادعى عليه بثلاثة دراهم فأنقدها إياه ثم عاد لمنزله وامتنع عن الخروج ثلاثة أيام بعدها توفى صلى الله عليه وسلم . وكان ذلك يوم الاثنين اثنى عشر ربيع الأول (٨ يونيه سنة ٩٣٢ ميلادية) فغسلوه وكفنوه فى ثلاثة أثواب ثم حفروا له تحت فراشه ودفنوه ليلة الأربعاء وله ثلاثة وستون سنة قمرية وثلاثة أيام

توفى عليه الصلاة والسلام بعد ان نال ما تمناه من هداية الناس وتبليغ رسالته المحصورة فى كتابه الكريم أعنى به (القرآن الشريف) الذى هو أكبر معجزة للنبى العربى الهاشمى الامى الذى لا يعرف قراءة ولا كتابة فضلا عن انه الف بين قلوب متنافرة وأهواء مختلفة وأمم متفرقة وقبائل متباغضة حتى أوجد ما أوجده من الوحدة القومية والجامعة الدينية اللتين كانتا على الخصوص سلما لوضع حكومة اسلامية عادلة جمعت بين الدستور والشورى والحرية الشريفة . تلك التى لأجلها جعل الله الدين الاسلامى خاتم الأديان كما جعل محمداً خاتم النبيين أجمعين

ومن نظر لذلك الدين بقلب خالى من الغايات منزه عن الأغراض لرآه مطابقاً للفطرة الانسانية التى يستريح لها الضمير ويجنح لها القلب السليم لأنه يأمر الانسان أن يعمل لدنياه كأنه لا يموت أبداً ويعمل لآخرته كأنه يموت غداً بمعنى انه جمع معاً بين حاجيات الدنيا والآخرة . ذلك الذى ساعد فى الغالب على انتشاره بتلك السهولة الزائدة والسرعة الغريبة التى حارت فيها العقول واندهشت لأجلها كافة الأمم والدول

وفى الحقيقة نحن لو نظرنا الأديان السماوية لوجدنا ان اليهودية دين دنيوى محض يقضى بأن يعامل الانسان أخاه السن بالسن والعين بالعين . والنصرانية

دين أخروى محض يقضى على الانسان أن يتحمل كل شئ ويصبر على كل مكروه حتى اذا ضربه أحد على خده الايسر يدير اليه خده الأيمن فضلاً عما قضى به على الانسان من أن يترك الدنيا ويزهد فيها كل الزهد بدليل قوله : «اتركوا مالقيصر لقيصر ومالله لله » • اما الدين الاسلامى فقد جمع بين هذا وذاك فصار ملائماً للطبيعة البشرية والفطرة الأصلية فانتشر وساد بين الامم فى وقت وجيز حتى وانه لم يزل للآن آخذاً فى الازدياد بدرجة ليس لها مثيل فى قصص الأولين والآخرين

وقد كان بودى ان أخوض عباب البحث فى الدين الاسلامى فأضع هنا للاسلام شرحاً عاماً عسانى أقوم بأجل خدمة للمسلمين خاصة وللناطقين بالضاد عامة بل لكافة الخلق أجمعين الا انى استحسنت أن يكون ذلك فى تاريخ قائم بنفسه لا تابعاً لغيره فأجلت الاشتغال به الى حين • أما ما ذكرناه عن الأمة السامية فهو خلاصة مايقال ولو ان هناك أمم أخرى قد قامت قائمتها فى الارض فامتلكت آلافا من البلاد وملايين من العباد الا ان ماذكرناه هو أهم شئ يستريح له الجنان ويميل لمعرفته الانسان حتى آخر لحظة من حياته • وسنبتدئ الآن بذكر تاريخ الأمة الحامية فنقول

الفصل الخامس

العشيرة الحامية

هذه هى العشيرة التعيسة بل الأمة التى ما قامت لها قائمة الا واخذت بعد قليل فى القهقرى كأن نجمها من أتحس النجوم حتى وان الله سبحانه وتعالى قد سجل عليها المذلة والمسكنة والهوان تسجيلاً أبدياً فصارت تئن تحت نير العبودية من عهد ان خلقها الله الى الآن

نعم قد كانت العشيرة الحامية فى إبان نشأتها ذات تقدم وفلاح وقوة عظيمة وصولة عجيبة حتى وانها أنشأت أقدم الدول الملوكية وسارت فى معارج الفلاح سيراً سريعاً مناسباً للمعيشة الأولى • ذلك الذى كان بهمة أبيها حام بن نوح الا ان الأمر قد انعكس عليها أخيراً عند ما كثر نسل أخويه سام ويافث الذين اختلطوا بالعشيرة الحامية فتنازعوها البلاد والمعيشة الدنيوية الى ان دارت الدائرة عليها أخيراً فاستعبدوها وطردوها من بلادها التى كانت اتخذتها اولاً موطناً لها بقارة آسيا • لذلك هاجرت من تلك البلاد وقصدت أقاليم أفريقا واستوطنتها ولو انها أنشأت فيها دولاً عظيمة بلغت شهرتها عنان السماء كدولة الفراعنة أعنى بها الدولة المصرية التى كانت فى مقدمة الجميع الا ان ذلك لم يلبث قليلاً حتى عادت الأمة الحامية لحالتها الأولى من الشقاء والاستعباد • وعلى العموم فاننا اذا سمعنا أو رأينا فى الأمة الحامية أو بعضها شيئاً من الاستقلال والحرية التامة والكلمة النافذة فلا يمكننا أن نقطع بدوام ذلك حيث أن الأمة المذكورة على مايظهر معرضة لمكروب الاستسلام والضعف والاستعباد على الدوام

وقد اختلف المؤرخون فى أسباب ذلك حيث عزوه لأوجه كثيرة لاضرورة لذكرها فى هذا المقام غير ان أهمها ما ورد بالكتب الدينية فتمسك به أغلب اللاهوتيين وجعلوه عمدة بحثهم فى هذا الموضوع حيث قيل ان نوح الذى هو أبو البشر بعد الطوفان كانت عورته قد انكشفت فأبصرها ابنه حام فضحك عليه وعرض عنه وانطلق فأخبر أخويه سام ويافث اللذين أسرعا فسترا عورة أبيهما برداء دون أن ينظراها فلما استيقظ أبوهم وعلم بذلك غضب على ابنه حام غضباً شديداً ودعا عليه بأن يكون عبداً خادماً لاخويه سام ويافث فاستجاب الله نداءه حيث وقت ذلك كان قد كثر نسلهم جميعاً فاتحد الساميون واليافثيون ضد الحاميين الى أن استعبدوهم استعباداً استمر من وقتها للآن

على اننا ماذكرنا هذه الرواية على علاتها اعتقاداً بأنها سبب الاستعباد الذى صار أليف الحاميين بل ذكرناها تبصرة وذكرى للناس أجمعين نظراً لما فيها من إشارة حكمية محسوسة يجدر بالانسان ان يعيها فى صدره على الدوام ألا وهى احترام الوالدين وآداء ما يلزمهما من راحة وسعادة مهما كانت خصالهما وفعالهما

نذكر ذلك لحضرات القراء وهم أدرى بما وصل اليه حال بعض أبناء هذا الزمان من العبث بوالديهم والاستهزاء بهم خصوصاً اذا كان هناك بعض اختلافات فى المعيشة والاخلاق فان الاولاد ينقلبون على آبائهم انقلاب الساخط على سوء حاله بل الكافر بالنعمة شأن كل من يأتى الرزيلة بكافة معانيها • ذلك مالاحظناه بأنفسنا وسمعناه غير مرة بآذاننا فانتهزنا الفرصة فنوّهنا عنه فى هذا المقام مختتمين ذلك بأبلغ ماقيل فى هذا الموضوع وأقل مايلزم للوالدين على كل ولد حيث أمره الله تعالى بقوله : « فلا تقل لهما أفّ ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريماً • وخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيراً »

ولندع ذلك ونتركه للفرص المناسبة اليه ونعود للأمة الحامية التي تناسلت من حام بن نوح الذى لم يكن معلوم من أولاده الا الأربعة الأولاد المذكورين بعد :

١ ـ كوش • وهو أبو الايتيوبيين الذين هم أسلاف الحبش والمعروفين عند المؤرخين بأنهم أبو السودانيين

٢ ـ مصرايم • وهو أبو المصريين الذين بلغوا مبلغاً عظيماً فى المدنية والارتقاء كما أنبأتنا به متروكاتهم القديمة التي تركوها فاستكشفها المتأخرون وتواجدت بين أيدينا الآن

٣ ـ فوت • وهو أبو الاقوام الليبيين الذين استوطنوا الجهة الشمالية من بلاد

أفريقا المعلومين لدينا الآن باسم (المغاربه)

٤ ــ كنعان • وهو أبو الفينيقيين أعنى بهم الصوريين وأغلب سلف القبائل التى كانت قاطنة ببلاد فلسطين الشهيرة ببلاد المقدس قبل أن يأتيهم الاسرائيليون من البلاد المصريه

الدولة المصريه

هؤلاء الاربعة هم أولاد حام بن نوح الذين تكونت منهم الأمة الحامية حيث كان لكل منهم عشيرة مخصوصة بل دولة قائمة بنفسها أشهرها الدولة المصرية التى تركت لنا على سطح الأرض العمارات الفخيمة والآثار العظيمة فضلاً عن الجثث البالية والأدوات المنزلية العتيقة والتماثيل المدفونة بباطن الارض المشتملة على بعض التواريخ المكتوبة بالخط الهيروغليفى الذى كان لسانهم فى الازمنة القديمة حيث امتلأت بها أغلب الانتيكخانات الموجودة فى كافة المدن الشهيرة بعموم الدنيا خصوصاً الانتيكخانة الخديوية المصرية الكائنة بجوار قصر النيل بمصر التى اشتملت على كثير من الآثار المصرية القديمة

نعم لم يكن للبلاد المصرية تاريخ مضبوط يمكن التعويل عليه الا ان تلك الآثار قد أعانت علماء التواريخ على أن يضعوا تاريخاً مصرياً ولو انه ربما لايكون منطبقاً على الحقيقة الا أنه أقرب للصواب ومنتهى مايصل اليه البحث فى أمر المصريين ذلك لانهم كانوا يؤرخون حوادثهم الوقتية تارة من ابتداء السنة التى يموت فيها الملك السلف وتارة من أول اليوم الذى يعمل فيه مهرجان الملك الخلف دون أن يكون بين التاريخين رابطة أو اشارة لشئ يحفظ النسبة بين التاريخين أو بالحرى بين كافة التواريخ التى تقلبت على الدولة بتقلب الحكام والامراء والملوك • ومع كل ذلك فمن مبلغ ماوصل اليه البحث ومن منتهى ماأوجده العلم يمكننا أن نقسم تاريخ مصر الى ثلاثة أدوار أصلية وهى : الدور الجاهلى والدور المسيحى والدور الاسلامى ندرجها كالآتى بالتدريج :

﴿ الدور الجاهلى ﴾

هذا الدور هو أول دور تواجدت فيه الأمة المصرية عقب مهاجرة الحاميين من بلاد آسيا كما وأنه عبارة عن أربعة وثلاثين عائلة ملوكية لبثت حاكمة على مصر نحو ٥٤٢٥ سنة تقريباً نذكرها كالآتى :

﴿ العائلة الاولى ﴾

يظهر ان الحاميين لما هاجروا لبلاد أفريقا واستوطنوا البلاد المصرية كانت مقاليد أمورهم فى أيدى الرؤساء الدينيين الذين كانوا يديرون شؤون الرعية ادارة بسيطة دون أن يكون لهم قانون أو هيئة حاكمة تسعى فى تقدم البلاد والعباد وتحميهم وقت الحاجة فيما لو نزلت عليهم نازلة أو غارت عليهم أقوام آخرون من المجاورين لهم أو من أعدائهم قريبين كانوا أو بعيدين . ذلك مالبثوا عليه زمنا طويلا حتى انتبهت اليه الامة بأجمعها فقام معظمها قومة واحدة تحت زعامة أحدهم المدعو (مينيس) وتطلبوا ان تكون الرئاسة الدينية منحصرة فى الكهنة أما الادارة والسياسة فلا يتعرضون لها على الاطلاق بل تكون خاصة بالامة فقط حتى بعد ان انتهى الامر بتأييد ذلك كان من سعد مينيس المذكور ان الامة اختارته ملكاً فأقامته عليها بعد عناء شديد لاقته من اولئك الكهنة حيث وقت ذلك ابتدأت العائلة الاولى التى كان ملوكها تسعة حكموا (٢٥٣ سنة تقريباً) أولهم مينيس البادئ ذكره الذى كان مولده بمدينة تينيس أو طينة الموجودة بقرب العرابة المدفونة بجوار جرجا حيث لما اعتلى سرير الملك اختط مدينة منف المعروفة الآن باسم (البدرشين وميت رهينة) . واتخذها قاعدة لملكه وأقام حولها جسراً معروفاً الآن بجسر قديشه . وكان يعبد إلها يسمى (فتاح) فبنى له هناك معبداً عظيماً . وقيل انه هو الذى افتتح بلاد ليبيا التى كانت سبباً لاتساع مملكته فى ذلك الوقت

ولما مات مينيس المذكور استلم زمام الملك بعده ثمانية ملوك أولهم أخوه

(تتا) الذى كان متبحراً فى الفنون الطبية . ثم بعد هذا الملك لم يبق من الملوك الآخرين أحد يستحق لذكر غير الملك (ونيفس) الذى قيل بأنه بانى هرم (كوكمة) الموجود بقرب الهرم المدرّج بسقاوة

﴿ العائلة الثانية ﴾

هذه العائلة كانت من مدينة تينيس أيضاً ويظهر انها كانت من أقارب العائلة الاولى لان المؤرخين لم يميزوهما عن بعضهما بشئ بل كثيراً مايخلطونهما ببعضهما كأنهما عائلة واحدة وعدد ملوكها تسعة حكموا (٣٠٢ سنة) . ومن ملوكها الذين يستحقون الذكر الملك (بينوتريس) الذى يظهر انه كان ذا شمم عالى حتى أداه ذلك للادعاء بأن بينه وبين الآلهة نسباً . وهو الذى كان أول من أعطى النساء الحرية التامة حتى خوّلهن حق الجلوس على سرير الملك اذا لم يكن للملك المتوفى أولاد ذكور

ومن ملوكها الملك (استنس) الذى كان طبياً ماهراً . وعلى العموم فان هذه العائلة قد تمكنت من جمع شتات المصريين وتوحيد كلمتهم حتى صاروا أمة واحدة فى أيام ملوكها

﴿ العائلة الثالثة ﴾

هذه العائلة كانت من مدينة منف وملوكها تسعة حكموا (٢١٤ سنة) أولهم الملك (نخروفس) الذى قامت ليبيا فى أيامه فشقت عصا الطاعة فأعادها اليه ثانية بعد ان قامت بينهما الحروب التى انتهت بالتسليم . ثم قام بعده الملك (نوسرترس) وكان طبيباً حاذقاً انتفع الناس بطبه حتى القرن الاول للتاريخ المسيحي . أما باقى الملوك فلم يعلم لهم تاريخ غير ان صنائعهم وتماثيلهم ومعابدهم كلها تشير لأن الدولة كانت فى أيامهم زاهية زاهرة كما وان أكبر آثار أقاموه هو التمثال المشهور باسم (أبو الهول) الموجود بجوار اهرامات الجيزة حيث جعلوا جسمه جسم

أسد ورأسه رأس انسان إشارة لما بلغت اليه الدولة فى أيامهم من القوة والعقل فضلاً عما ينسب اليهم من أنهم هم أول من استأنسوا الحيوانات المتوحشة فى ذلك الوقت فاستخدموها فى مصالحهم الخصوصية والعمومية • وكان آخر ملوك هذه العائلة هو الملك (سنفرو) الذى كان ذا عدل وبرّ واحسان وعزم وحزم وصبر على الفتوحات ومغالبة الثائرين حيث قهر بلاد جبال الطور واستولى على أراضيها وبنى فيها الحصون والقلاع واستخرج منها المعادن وعمل لنفسه تمثالاً نقش عليه اسمه حيث كان موجوداً ضمن صخور جبل الطور فعثروا عليه

﴿ العائلة الرابعة ﴾

هذه العائلة هى من مدينة منف أيضاً وملوكها أربعة عشر ملكاً حكموا ٢٨٤ سنة منهم الملك (خوفو) الذى جمع بين الشجاعة والصناعة فبنى أكبر اهرام فى الجيزة الذى تفتخر به مصر على سائر الامصار • ويقال انه بناه فى ثلاثين سنة اشتغل فيه مايزوف عن مائة ألف رجل كانوا يشتغلون بالمناوبة كل ثلاثة أشهر

ومنهم الملك (خفرع) الذى بنى الهرم الثانى الموجود بجوار هرم خوفو

ومنهم الملك (منكورع) الذى بنى هرم الجيزة الثالث وكان هذا الملك محبوباً عند الشعب أكثر ممن تقدمه وقيل بأنه كان عالماً فى الدين والأدب

ومنهم الملك (سبسكاف) وكان فقيهاً عالماً فابتدع فنّ الهندسة ورصد الكواكب وسنّ القوانين فى ذلك الوقت

وعلى العموم كانت هذه العائلة سبباً لنهوض الامة المصرية الى أوج العلا فبلغت فى أيامها مبلغاً عظيماً من العظمة والثروة الداخلية والتنعم الزائد فى المأكل والمشرب والملبس والفرح والطرب حتى وأنهم كانوا مغرمين دائماً بالصيد والقنص

﴿ العائلة الخامسة ﴾

قام من هذه العائلة تسعة ملوك حكموا ٢٤٨ سنة منهم الملك (سحورع) الذى بنى هرماً شمالى قرية أبى صير

ومنهم الملك (أغوسر) الذى بنى له هرماً فى أبى صير أيضاً ودفن فيه بعد موته فضلاً عن أنه كان قد غزا جزيرة جبل الطور وانتصر عليها انتصاراً عظيماً

وعلى العموم فقد كانت الدولة المصرية آخذة فى الارتقاء أيام هذه العائلة كما كانت أيام العائلة السابقة

﴿ العائلة السادسة ﴾

قام من هذه العائلة ستة ملوك حكموا ٢٤٣ سنة منهم الملك (مرنرع) الذى اتخذ مدينة أصوان قاعدة لمملكته وقيل أنه كان محباً للزراعة والتجارة حتى وأن المحصولات تضاعفت فى أيامه ففتح طريقاً تجارياً بين قفط والبحر الأحمر فضلاً عن سياسته الداخلية والخارجية التي كانت سبباً لتقدم البلاد فى ايامه . وكانت خاضعة له جهات طورسينا وليبيا والنوبة والحبشة . ثم بعد أن مات خلفه ابنه (مرنرع الاول) وهو أول من أدخل صناعة السفن بالبلاد المصرية

ومن ملوكها الملكة (نيتوكريس) المشهورة فى التواريخ بأنها الحسناء ذات الخدود الوردية ـ وقد أطرى فى وصف جمالها وكمالها المؤرخ مانيتون المصرى خصوصاً المؤرخ الشهير هيرودوت اليونانى حيث كانت فى الحقيقة بالغة منتهى الحسن والجمال والقد والاعتدال . تلك التي استلمت زمام الملك بناء على ماقرره بيتوتريس أحد ملوك العائلة الثانية كما نوهنا عنه أولاً ـ وكان لتلك الملكة أخ اتخذته بعلاً لها فقتله بعض رجال الدولة قبل أن يستلم زمام الملك لكنها لما استلمته أضمرت فى نفسها الشر لقاتلى أخيها فاصطنعت لاجل ذلك

سرداباً تحت الارض يصل بين النيل وبين محل أعدته لوليمة دعت اليها بعضاً من الاعيان ورجال الدولة الذين كان من ضمنهم قاتلوا أخاها • فلما اجتمع الجمع فى قاعة الوليمة فتحت باب السرداب من جهة النيل فانطلق الماء اليهم فأغرقهم أجمعين • أما هى فقتلت نفسها بنفسها عقب تلك الحادثة المؤلمة التى بعدها ثارت الفتن فى داخلية البلاد • وعلى العموم فان الدولة المصرية فى عهد هذه العائلة كانت سائرة فى التقدم والارتقاء سيراً لايفوقه سير العائلات المتقدمة خصوصاً فان فن الرسم صار إتقانه فى أيام هذه العائلة إتقانا فاق أنواع الرسومات القديمة بحيث أن من تعود معاينة الآثار المصرية يقدر على تعيين أى رسم كان من رسوم هذه العائلة

﴿ العائلة السابعة والثامنة والتاسعة والعاشرة ﴾

هذه العائلات حكمت ٤٣٦ سنة ولم نعلم شيئا عن تاريخها لطموس أخبارها الا أن قاعدة الملك مدة العائلتين الأولتين كانت منف ومدة العائلتين الأخيرتين كانت اهناس المدينة • والى هنا انتهت تلك العائلات الملوكية بل الدولة المصرية الأولى كما اتفق على ذلك أغلب المؤرخين ولو أن تقدم البلاد أخذ يتقهقر فى آخر عهدهم الا أننا لانبخس الناس أشياءهم من جهة مابذلوه فى سبيل خدمة البلاد والعباد وما قاسوه وعانوه من المتاعب والمصاعب والشقاء حتى ألبسوا البلاد المصرية لباساً جعلها تفتخر به على مجاوريها وذويها من الممالك الاخرى • قال المؤرخ الأثرى الشهير — ماريت بيك الذى كان ناظراً للانتيكخانة المصرية — مانصه : « ولعمرى ان المنظر الذى يظهر من حال مصر فى عهد الدولة المصرية القديمة (أعنى الدولة الاولى) لهو جدير جداً بأن يقف عليه الناظر البصير • وذلك أنه بينما كان سكان سائر جهات الارض المعمورة فى تلك الحقبة منغمسين فى ظلمات التوحش والبداوة وكان أشهر الملل والأمم الذين

صار لهم فى ما بعد فى المصالح الدنيوية من العناية والمدخلية المنصب الاعظم لم يزالوا بعد متلبسين بالحالة الوحشية كانت سواحل نهر النيل تظهر لعين الرائى فى منظر حسن جميل ومرآى زاه زاهر جليل تغذّى قوماً من الناس فى سالف تلك الحقبة أولى حكمة وتمدن وأدب • ودولة ذات شوكة قوية تعتمد على حسن ترتيب هائل من أرباب المناصب الذين يحكمون فى البلاد بكل نشاط وعدالة » • انتهى بعض تصرف

العائلة الحادية عشر والثانية عشر

هاتان العائلتان حكمتا ٢١٣ سنة وعدد ملوكها أربعة وعشرون ملكا أولهم (أنتف عا) الذى استولى على الملك بالقوة والمغالبة نظراً لسطوته وعلوّ همته مع انه لم يكن من سلالة الملوك • وقد بنى هرماً من الطين فى الجهة المعروفة بذراع أبى النجاء بمديرية قنا وعمل له فى وسطه ضريحاً متقناً دفن فيه بعد أن توفاه الله

ومن ملوك هذه العائلة الملك (أنتف الرابع) الذى استتبت الفتن قليلا فى أيامه بما جبل عليه من الحكمة والبطش فضلاً عن أنه أقام مسلة بالقرب من العرابة المدفونة

ثم تولى بعده (منتوحتب الرابع) الذى انتهت الفتن الداخلية على يديه فاستقلّ بالملك جميعه فى الوجه البحرى دون أن يكون له شريك أو منازع بخلاف من حكم قبله من هذه العائلة فانهم ما كانوا ملوكاً مستقلين بالتمام

وتولى بعده « سنخ كارع » الذى كانت له اليد البيضاء فى اتمام الطريق التجارية التى كان شرع فيها الملك مريرع أحد ملوك العائلة السادسة حيث سارت فيها القوافل التجارية القادمة بالبضائع والسلع من بلاد الهند والعرب من وقتها حتى عصر اليونان والرومان • وقد قيل ان معظم آثار هذه العائلة

من عمارات وخلافها لايزال محجوباً فى تلك الجهة المعروفة بذراع أبى النجاء ولكن يظهر انها لاتدل على براعة أو اتقان فى الصنعة أو تقدم فى المدنية • قال المؤرخ الاثرى ماريت بيك البادى ذكره : « تلك العمارات — أعنى عمارات هذه العائلة — لم يزل يتظاهر عليها اشارات الغشامة والقساوة ويتبادر منها علامات الغلظ والبداوة • وبالاطلاع عليها يظن الناظر اليها أن الدولة المصرية فى عهد العائلة الحادية عشر الملوكية قد عادت تستأنف ما كانت قد تلبست به من حالة الطفولية فى عهد العائلة الثالثة الملوكية »

أما العائلة الثانية عشر فأول ملوكها هو (أمنمحعت الاول) الذى قهر كافة من كانوا سبباً فى هيجان أو ثورة تحصل فى البلاد المصرية الذين هم كانوا عبارة عن عصب من أهالى ليبيا والنوبة وآسيا تجمعوا لقتاله فى مدينة منف وحاربهم الى أن قهرهم وانتصر عليهم وأزال ما كان يحصل من تلك الثورات وذلك الهيجان • وكان رجلاً عاقلاً حكيماً وشجاعاً مقداماً حتى صرف أيامه فى خدمة الدولة مادياً وأدبياً

وقبل وفاته ولى ابنه (أوسرتسن الاول) وهو صاحب المسلة المشهورة فى المطرية وكان أقام بجانبها مسلة أخرى شاهدها المؤرخ عبداللطيف البغدادى الا أنها فقدت ولم يبق لها أثر للآن • أما المسلة الأولى فلم تزل موجودة بالمطرية منقوشاً عليها بالقلم المصرى القديم ماملخصه : « ان الملك المنصور حياة كل موجود سلطان الوجه القبلى والبحرى صاحب التاجين وسلالة الشمس (أوسرتسن) المحب لمعبودات المطرية دام بقاه قد نصب هذا الأثر فى مبدأ العيد الرسمى تخليداً لذكره واحياء لهذا العيد » • فضلاً عن ذلك قد نصب مسلة أخرى فيما يحازى قرية بجيج بجهة الفيوم • وقيل بأن هذا الملك أيضاً من أول المؤسسين لهيكل طيبة أعنى به هيكل الأقصر (وقد شاهدته بنفسى فى أوائل

سنة ١٩٠٠ ميلادية عندما كنت مسافراً للسودان حيث وقتها زرت هذا الهيكل فرأيته فى الحقيقة يدل على قدرة عظيمة وبراعة فى الصنعة خصوصاً فى العلوم الهندسية)

ومن ملوك هذه العائلة (أوسر تسن الثالث) الذى بنى هرماً فى دهشور وشاد قلاعاً كثيرة فى وادى حلفا منها قلعتان تعرفان الآن بقلاع (قمنة . وسمنة)

ومنهم (أمنمحعت الثالث) الذى كانت له اليد الطولى فى حفظ البلاد من آفتين هائلتين وطامتين عظيمتين : أولاهما حصول الجدب والقحط فيما لو كانت زيادة النيل الدورية قليلة . وثانيتهما قلع القناطر وتكسير الجسور وإفساد الترع والخلجان وإغراق القرى والبلدان وبعض من فيها من السكان فيما لو خرج النيل عن مجراه الطبيعى بكثرة مائه وغزارة فيضانه . لذلك اتجهت أفكار هذا الملك فرأى فى الصحراء القريبة من مصر بادية شاسعة الاطراف فى وسطها بقعة منخفضة من الارض تكاد لاتزيد ارتفاعاً عن أراضى وادى النيل تبلغ مساحتها عشرة ملايين من الامتار المربعة فأمر بحفر ترعتين توصلان مياه النيل لهذه البقعة احداهما كانت تبتدئ من النيل بجانبه الغربى وتجرى بمحاذاة بحر يوسف الموجود الآن والأخرى كانت شمالا . وهاتان الترعتان تحملان كافة مياه النيل الزائدة فى كل سنة وتلتقيان أخيراً حيث تصبان فى تلك البقعة الفسيحة التى عرفت ببركة موريس ولكن لم يكن لها أثر للآن فضلا عن عدم معرفة موقعها الأصلى بالتمام . وبجوار بحيرة موريس بناء هائل يعرف باسم (لابرانتا) واسمه بالمصرية (لابوراحونت) أعنى معبد فم البحر كان بناه هذا الملك ليجتمع فيه مجلس الأعيان من عموم الكهنة حيث كان فى هذا المعبد رحبات تشتمل على ثلاثة آلاف غرفة يحيط هذا البناء سور من الخارج عليه جملة نقوش

وعلى العموم فقد كان عصر هذه العائلة الملوكية على الديار المصرية عصراً سعيداً فانتظمت أحوال الدولة واستتب الامن فى داخليتها وازدادت رفاهيتها واتسعت سلطتها وكثرت توابعها وعلت كلمتها لدى عموم الممالك الاجنبية • الامر الذى ساعدها على إنشاء بعض العمارات الاثرية العجيبة والابنية القريبة التى تضاهى فى بعض الاحيان عمارات العائلة الملوكية الرابعة • قال المؤرخ الشهير فرنسيس لونورمان ماملخصه : « لانزاع فى أن عصر العائلة الملوكية الثانية عشر قد كان فى تاريخ الامة المصرية من أعظم الاعصار لبلوغها أوج الافتخار والازدهار »

﴿ العائلة الثالثة عشر ﴾

هذه العائلة حكمت ٤٥٣ سنة وملوكها ستون لانعلم عنهم شيئاً من التاريخ سوى أن أحدهم المدعو (سيبخوطيب ـ أو ـ نيفروطيب) الذى ترك آثاراً كتابية على صخور شاخة صعبة التسلق عند ضفة النيل بالقرب من قلعة سمنه • تلك الآثار التى تشير لدرجات ارتفاع مياه النيل فى السنة الثالثة من حكم الملك المذكور مما لو قورن بارتفاع مياه النيل فى هذه الايام لكان أقل ارتفاع للنيل فى تلك الازمان يزيد سبعة أمتار عن أعلى ارتفاع فى هذه الايام فليتأمل المتأملون ••

﴿ العائلة الرابعة عشر ﴾

هذه العائلة حكمت ١٨٤ سنة وملوكها خمسة وسبعون ملكاً لانعلم عنهم شيئاً سوى أن قاعدة المملكة وقتها كانت مدينة (خيس) الموجودة فى منتصف الدلتا ويقال لها الآن (سخا)

﴿ العائلات الخامسة عشر والسادسة عشر والسابعة عشر ﴾

﴿ أعنى دولة الرعاة أو الهالقة ﴾

هذه العائلات حكمت ٥١١ سنة والعائلة الخامسة عشر مؤلفة من ملوك

الرعاة الذين كانوا أتوا مصر مع بعض قبائل العرب والشام الرحالين النزالين بسبب ماوجدوه فيها من الفتن والانقسامات الاهلية فى ذلك الوقت . وكان أقواهم فى العصبية القوم المعروفون بالحشيين المتناسلين من أولاد كنعان بن حام فلما أتوا مصر وغاروا عليها تغلبوا على المصريين وأدخلوهم تحت طاعتهم بعد أن ساموهم العذاب ألواناً وعاثوا فى البلاد فساداً وعاملوهم معاملة وحشية بفظاظة غليظة حتى وأنهم ضماً أتلفوا أغلب العمارات الاثرية وسرقوا المعابد بعد أن نهبوا مافيها ثم جعلوا منف عاصمة ملكهم ففر ملوك المصريين الى الصعيد وعلى العموم فانهم استعبدوا المصريين وفعلوا بهم فعل التتار ببلاد الصين . ذلك الذى يعبر عنه فى التواريخ الافرنجية بغارة ملوك الرعاة على الديار المصرية المعلوم عند المؤرخين المسلمين بملك العمالقة على ديار مصر

وكان ملوك العمالقة ستة أولهم (سلاطيس) الذى اتخذ الحيطة من المصريين والاجانب فشيد الحصون وبنى القلاع وعند الجند العظيم ثم تداول خلفاؤه الملك بعده واحداً بعد واحد ومدة حكمهم جميعاً ٢٦٠ سنة

وهؤلاء الرعاة أو العمالقة كانوا فى بادئ أمرهم مستبدين يسومون المصريين أنواع العذاب الا أنهم أخيراً تخلقوا بأخلاق المصريين وتطبعوا بطباعهم الاهلية فحصلت الألفة وتواجد الاتحاد فتنازلوا عن تلك المعاملة الوحشية بأن قربوا اليهم المصريين واستخدموهم فى مصالح الدولة واعتنوا بالبلاد اعتناء زائداً فبنوا المدارس والمعابد ونشروا العدالة فازدادت ثروة البلاد زيادة دلت وقتها على تقدمها مالياً وأدبياً . ذلك الذى جبب اليهم الاهالى قاطبة فخضع اليهم الوجه القبلى خضوعاً تاماً حيث كان ينازعهم الملك أولاً فأصبحت البلاد المصرية كلها فى حوزتهم وتحت سلطانهم وإمرتهم

ثم بعد هذه الدولة قامت دولة الرعاة الثانية وهى العائلة السادسة عشر

التى عدد ملوكها اثنان وثلاثون لانعلم شيئاً عنهم سوى الملك المدعو (أيابى أعاكنن) عند المصريين أما المؤرخ مانيتون فيدعوه (آبو فيس) والعرب يدعونه (الريان بن الوليد) الذى فى أيامه نزح الى مصر كثير من أهل الشام فاستوطنوها ولكنهم حافظوا على لغتهم محافظة شديدة . وقيل فى أيامه حضرت السيارة التى باعت يوسف الصدّيق الى عزيز مصر كما شرحنا ذلك أولاً فى تاريخ الامة السامية

أما العائلة السابعة عشر فكانت الحكومة المصرية فى أيامها منقسمة الى حكومتين احداهما حكومة وطنية بيد المصريين وقاعدة ملكها (طيبة) والثانية حكومة أجنبية بيد الرعاة وقاعدة ملكها (صان) . وعدد ملوك هذه العائلة ٤٣ ملكاً لانعرف عنهم شيئاً سوى أن أقصى ماوصل اليه العلم هو أنها لم تنته حتى انتهى معها حكم الرعاة أعنى بهم العمالقة

﴿ العائلة الثامنة عشر ﴾

هذه العائلة حكمت ٢٤١ سنة عدد ملوكها أربعة عشر ملكاً منهم (أحمس) ويسميه المؤرخ المصرى مانيتون باسم (أموزيس) الذى كان فى أول نشأته غيوراً على وطنه فسعى وراء محالفة ملك إيتيوبيا لكى يستعين به على طرد العمالقة من البلاد المصرية . وقد ثبت تلك المحالفة بأن تزوج ببنت ذلك الملك حيث من عهدها أخذ يغالب العمالقة حتى ظفر بهم واستولى بطريق القوة على قاعدة ملكهم وأدخل تحت طاعته سائر البلاد المصرية لغاية حدود أرض كنعان . أما ملوك العمالقة ورؤساء عائلاتهم فقد فرّوا هاربين الى بلاد آسيا ومن بقى من عائلاتهم فقد رخص لهم الملك بالبقاء الا أنه أخيراً عاملهم معاملة قاسية حيث كانوا يشتغلون فى قطع الأحجار من محاجر طره لبناء وتجديد كثير من المعابد والعمارات الفخيمة التى دلت على أن أيامه

كانت أيام سعادة وابتهاج خصوصاً لانه أعاد الملك للمصريين الوطنيين فكان ذلك أعظم فخر يستحقه هذا الملك العظيم

ومن ملوك هذه العائلة الملك (أمنحتب الاول) الذى كان عادلاً مسالماً تزوج بابنة ملك ايتيوبيا وجثتاهما موجودتان الآن فى الانتيكخانة المصرية

ومنهم (تحوتمس الاول) الذى كان شجاعاً محارباً فاتسعت فى أيامه الدولة المصرية اتساعاً مهولاً . وقد شاد معبد أمون فى الكرنك ومسلتين إحداهما لاتزال الى الآن عند باب المعبد المذكور أما الثانية فلم يكن لها أثر فى الوجود

ومن ملوكها (تحوتمس الثالث) الذى كان على جانب عظيم من الشجاعة والسياسة حتى لقبوه بالسلطان الأعظم ولو أن أيامه كلها كانت أيام حروب وكروب وشدائد نظراً لخروج أكثر بلاده عن طاعته الا أنه قهرها وأعادها كما كانت حتى بعد وفاته كانت فى حوزته الحبشة والنوبة والشام والجزيرة والعراق العربى وكردستان وأرمينيا وجزيرة قبرص

ومن ملوكها (أمنوفيس الثالث) الذى كثرت فى أيامه القلاقل والفتن فأخمدها بما جبل عليه من الشجاعة والحزم والنشاط والمهابة والوقار . لذلك كان يلقب نفسه بسلطان البرّين وأمير العالمين (أعنى عالم آسيا وعالم أفريقا)

وعلى العموم فان هذه العائلة كان لها شأن عظيم فى تاريخ مصر القديم حيث كانت البلاد المصرية فى أيامها قد قامت من رقدتها فأحيت عزها ومجدها الى أن اتسعت وامتدت سطوتها الى أنحاء بعيدة كما سبق الايضاح

﴿ العائلة التاسعة عشر ﴾

هذه العائلة حكمت ١٧٤ سنة تقريباً وعدد ملوكها ثمانية أولهم (رعمسيس الاول) الذى اعتلا الملك وهو يئن من الثورات الدينية الا أنه أبلى فى ذلك بلاء حسناً حتى توفاه الله

ومن ملوكها (رعمسيس الثانى) الذى قضى أيامه كلها فى حروب وفتوحات وتشييد عمارات وإقامة آثار لايكاد يوجد شئ منها الا وعليه اسمه ورسمه • فالمطلع يحكم لاول وهلة بأنه أعلى وأعظم ملك تواجد فى البلاد المصرية حتى وأنه اجتذب قلوب الرعية فانقادوا اليه انقياداً أعمى ووضعوا فيه الثقة بدرجة العبادة المتناهية وجثته موجودة الآن بالانتيكخانة المصرية • ذلك الذى ظهر لنا من آثاره وأقوال معظم المؤرخين الا انه لم يرق فى عينى المؤرخ الفرنساوى الشهير فرنسيس لونورمان حيث نعته بدناءة النفس والطمع الاشعبي والكبر المتناهى والظلم الجائر والتعدى على آثار من سبقه من الملوك بأن محى من آثارهم أسماءهم ووضع عوضا عنها اسمه كأنه هو مؤسسها وبانيها زوراً وبهتاناً • مستنداً على ذلك بما ورد فى سفر قصة خروج بنى اسرائيل من مصر حيث قيل عنه فى التوراة بأنه الملك الجائر الذى أثقل كاهل الاسرائيليين بأنواع الظلم والاستعباد • فضلاً عن سندات أصلية أثرية وقيودات أهلية مصرية قد ظهرت أخيراً مشروحاً فيها ماكان عليه أهالى مصر من الضنك والكرب أيام الملك المذكور

وبعد هذا الملك كان ابنه (منفتاح الاول) الذى كانت أيامه أيام اختلال واعتلال بسبب ماأتاه والده من الظلم والجور • وقيل بأن هذا الملك أساء للاسرائيليين فسامهم سوء العذاب الى أن قضى الله بخروجهم فأرسل لهم نبيه موسى عليه السلام وكان بينه وبين هذا الملك ماكان مما سطرناه عند التكلم على الامة السامية فى غير هذا المكان

﴿ العائلة العشرون ﴾

هذه العائلة حكمت ١٧٨ سنة وعدد ملوكها اثنى عشر منهم (رعمسيس الثالث) الذى بنى القصر المتسع الكائن بمدينة آبو من طيبة الصعيد

حيث منقوش على واجهة أبوابه صورة الملك المذكور وهو واقف وقفة المحارب الذى يحمى بلاده من غارات الاعداء بكل شجاعة وإقدام • فضلاً عما أتاه من توسيع معبد الكرنك وإصلاح هيكل الاقصر وغيره من مبانى الوجه البحرى مما يدل على انه كان باذلاً جهده فى إعلاء شأن الدولة حتى وان المؤرخين قالوا انه آخر المصريين العظام وخاتم الفراعنة الفخام • ثم تولى بعده ملوك آخرون كانت الدولة فى أيامهم مكسورة الجناح قليلة الشوكة ألعوبة فى أيدى ذوى الاغراض انما الامر الذى يستحق الذكر هو أن تواريخ الحوادث فى أيام العائلات السالفة كان غير منتظم بالكلية حتى وانه لا يمكن بالضبط تعيين زمن ولاية ملك أو عائلة أو حصر المدة التى حصلت فى بحرها كافة الحوادث التاريخية الا انه من بعد ولاية الملك رعمسيس الثالث البادى ذكره انتظم التاريخ انتظاماً زائداً بدليل ماوجده العالم الفرنساوى المشهور باسم (بيوت) فى التاريخ الفلكى المنقوش على جدران ذلك القصر الذى بناه الملك المذكور حيث منه استنبط أن تاريخ تولية هذا الملك كان فى سنة ١٣١٢ قبل الميلاد • وقد عزز ذلك ما دلت عليه نصوص القيودات الهيروغليفية التى استكشفها المؤرخ ماريت بك فى أطلال مدينة منف فيما يتعلق بمدة ولاية الملوك من عهد هذه العائلة بالسنة والشهر واليوم • وتلك القيودات موجودة الآن بمخزن الانتيكخانة المحفوظة بسراية ملوك فرنسا المسماة بقصر لورد بباريس

﴿ العائلة الحادية والعشرون ﴾

هذه العائلة حكمت ١٣٠ سنة وملوكها أربعة أولهم الكاهن (حرحور) الذى انتهز فرصة الاختلال والفتن التى انتابت العائلة السابقة أخيراً فاختلس الملك بطريق منقوش على هيكل (خونسو) بطيبة ثم أعقبه فى الملك ابنه الكاهن (يعنخى) وبعد ابنه الكاهن (بينوزم الاول) الذى تقلبت فى أيامه

الفتن والاضطرابات بسبب الذين صار نفيهم من العائلة السابقة حيث لم يستتب الأمن الا بحضورهم من منفاهم

وفى أيامه حضر النمرود من أشور واكتسح البلاد المصرية فامتلكها وضمها الى بلاده وبعد وفاته صار دفنه فى المرابة المدفونة

﴿ العائلة الثانية والعشرون ﴾

هذه العائلة حكمت ١٧٠ سنة وعدد ملوكها تسعة أولهم (ششنق الاول) وهو ابن نمرود الأشورى البادى ذكره ويدعى فى التوراة باسم شيشاق المتناسل من سام بن نوح الذى استولى على أموال بيت المسجد الاقصى الذى بناه سليمان الحكيم ثم استولى على كافة ما بالقصور الملوكية التي من ضمنها الدروع السليمانية الذهبية المشهورة . وقد نقش صورته على الجدار القبلى لهيكل الكرنك وبجانبه أسماء المدن التى افتتحها مكتوبةً فى ست وتسعين منزلة وكذلك رسم صور الملوك الذين كانوا تحت حكمه ومن ضمنهم الملك رحبعام بن سليمان

وعلى العموم فان مصر تجزأت فى أيام أواخر ملوك هذه العائلة الى أجزاء متفرقة يحكم كل منها حاكم ليبي تحت ادارتهم فاستبد أولئك الحكام الى أن علوا علواً كبيراً فاستقلوا بما تحت أيديهم ولقبوا أنفسهم بالفراعنة

﴿ العائلة الثالثة والعشرون والرابعة والعشرون ﴾

هاتان العائلتان حكمتا ٩٥ سنة ملوكها تسعة أولهم (بتوباستيس) الذى فى أيامه انقسمت مصر الى عشرين اقليماً يتبع كل منها أقسام يتولى على كل منها أمير يرجع فى معضلات أحكامه الى المركز العمومى للاقليم وآخرهم اسمه (بوخوريس) الملقب بالقانونى لقوة ادراكه وبراعته فى ادارة الدولة ولكن خانه دهره فلم يلبث قليلاً حيث قام (سابا كون) ملك إيتيوبيا فقبض عليه وألقاه حياً فى النار فمات وبموته انتهت العائلة الرابعة والعشرون

﴿ العائلة الخامسة والعشرون ﴾

هـذه العائلة حكمت ٥٠ سنة وملوكها أربعة أولهم (سابا كون) البادى ذكره الا أنهم مضوا مدتهم فى حروب داخلية وخارجيه لافائدة من ذكرها ولذلك لم يمكثوا فى الحكم الا قليلاً

﴿ العائلة السادسة والعشرون ﴾

هذه العائلة حكمت ١٣٨ سنة أولهم (بسماتيك) الذى لم يكن من العائلات الملوكية بل بما كان عليه من الجدّ والاجتهاد وحسن السمعة توصل للاقتران باحدى بنات العائلات الملوكية فاكتسب بواسطتها حق التملك حيث وقت أن تولى الملك كانت مصر فى حالة رديئة تئنّ من الضعف الذى أصابها بسبب حروب العائلة السابقة الا أنه بحزمه وعزمه توصل لتوطيد الأمن فأحيا ربوعها وأعاد رونقها اليها بما بناه فيها من المعابد وجدده من التصليحات دفعة واحدة خصوصاً اعتنى اعتناء شديداً بصناعة الحفر والنقش فضلاً عن الحصون والقلاع التى أقامها خوفاً من إغارة الاجانب . وعلى هذا النحو لبث هذه العائلة حتى الملك (بسامتيك الثالث) حيث كانت دولة الفرس وقتها تحت حكم ملكها (قمبيز) الذى كان قوياً طماعاً فاتجهت أفكاره لاكتساح البلاد المصرية فجيش لها الجيوش الفارسية فحصلت بينه وبين بسامتيك المذكور موقعة كبيرة لم تمكن قمبيز من الحصول على شئ الا أنه تمكن من الغلبة على المصريين بحيلة لطيفة مقتضاها أنه وضع فى مقدمة الجيش كثيراً من القطط والبزاة وغيرها من الحيوانات المقدسة عند المصريين الذين لما ان رأوها لم يجسروا على رمى السهام مخافة أن تصيب تلك الحيوانات المقدسة ففرّ المصريون من أمام الفرس قاصدين مدينة منف الا أن الأمر قد انتهى أخيراً بدخول البلاد المصرية فى حوزة الفارسيين أعنى العجم

والذى يجدر ذكره عن هذه العائلة انها كانت أول عائلة تساهلت فى دخول الاجانب تساهلاً زائدالحدّ خصوصاً اليونانيون الذين كثر عددهم وقتما انشئت معامل لتشييد السفن الحربية

﴿ العائلة السابعة والعشرون ﴾

﴿ وهى الدولة الفارسية الاولى ﴾

حكمت هذه العائلة ١٢١ سنة وملوكها سبعة أولهم قمبيز البادى ذكره الذى بعد أن استولى على مصر وأخذ فى تحسينها مال لفتح بلاد ايتيوبيا فأرسل لملكها رسلاً بالهدايا الملوكيه الا أن ذلك لم يغب على الملك المذكور الذى لقنهم بعض كلمات مشتملة على رموز سياسية عند ماسمعها قمبيز احتاطته سورة الغضب فاستقدم الجند وجيش الجيش وسار به من أقرب الطرق بدون أن يكون مستعداً من مؤونة جيشه وأمن طريقه فضلّ فى صحراء كروسكو وهو لايدرى مسافتها فعطش الجيش وجاع حتى أكلوا الحيوانات ثم أكلوا بعضهم بعضاً فعاد قمبيز بصفقة المغبون والشرار يتطاير من عينيه • ولما أن وصل منف كان أهلها يطربون ويمرحون احتفالاً بعيد أحد معبوداتهم فظنهم فرحون لخيبته فأبلى بكهنتهم بلاء حسناً وقتل أخته وكثيراً ممن هم بريئون • وعلى العموم فأن بعض المؤرخين ينسبون له الجنون عقب تلك المسألة المشؤومة

ثم تولى بعده (دارا) ومن مآثره انه سهل للتجارة فازدادت فى أيامه زيادة عظيمة وهكذا لبث الامر حتى (دارا الثانى) حيث به انتهت هذه العائلة وعادت مصر للمصريين

﴿ العائله الثامنة والعشرون ﴾

هذه العائله حكمت سبعة سنين ولم يكن لها الاملك واحد يدعى (أميرتيوس) الذى أقامه المصريون ملكاً عليهم عند تخلصهم من حكم الفارسيين • وتلك المدة

التى مضاها كانت كلها فى اصلاح الناس وترميم المعابد والعمارات

﴿ العائلة التاسعة والعشرون ﴾

هذه العائلة حكمت واحداً وعشرين سنة وعدد ملوكها أربعة ليس فى تاريخهم شئ يستحق الذكر سوى أن الفرس كانوا يناوئونهم الشر والعداء تمهيداً للاستيلاء على البلاد المصرية الا أن تعبهم فى ذلك ذهب أدراج الرياح

﴿ العائله الثلاثون ﴾

هذه العائلة حكمت ثمانية وثلاثين سنة وعدد ملوكها ثلاثة قضوا حياتهم بين حذر ودفاع خوفاً من استيلاء الفرس الذين كانوا مترقبين كل فرصة لابتلاع البلاد حتى آخر ملوك هذه العائله المدعو (نكتانيبس) الذى حصلت فى أيامه عدة وقائع حربية بينه وبين الفرس انتهت أخيراً بتغلبهم عليه مع ما كان متخذه من الاحتياطات الزائدة بجيشه العظيم الذى كان تحت قيادة كثير من القواد اليونانيين المجربين . وكان هذا الملك آخر من حكم البلاد المصريه من المصريين الاصليين لانها خرجت من يده الى الفرس ومنهم الى اليونان ثم الروم ثم العرب ثم الترك

﴿ العائلة الحادية والثلاثون ﴾

﴿ وهى الدولة الفارسية الثانيــة ﴾

هذه العائلة حكمت ثمانية سنين وعدد ملوكها ثلاثة أولهم الملك (أوخوس) الذى نزع البلاد من المصريين ثم مات مسموماً فتولى بعده ابنه (أرسيس) الذى مات بعد سنتين وقام بعده أحد أقاربه المدعو (دارا الثالث) الذى كان معاصراً للاسكندر المكدونى فتقهقرت فى أيامه دولة الفرس حيث كانت دولة اليونان آخذة فى التقدم والاتساع بهمة الاسكندر المذكور الذى افتتح البلاد ووسع

المملكة الى أن استولى على الهند وفارس ثم غار على مصر أخيراً وهناك حصلت موقعة هائلة كان فيها دارا الثالث ملك مصر فانهزم هو وجيشه بعد أن قتل الخلق الكثير ومن ضمنهم دارا المذكور فانتقلت بعده مصر الى اليونان

﴿ العائلة الثانية والثلاثون ﴾

﴿ وهى الدولة اليونانية ﴾

حكمت تسعة سنين وأول وآخر ملوكها الملك (اسكندر الاكبر المكدوني) الذى استولى على مصر عنوة وابتنى مدينة الاسكندرية التي دفن فيها بعد أن مات فى بابل وعمره ٣٣ سنه . وكان رجلاً عاملاً شجاعاً غيوراً على الدولة والامة

﴿ العائلة الثالثة والثلاثون ﴾

هذه العائلة حكمت ٢٩٣ سنة وعدد ملوكها خمسة عشر ملكاً أولهم (بطليموس الأول) الذى كانت أيامه أيام تقدم وفلاح حيث أنشأ المدارس وأكثر الصناعة وعزز العلم فى ذلك العهد خصوصاً فانه أنشأ المكتبة الشهيرة التي طار صيتها فى الآفاق

ومن ملوكها (بطليموس السابع) الذى كان عاقلاً حكيماً منشطاً للعلم والصناعة حتي وأنه كان يمارسهما بنفسه فألف نحواً من أربعة وعشرين مدرسة معظمها تدرس علم الحيوان

ومن ملوكها (كيليوبيطرا) التى كانت غاية فى المكر والدهاء متناهية فى الجمال حتى وأنها بسبب ذلك كانت منغمسة مدة حكمها فى ملاذ الدنيا وملاهى الحياة الى أن انتهى أمرها أخيراً بأن قتلت نفسها بنفسها فانتهت اليونان من مصر بانتهائها حيث دخلت فى حكم الرومانيين

﴿ العائلة الرابعة والثلاثون ﴾

﴿ وهى الدولة الرومانية ﴾

هـذه الدولة حكمت ٤١١ سنة وكانت ترسل من قبلها ولاةً على مصر ليس فى سرد أخبارهم مايستحق الذكر سوى ان الديانة المسيحيه كانت ظهرت وقتها فى عالم الوجود فجاء بعض نصرائها الى مصر ولاقوا امالاقوه من الاضطهادات الشديدة التى أشهرها اضطهاد (ديوقليطس) حيث استبدّ بالمسيحيين فقتل منهم الجمّ الغفير بين كهنة وعامة حتى سنة ٣٨١ ميلادية قام امبراطور الروم (ثيودوسيوس) فنهى المصريين عن عبادة الاصنام واستمالهم للديانة المسيحية وتنفيذاً لذلك هدم كافة الهيا كل وأبطل التقاليد الوثنية الدينية بمساعدة بطريرك اسكندرية وقتها الذى كان يدعى (ثيوفيلوس) وهما اللذان فى الحقيقة يستحقان الثناء والمثوبة من الله والناس أجمعين لانهما كانا سبباً لاخراج المصريين من الظلمات الى النور ومن هنا يبتدئ الدور المسيحى

﴿ الدور المسيحى ﴾

وهو الدور الذى مكث ٢٥٩ سنة والبلاد المصرية لم تزل على حالتها الاولى من عدم استقلالها بنفسها ووجودها فى حوزة الاجانب حيث لما دخل الدين المسيحى فى البلاد المصرية أخذ ينمو وينتشر بسرعة زائدة فانتشلت الامة المصرية بواسطته مما كانت فيه من الجاهلية الأولى وأصبحت تدين بالدين الذى فى الحقيقة أشرف مما كان المصريون يدينون به ويعبدونه من التماثيل والاصنام فى ذلك الوقت . وتصادف أن امبراطور الروم (ثيودوسيوس) البادى ذكره توفى سنة ٣٩٥ ميلادية فانقسمت مملكته الى قسمين عظيمين ترأسهما ابناه اللذان مافتئا يتناظران ويتنازعان حتى تمكن الحقد فى صدورهما فكثرت الانقسامات الاهلية خصوصاً الدينية التى ازدادت شيئاً فشيئاً فقامت الحرب سجالاً بين

اللاهوتيين حيث كان وقتها الحاكم على مصر من قبل الدولة الرومانية هو المقوقس يوحنا بن قرقت اليونانى الذى انتهز فرصة ذلك الفشل وتلك الفتن الداخلية فوجّه دقّة أفكاره للتخلص من الدولة الرومانية والاستقلال بنفسه حيث رأى وقتها أن ذلك مطابق لافكار عموم الامة المصرية الا أن المقادير من جهة أخرى أعدّت البلاد المصرية لأمة حديثة ألا وهى الأمة الاسلامية التي باستيلائها على البلاد المصرية انتهى الدور المسيحى وابتدأ الدور الاسلامى

﴿ الدور الاسلامى ﴾

بينما كان الدين المسيحى آخذاً فى الانتشار خصوصاً بين المصريين ظهر محمد صاحب الشريعة الاسلامية عليه أفضل الصلاة والسلام فأخذ فى نشر دعوته بين الناس خصوصاً بين الملوك والامراء والحكام الذين كان من ضمنهم المقوقس حاكم مصر حيث لما ان وصلته تلك الدعوة بعث لمحمد صلى الله عليه وسلم هدية سنية كانت سبباً لتمكين الصلاة بين مصر ودولة العرب حتى سنة ١٨ هجرية كان أمير العرب أعنى أمير المسلمين أو أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب الذى اتسعت الدولة الاسلامية فى أيامه اتساعاً زائداً فتاقت نفسه بل نفس عموم المسلمين لفتح البلاد المصرية فأرسل لها أحد قوّاده المشهورين بالحزم والعزم وهو المدعو عمرو بن العاص الذى قاد أربعة آلاف من الرجال الاشداء فأبلوا بالمصريين بلاء حسناً الى أن وصلوا سفح جبل المقطم الا أن الفتح تعذر عليهم فى ذلك الوقت فأمدهم الخليفة بأربعة آلاف آخرين وساروا جميعاً قاصدين المقوقس الذى على مايظهر كان متألما فى السرّ من حكم الروم نظراً لما بينه وبينهم من الضغائن الناتجة من الانقسامات الدينية . لذلك مال لمسالمة العرب فأرسل لعمرو بن العاص رسلا حاملين منه كتاباً ولو ان فيه بعض التهديد إلا انه طلب منه رجالاً يتفاوض معهم فى مايلزم لحالة الطرفين حقناً للدماء فكتب له عمرو مانصه :

« انه ليس بيني وبينكم الا احدى ثلاث خصال : إما ان دخلتم فى الاسلام فكنتم إخواننا وكان لكم مالنا . وإن أبيتم فأعطيتم الجزية عن يد وأنتم صاغرون . وإما ان جاهدناكم بالصبر والقتال حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين »

فلما جاء الرسل اليه سألهم عن العرب وماهم عليه فقالوا له : « رأينا قوماً الموت أحبّ الى أحدهم من الحياة والتواضع أحبّ الى أحدهم من الرفعة . ليس لأحدهم فى الدنيا رغبة ولا نهمة . إنما جلوسهم على التراب وأكلهم على ركبهم وأميرهم كواحدمنهم لايعرف رفيعهم من وضيعهم ولا السيد من العبد . واذا حضرت الصلاة لم يتخلف عنها أحدمنهم . يغسلون اطرافهم بالماء ويخشعون فى صلاتهم »

فلما سمع المقوقس ذلك مال لهم كثيراً وسعى فى المسالمة بعد أن عرضها على رجال حكومته واستحوذ على أفكارهم حتى انصاعوا اليه ووافقوه على طلب الصلح فكتب لعمرو بن العاص يطلب منه رسلاً يتفقون على مافيه الصالح للطرفين فأرسل له كما أراد الا أن الصلح لم ينته الا بعد أن تقابل عمرو ابن العاص بالمقوقس وتحررت الشروط بينهما مشتملة على رعاية المصريين الذين هم الاقباط الآن رعاية عامة . وبذلك انتهى الفتح وابتدأ الدور الاسلامى من سنة ١٨ هجرية بدولة العرب فى أفريقا ثم بالدولة الأموية فالدولة العباسية الاولى فالدولة الطولونية فالدولة العباسية الثانية فالدولة الاخشيدية فالدولة الفاطمية فالدولة الايوبية فدولة المماليك الاولى فدولة المماليك الثانية فالدولة العثمانية التى تحكم البلاد المصرية الآن حكماً معنوياً لأن السلطة المطلقة هى فى أيدى العائلة المحمدية العلوية والآن فى أيدى عزيز مصر خديوينا عباس باشا حلمى الثانى الذى ألقى أمور البلاد بين يدى الدولة الانكليزية التى أطلقت

حريتنا فأصبحنا فى حال غير حال آبائنا وأجدادنا الاولين

والى هنا انتهى بنا الكلام عن العشيرة الحامية والآن سنشرح شيئاً عن العشيرة اليافثية فنقول :

الفصل السادس

﴿ العشيرة اليافثية ﴾

هذه هى العشيرة الثالثة التى تناسلت من يافث بن نوح وكانت فى مبدأها مستوطنة مع العشيرتين السالفتين الى ان حصل بينهم التزاحم والتنافر فالتجأت هذه للمهاجرة الى بلاد أوروبا واستوطنتها كما أجمع على ذلك أغلب المؤرخين . غير اننا لانعرف ليافث المذكور اولاداً خلاف سبعة أولاد نذكرهم كالآتى :

١ ــ جومر ــ وهو أصل القبائل القديمة التى توطنت فى غابر الازمان حول بحر بنطش المشهور الآن بالبحر الاسود وفى شمال جزيرة المورة ببلاد اليونان . وقيل بأن هذا أعقب من الذرية ثلاثة أولاد : أولهم (اشكناز) وهو أبو القوم المعروفين باسم الجرمانيين أو الالمانيين والاسكانديناويين حيث كانوا وقت ذلك منضمين مع بعض فى الشمال الشرقى من البحر الاسود ثم استوطنوا أخيراً البلاد الموجودين فيها الآن . ثانيهم (ريفاث) وهو أبو القوم المعروفين باسم السلتيين والغاليين الذين كانوا متوطنين أولاً فى الجبال المسماة قديماً باسم جبال الريفة والآن باسم جبال الكربات بأوربا ثم انتشروا بعد ذلك فى الجهة الغربية من أوربا فتكونت منهم أسلاف الامة الفرنساوية . ثالثهم (توجرمة) وهو أبو الأرمن كما ثبت ذلك من رواياتهم المأثورة وحكاياتهم التى لم تزل تتداولها ألسنتهم لغاية الآن

٢ ــ مأجوج ــ وهو الذى ذكره القرآن الشريف مصحوباً باسم يأجوج

حيث نفهم من تفصيل تاريخ بنى اسرائيل أن قومه كانوا من المفسدين فى الارض الذين سماهم يوسف المؤرخ اليهودى باسم السيتيين وكان معظمهم قاطناً فى الجهات الشمالية من بلاد اوروبا وآسيا • وللمؤرخين أقوال عديدة فى أصولهم نعلم منها ان أسلاف الترك الذين يحكموننا الآن هم من هؤلاء القوم

٣ ــ ماداى ــ لانعلم عنه شيئاً يستحق الذكر

٤ ــ توبال ــ وهو أبو القوم المعلومين عند اليونانيين باسم (التيبارينيين) ولم يزل من نسلهم القبائل المقيمة للآن بجبال قوه قاف

٥ ــ ماشك ــ وهو مسوخ الذى هو أبو القوم المعبر عنهم فى تاريخ هيرودوت باسم المسوخيين الذين كانوا مقيمين فى الاراضى الكائنة بين بلاد التيبارينيين المذكورين آنفاً واقليم أفريجية ببلاد آسيا الصغرى

٦ ــ تيراس ــ وهو أبو القوم المدعوين عند اليونان باسم (الاتراسيين) أعنى بهم أهل أقليم تراسية القديمة وهى الجزء الشمالى الشرقى من ايالة الروملى

٧ ــ ياوان ــ المعرّب بيونان ــ وهو أبو القوم اليونانيين الذين عند ماهاجروا من آسيا انتشروا بجزائر الأرخبيل اليونانى التى من ضمنها جزيرة كريد • وكذلك منهم القوم المعروفون الآن باسم الارنؤوط وأغلب سكان بلاد ابتاليا الاقدمين

هؤلاء هم أولاد يافث بن نوح الذين انتشروا بأوروبا وأقاموا ماأقاموه من العصبية والقبائل والدول والممالك التى أصبح لكل منها تاريخ مخصوص لو أردنا ولوجه لطال الشرح وضاق بنا المقام

أولئك هم المعبر عنهم فى هذا العصر بالغربيين الذين كانوا أولاً فى جهلهم يعمهون وأصبحوا الآن فى بحبوحة السعادة يمرحون بل أصبحت الدنيا لهم خادمةً أينما حلوا وكيفما شاؤوا حتى نسوا بل تناسوا حالتهم الاولى فوضعوا

أنفسهم فى مصاف الملائكة كأن الله خلقهم فسوّاهم من طينة مخصوصة غير طينة اخوانهم الساميين والحاميين فاستعبدوهم واسترقوهم استرقاقاً يشخص أمامنا ما كان الانسان فيه أولاً من الجهالة الزائدة والاستعباد العقيم مع أنهم الآن فى وقت قد كثرت فيه العلوم والمعارف فاستنارت الافكار واستضاءت العقول وبزغت أشعة المدنية من فرق رؤوسنا وأدلت لنا دلوها لنستقى منها ماء زلالاً يسرى فى شراييننا فيطهر أجسامنا وقلوبنا فنعيش مع بعضنا عيشة الاخاء والمساواة والراحة التامة الى أن تنتهى مأموريتنا فى هذه الحياة الدنيا كما قضت بذلك عدالة الله وإنسانية الخلق وضرورة الائتلاف والاجتماع . ولكن أنى لليافثيين يعرفون ذلك وقد غلبت عليهم نشوة الكبرياء فلم يخطر على بالهم بل لم يعوا صعوبة ذلك الاستعباد العقيم الا أنهم معذورون فى ذلك لأن الانسان من طبعه أميل للشرّ أكثر منه الى الخير خصوصاً اذا ساعده الوقت وخدمه البخت فانه ينسى حالاً ماحاق به وبغيره من الصعوبات والاهوال والمصائب فيستأثر بالسلطة ويعامل أخاه بمنتهى القسوة دون أن يلفت نظره لنتيجة ذلك على الاطلاق كأن قلبه قد صيغ من حجر صلد أو حديد بارد

نقول ذلك ونحن لانعلم من أمرهم شيئاً واحداً بل نعلم أشياء كثيرة لاتعدّ ولاتحصى كلها مخالفة لاوامر الله ومغايرة للدين بل للانسانية على الاطلاق . تلك التي أخصها إهراق الدماء ويتم الاطفال وفناء العائلات وخراب البيوت بما يأتونه من الحروب المستمرّة بل المجازر البشرية لالشئ عظيم أو عمل مفيد بل لحاجة فى نفس يعقوب مبناها الجشع ومآلها الفخر الكاذب والسلطان الموهوم

نعم مثلهم فى ذلك كمثل أولئك الساميين والحاميين من عهد أن كوّن الله الأكوان وخلق الخلق أجمعين الا اننا من جهة أخرى يلزمنا أن نراعى

ما كانت عليه الازمنة الغابرة من التأخير فضلاً عن ان وقائعهم الحربية وخسائرها خصوصاً قتلاها العديدين فى ذلك الوقت لم يكونوا شيئاً مذكوراً فى جانب ما نراه الآن . والبرهان على ذلك يتضح مما بين أيدينا الآن من الآلات النارية السريعة الطلقات كالبنادق وأنواعها والخناجر وأشكالها والمدافع وقلها خصوصاً مدافع مكسيم التي تجندل فى الدقيقة الواحدة آلافاً مؤلفة فضلاً عن سهولة النقل وسرعة المواصلات التى تأتت حديثاً بانشاء السكك الحديدية والتلغرافات والتليفونات والأساطيل البحرية والوابورات الحربية التي تدك الأرض دكاً وتفتت الصخور تفتيتاً فى أقل من لمح البصر . كل ذلك جعل فى الحرب سهولة وفى الأقدام عليها جرأة وفى الفتك بعباد الله ذريعة كما حصل فى القرن التاسع عشر بين الانكليز والبوير وبين الروس واليابان مما شكت منه السماوات والأرضون وحزنت لأجله الجبال والوديان واقشعرّت منه الأبدان كلما ذكره الذاكرون وتحدث به المتحدثون

أجدادنا وآباؤنا ونحن جميعاً نعتقد بأن التقدم فى معارج المدنية يكفر سيئات الانسان ويهديه النجدين فيمتنع عن المفاسد والشرور الا أننا ويا للاسف بينما نسمع عن الغربيين بأنهم قد بلغوا فى المدنية شأواً بعيداً نراهم قد أفسحوا المجال للرذيلة وضيقوا الخناق على الفضيلة كأن لا تأثير لمدنيتهم على ما جبل عليه الانسان من المفاسد والشرور

ذلك ما يبرهن لنا على أنهم لم يزالوا فى الجاهلية الأولى وما مدنيتهم المرئية الآن الا زخارف وطو ولعب قد أضلتهم عن سواء السبيل فأتوا ما أتوه مما تمجه الأذواق وتأباه النفس وتخشاه الانسانية والآداب فالله يهديهم ويرحمنا جميعاً وهيئ لنا من أمرنا رشداً حتى يستقيم الانسان على وجه العموم فيسعى فى صلاح نفسه حالاً واستقبالاً إنك أنت الغفور الرحيم

﴿ تمّ الكتاب بحمد الله ﴾

﴿ فهرست ﴾

صحيفه		صحيفه	
٣	المقدمه	٢٧	اقسام الارض
	الفصل الاول	٢٨	المياه
١٠	الكون	٢٩	المطر
١١	العالم الشمسى	٢٩	« البلورى أو البرد
١٢	العالم الفرساوسى الجديد	٢٩	« الملوّن
١٤	عمر الكون	٣٠	« السمكى
١٧	فناء الكون	٣١	« الحجرى
٢١	الكواكب السماوية	٣٢	الرعد
٢٢	تعدادها	٣٢	البرق
٢٢	منافعها	٣٢	الصاعقة
٢٢	الهواء	٣٣	قارة آسيا
٢٢	طبقاته	٣٣	الاقليم الشمالى
٢٣	تحركاته	٣٤	« الغربى
٢٤	منافع حركته	٣٥	« الشرقى
٢٤	الارض	٣٧	« الجنوبى
٢٥	شكلها	٣٨	قارة أفريقا
٢٦	دورانها	٤٣	« أوروبا
٢٦	النهار والليل	٤٧	« امريكا
٢٧	السنة وأيامها	٤٧	« الشمالية
٢٧	الاشهر	٤٨	« الوسطى

obeikandl.com

صحيفه	
٤٨	قارة الجنوبيه
٤٩	« استراليا
٥٠	الكواكب المسكونه
٥١	المريخ
	الفصل الثانى
٥٦	الانسان
٥٨	اصل الانسان
٦٧	عقل الانسان
٦٩	مركز العقل
٧١	عقل الحيوان
٧٤	المعيشة الأولى للانسان
٧٦	لغة الانسان
٨٠	اللغة الاولى للانسان
٨١	عمر الانسان
	الفصل الثالث
٨٧	آدم ابو البشر عليه السلام
٨٩	قابيل وهابيل
٩١	شيث عليه السلام
٩٢	نوح
٩٢	الطوفان
٩٥	جبل ارارات
٩٦	التبليل

صحيفه	
	الفصل الرابع
٩٧	العشيرة السامية
٩٩	هود عليه السلام
٩٩	صالح «
١٠٠	ابراهيم «
١٠٠	لوط «
١٠٦	اسحاق «
١٠٦	عيص «
١٠٦	يعقوب «
١٠٦	يوسف «
١٢٠	موسى «
١٢٥	يوشع «
١٢٦	قضاة بنى اسرائيل
١٢٨	الياس عليه السلام
١٢٨	اليشع «
١٢٨	اشمويل «
١٢٨	داوود «
١٢٩	سليمان «
١٣١	يونس «
١٣٢	دانيال «
١٣٣	عيسى عليه السلام
١٣٤	محمد صلى الله عليه وسلم

obeikandi.com

صحيفه	
١٣٧	الهجره
	﴿ الفصل الخامس ﴾
١٣٩	العشيرة الحامية
١٤٢	الدولة المصرية
١٤٣	الدور الجاهلى
١٤٣	العائلة الاولى
١٤٤	« الثانية
١٤٤	« الثالثة
١٤٥	« الرابعة
١٤٦	« الخامسة
١٤٦	« السادسة
١٤٧	« السابعة
١٤٧	« الثامنة
١٤٧	« التاسعة
١٤٧	« العاشرة
١٤٨	« الحادية عشر
١٤٨	« الثانية عشر
١٥١	« الثالثة عشر
١٥١	« الرابعة عشر
١٥١	« الخامسة عشر
١٥١	« السادسة عشر
١٥١	« السابعة عشر (الرعاة)

صحيفه	
١٥٣	العائلة الثامنة عشر
١٥٤	« التاسعة عشر
١٥٥	« العشرون
١٥٦	« الحادية والعشرون
١٥٧	« الثانية والعشرون
١٥٧	« الثالثة والعشرون
١٥٧	« الرابعة والعشرون
١٥٨	« الخامسة والعشرون
١٥٨	« السادسة والعشرون
١٥٩	« السابعة والعشرون
١٥٩	« الثامنة والعشرون
١٦٠	« التاسعة والعشرون
١٦٠	« الثلاثون
١٦٠	« الحادية والثلاثون
١٦١	« الثانية والثلاثون
١٦١	« الثالثة والثلاثون
١٦٢	« الرابعة والثلاثون
١٦٢	الدور المسيحى
١٦٣	الدور الاسلامى
	﴿ الفصل السادس ﴾
١٦٥	العشيرة اليافثيه

obeikandl.com

مؤلفات المؤلف

الحجاج	(روايه)	نفدت
فاتنة الملوك	«	«
كتاب أمّ الدنيا	(تاريخ)	ثمن النسخة ٥ غروش صاغ
« أبو الدنيا	«	« «
« الاسلام	«	بدون طبع
« الحياه	(أدبى)	بدون طبع

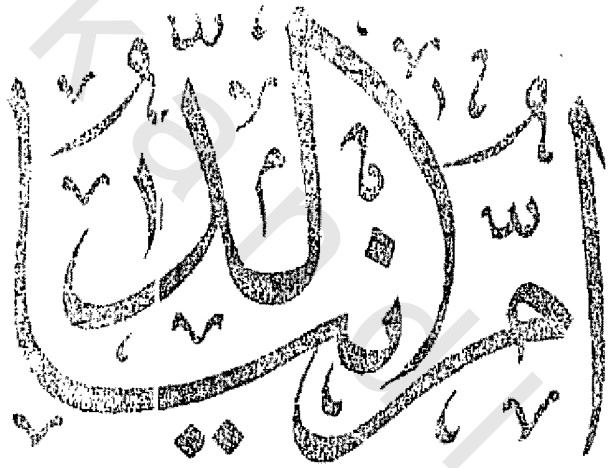

المرأة وحالتها من عهد الخليقة للآن

هو ذلك الكتاب الذى ينبئك عن المرأة وحالتها من عهد الخليقة للآن ويشرح لك ماانتابها وما تقلب عليها من انواع التعاسة وضروب السعادة منتهياً ذلك بخلاصة ماتستحقه المرأة فى الهيئة الاجتماعية على وجه العموم سواء كانت مسلمةً أو مسيحيةً أو يهوديةً أو مجوسيةً أو غير ذلك من كل امرأة توجد تحت هـذه القبة الزرقاء . وهو يطلب من عموم المكاتب بمصر أو يطلب من مؤلفه حضرة الاديب على افندى احمد الشهيدى بنظارة الحربية بمصر